الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة وهران

كلية العلوم الاجتماعية

قسم الفلسفة

الفلسفة الأمريكية بين الليبرالية و البراغماتية

شارل بيرس نموذجا

أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة

إعداد الطالبة

حيرش سمية

إشراف الأستاذ

أد أحمد العلوي

لجنة المناقشة

أد. البخاري حمانه	رئيسا	جامعة وهران
أد.أحمد العلوي	مقررا	جامعة وهران
أد.عبد القادر بليمان	مناقشا	جامعة الجزائر
أد.شايف عكاشة	مناقشا	جامعة تلمسان
د.موسي عبد الله	مناقشا	جامعة سعيدة
د. حميد حمادي	مناقشا	جامعة وهران

السنة الجامعية 2011_2012

الفلسفة الأمريكية بين الليبرالية و البراغماتية
شارل بيرس نموذجا

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلي والدي رحمة الله عليه

إلي أمي

إلي أختي وأخي محمد عبد المؤمن

كلمة شكر

إلي أستاذي الأستاذ أحمد العلاوي الذي أشرف علي هذا العمل وتابعه طيلة ما يقرب من خمس سنين، إلي أستاذي البخاري حمانه الذي قدم لي من النصائح و من المراجع ما أعجز عن إيفائه حقه هنا.
و أقدم شكري خاصة إلي الأستاذ بهادي منير الذي كان له الفضل الكبير في مواصلة هذا العمل، وشكري أيضا إلي الآنسة خضرة.
وإلي كل أعضاء قسم الفلسفة أساتذة...وكتاب وعمال وعاملات...أعبر هنا عن شكري لهم جميعا.

المقدمـــــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة تاريخية ومنهجية

أ) ــ تاريخية وراهنية الموضوع:

الليبرالية...إيديولوجية أمريكا الاقتصادية والسياسية تماما مثلما أن البراغماتية فلسفتها النظرية والعملية الخاصة.

و الليبرالية [1] في شكلها الحالي، التي تعود جذورها إلي القرنين السابع والثامن عشر، إن لم يكن قبل ذلك، تغذت، لا فقط من التقدم العلمي والتقني والاجتماعي الذي حققته أوروبا بصورة خاصة، وذلك من خلال انتقالها من عهود الإقطاع إلي عهود... الميركانتيلية (Le Mercantilisme).

والرأسمالية (Le Capitalisme) [2] والليبرالية (Le Libéralisme) والليبرالية الجديدة (Le néo-libéralisme)، بل إنها تغذت كذلك من تقدم العلوم والتقنية ومن الفلسفات التي عرفتها الإنسانية، ممثلة في الفلسفة اليونانية خاصة، وفي مختلف التيارات الفلسفية التي تولدت عنها في أوروبا...وخارجها عامة.[3]

من هنا... علاقاتها بالفلسفة أو المذهب الفلسفي البراغماتي...، بصورة عامة بالبراغماتية (Le Pragmatisme)، بصورة خاصة، وهي الفلسفة التي ظهرت وتجسدت كفلسفة أمريكية

---

(1) _ Georges Burdeau : Le Libéralisme, Seuil, Paris, 1972, P,93 .
(2) _ Cf., Alain Cotta : Le capitalisme, que sais-je ? PUF, Paris, 1972.
(3) _ Cf. Rawls John : Le libéralisme politique, Éd du Seuil, Paris, 1993.

خاصة..ومعبرة منذ النصف الأول في القرن الثامن عشر عن الواقع الاجتماعي الخاص بأمريكا، المتعدد الألوان والأجناس والعقائد والثقافات والحضارات، والذي بدأ ليتشكل منذ اكتشاف العالم الجديد1777، علي يد العديد من المهاجرين الفارين من الاضطهاد الديني والاقتصادي والسياسي... والاجتماعي... لحكامهم الأوروبيين.

و لأن الليبرالية والبراغماتية وليدتي فلسفات وفلاسفة أوربيون، وذلك من أمثال "ديكارت" (R. Descartes) (1596-1650) وعقلانيته، و "كانت" (E. Kant) (1724-1804) ونقديته... و"هيغل" (Hegel) (1770-1831) ومثاليته،...وغيرهم كثيرون، خاصة من الواقعيين (Les réalistes)، فإننا نفهم بالتالي العلاقة، أو العلاقات المشتركة بينهما، كما نفهم كذلك نقاط الالتقاء والاختلاف المتعددة بينهما كذلك، وهذا علي مستوي المفهوم والمنهج والأهداف والنتائج. كما نفهم كذلك وبالتالي تقاربهما...و تباعدهما في الوقت نفسه.

فقد جاءت كل من البراغماتية لفلسفة والليبرالية كإيديولوجيتين معبرتين إلي حد كبير، عن ذلك الواقع الاجتماعي الأمريكي الذي نجح أولئك المهاجرين في إقامته... وعن حاجاته ومشاكله الجديدة، الإنسانية منها، والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعقائدية والثقافية علي حد سواء [4].

كما جاءت كل من الليبرالية والبراغماتية، بحلول لتلك المشاكل... وهي الحلول المستوحاة من تلك المعادلة الاجتماعية القائمة علي الفردية_الجماعية [5] التي لا تطغي فيها الجماعية علي الفردانية، ولا يتجاوز فيه في الوقت نفسه هذا الأخير المصالح المشتركة للجماعة.

---

[4]ـ د. زكي نجيب محمود: حياة الفكر في العالم الجديد، دار الشروق، القاهرة، 1956، ص8.

[5] _ Deledalle Gérard : La Philosophie Américaine, édit. L'âge d'homme, Lausanne, 1983, P,16.

[6]ـوهي المبادئ التي شكلت منذ سنة 1776 المدخل الرئيسي لوثيقة الاستقلال الأمريكي (The act of indépendance) وهذه المبادئ تتعلق بالمقاربة الأمريكية للإنسان وللطبيعة وهذه المبادئ، أن كل الناس ولدوا سواسية، وأنهم خلقوا منذ الميلاد ومنحوا من طرف الله الذي خلقهم حقوقا لا يمكن لأحد أن يسلبهم إياها. كما إن

وأخيرا، وليس آخرا، فإن الليبرالية والبراغماتية جاءتا مدعمتين مثل الفلسفة الأمريكية عامة للمبادئ السياسية الأمريكية، ممثلة في تصريح الاستقلال 1776 (Act of independence) وفي الدستور الأمريكي الذي تلاه والممثلة في احترام الفردية... والحرية والديمقراطية وحرية الرأي والعقيدة والفكر والعمل [6].

بذلك، ارتبطت كل من الليبرالية والبراغماتية ارتباطا ديناميا وعمليا وثيقا بالواقع الأمريكي، وابتعدتا... عن الجمود... والدوغمائية قدر ابتعادها عن الخيال... والنظريات التي لا صلة لها بمثل ذلك الواقع الأمريكي خاصة... وبالواقع عامة مجسدين بذلك مضمون الفلسفة الأمريكية.

و بذلك أكدتا كذلك وبالتالي أنهما إيديولوجيا وفلسفة النجاح الإنساني اللامحدود... إلا بحدود قدرة الإنسان، نجاح لا يلغي العقل من أجل العقيدة، أو هذه الأخيرة من أجل العقل ولا يضحي بمصلحة الفرد من أجل مصلحة الجماعة، أو بمصلحة هذه الأخيرة... من أجل مصلحة الفرد... بل يوازن بينهما باستمرار... موازنة، نلاحظ أنها لا تتطابق دوما، قولا وفعلا، مع نوايا وتصريحات... القائمين علي تطبيق هذه المبادئ.

وبذلك أيضا كانت كل من الليبرالية و البراغماتية، أقرب الإيديولوجيات والفلسفات إلي نفسية المواطن الأمريكي، الأمريكي "الباحث دوما عن النجاح،المادي، خاصة، الأمريكي المهوس بالأمن،

من بين هذه الحقوق حق الحياة والبحث عن السعادة، لأن المعني الذي يستند إليه كل نظام أو حكومة هو حماية وضمان مثل هذه المبادئ التي تشمل الحقوق السالفة الذكر، أن أي نضام للحكم لا يستمد شرعيته إلا من طرف المحكومين، أن للشعب الحق في حل هذا الحكم واستبداله بحكم آخر يراعي هذه الحقوق ويضمن أقصي قدر من الأمن والسعادة له أي للشعب.

أنظر أيضا: Cf. Morton (W) : La pensée sociale en Amérique, trad. M. Levi, PUF, Paris, 1963.

الفردي، والمحافظ... والمنعزل من جهة، والمتدخل في شؤون غيره من الشعوب الأخرى من جهة أخري ".

ولأن جهود الإيديولوجيا والفلسفة الأمريكية عامة و البراغماتية خاصة، و البراغماتية البورسوية بصورة أخص نتاج غربي و أمريكي شمالي بصورة خاصة. مثلما أنهما، و إلي حد كبير، نتاج المعطي الاجتماعي و التاريخي والثقافي و الديني و النفسي الأمريكي، و هو الذي يعنينا، هنا فإن البراغماتية والليبرالية، ذوات الأصول الغربية تتكاملان دون أن تذوب إحداهما في الأخرى لتشكلا وكما هو الحال، منذ بداية القرن التاسع عشر وإلي اليوم أبرز التيارات الفكرية والفلسفية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لأمريكا خاصة وهذا منذ استقلالها سنة 1776 وإلي اليوم.

وإذا كنا لن نتوقف طويلا لمعرفة هنا أي من الليبرالية أوالبراغماتية سبقت الأخرى؟ فإن الحقيقة التي لا مجال للشك فيها هي أن كلتيهما كانا وراء ما يصطلح عليه منذ زمن "بالنجاح الأمريكي" (La réussite Américaine).

وهذا النجاح ليس اعتباطيا بل إنه، وكما سنري من خلال هذه الرسالة بل إنه وليد تلك الحقيقة الأخرى التي تؤكد أن البراغماتية والليبرالية كانتا ولا تزالان أفضل من تمثل مشاكل أمريكا الإنسانية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية والثقافية...إلخ، وأول من أسهم كذلك، وإلي حد كبير، في حلها بصورة إيجابية حولت هاذين التيارين، الفكري الإيديولوجي والفلسفي، إلي نموذج يحتذي به من طرف العديد من الشعوب، ومن ضمنها الشعوب العربية، وهذا بالرغم من العديد من الانتقادات التي وجهت، ولا تزال، توجه، لكليهما، والتي سنعرض للبعض منها خلال فصول هذه الرسالة.

فالليبرالية بمبادئها المتمثلة في الحرية وفي الفردانية(l'individualisme) والانفتاح الاقتصادي والمالي وحرية المبادرة الاقتصادية، وحرية السوق والديمقراطية في مفهومها الخاص لها، تلتقي في العديد من النقاط مع البراغماتية خاصة علي مستوي مبادئ الفاعلية والحرية والعمل.

وهذا ما يفسر، من بين ما يفسر، لماذا يوصف المواطن الأمريكي بالبراغماتي الليبرالي تماما مثلما يوصف المواطن الفرنسي بالعقلاني الديكارتي.

ولذلك، أخيرا التقت كل من البراغماتية ومن الليبرالية في العديد من النقاط، فوق الأرض الأمريكية، قدر اقترابها فوقها في العديد من النقاط كذلك، وكما سنري ذلك بشيء من التفصيل في فصول هذه الرسالة.

ب) **تحديد المفاهيم:**

إن هذا يقودنا إلي تحديد...ما نقصده بكل من الليبرالية كإيديولوجيا ومن البراغماتية كفلسفة.

1. الليبرالية

تعرف الليبرالية من بين ما تعرف، "بأنها مذهب سياسي واجتماعي واقتصادي يري أن المنفعة، أو المصلحة العامة (L'intérêt ou le bien commun)، تقتضي بتوسع القانون، قدر الإمكان، أمام الحريات الخاصة(les Libertés individuelles)...وأمام ممارستها، قولا وعملا، مثلما تقتضي نفس تلك المصلحة العامة، التقليص، قدر الإمكان، من تدخل الدولة (L'intervention de L'État)في أمور الناس، وانحصار دورها في تحقيق استتباب الأمن العام الذي يشكل الشرط السياسي لممارسته مثل تلك الحريات [7].

كما أن الليبرالية الجديدة (Le néo-libéralisme) تلح اليوم كذلك، ومن خلال وجهها الجديد، أو الليبرالية الجديدة أو الليبرالية المطلقة(Le Libéralisme absolu)، وفي نظرية رائدها "فريدرك هايك" (Friedrich Hayek) (1899-1992) علي اقتصار مثل ذلك التدخل للدولة، علي المجالات الصحية، وتنظيم العمل...خاصة بالنسبة للنساء والأطفال، وأنظمة التأمينات والتقاعد" [8] .

---

[7] _ P.Foulquié : Dictionnaire de la langue philosophique, PUF, Paris, 1978, P, 79.
Voir également : R. Barre : Economie politique_ Introduction._ Le Capitalisme, Que sais-Je ? A. cotte, Paris, 1977.

[8] _ Ibid, P, 406.

نلاحظ أن هذا الموقف لليبرالية من الدولة ومن تحييد دورها في المجتمع الطبيعي وإن كان موقفا إيديولوجيا... فإنه يلتقي، إلي حد كبير، مع إيديولوجيات أخري مناقضة تماما لليبرالية، مثل الإيديولوجيا الشيوعية... الماركسية...و الاشتراكية.

و الإيديولوجيا تعرف عامة "بأنها نسق من الأفكار يتطلب نظامها تفسيرا من القيم والأساطير والرموز لتفسير العالم السياسي والاجتماعي...".

لذلك فإن الإيديولوجيا، ممثلة هنا في الليبرالية لا يمكن إلا أن تختلف عن الفلسفة، ممثلة هنا كذلك في البراغماتية، التي لا تصور لديها لأي حقيقة سياسية أو اجتماعية لا تقبل النقاش والحوار...

2. البراغماتية :

تعرف البراغماتية، بأنها نظرية أمريكية تجريبية في المعرفة كما تعرف كذلك بأنها الفلسفة الأولي، والوحيدة، حتى الآن، التي يلعب فيها الفعل وآثاره... العملية، دورا سياسيا...[9] كما تعرف بأنها فلسفة الأثر... والنجاح والعمل[10] .

نلاحظ أن... هذا المفهوم للنجاح... وللأثر وللفعل الذي شكل جوهر البراغماتية... في بداياتها الأولي قد بدأ يتواري شيئا فشيئا.. علي يد الأجيال الجديدة من البراغماتيين... مثلما سنري ذلك من خلال فصول هذه الرسالة [11].

---

[9]_Cf. Freeden (M): The New Liberalism, An Ideology of social reform, Clarendon Press, Oxford, 1986.

[10]_ Halévy (E) : La formation du radicalisme philosophique 1901, PUF, Paris, 1995,3vol, P, 22_27.

[11]_ Deledalle Gérard : La Philosophie Américaine, P, 56.

البراغماتية، التي ظهرت في القرن الثامن عشر، كتيار فلسفي أمريكي تغذي من التيارات الفلسفية الأوروبية الوافدة في أمريكا أنه مجموعة من الفلاسفة المناهضين للمثالية ولكنه تميز عنها في النهاية، ومن خلال معظم ممثلي البراغماتية برفعه لشعار الفاعلية والأثر كمعيار للحقيقة وللعمل خاصة .

ج) الإشكالية: (La problématique):

ولتناول هذا الموضوع، المتمثل في المقارنة بين الإيديولوجيا، الليبرالية، والفلسفة، البراغماتية، ...فإن الإشكالية التي تنطلق منها هذه الرسالة،(وهي الإشكالية التي نلاحظ أنها فلسفية أولا، نظرا للطابع الفلسفي لهذه الرسالة واجتماعية بعد ذلك، والإيديولوجيا الليبرالية والفلسفة، أو المذهب البراغماتي، لعبتا ولا يزالان يلعبان دورا أساسيا، لا في التقدم المتعدد المجالات... والأفاق الذي حققته، ولا تزال تحققه، لا الولايات المتحدة الأمريكية فحسب، بل و العديد من الدول التي حذت، بدرجات متفاوتة، حذوها في تبنيها للعديد من الجوانب الإيجابية لمثل هذه الإيديولوجيا لهذه الفلسفة أو لهذا المنهج الفلسفي،وذلك مثل الفردية... والحرية... والفكر العملي... والديمقراطية... الخ .

د) الفرضية:

من هنا فإن الفرضية التي تنطلق منها هذه الرسالة بالتالي هي تلك التي تقول : أن تبني الولايات المتحدة الأمريكية والغرب لليبرالية وللبراغماتية كان ولا يزال وراء العديد من أوجه التقدم الفكري والمادي الذي يعرفونه منذ قرون، مثلما يمكن أن تكونا وراء التقدم الذي ينشده العالم العربي والإسلامي، وغيرهم من الشعوب.

هكذا لعبت كلا من الإيديولوجيا الليبرالية والفلسفة البراغماتية (أو المنهج)، لعبتا وكما سبق أن أشرنا، دورا أساسيا، لا في إرساء دعائم هذه المفاهيم القائمة علي التقدم وعلي الحرية في الولايات المتحدة الأمريكية بصورة خاصة...، وفي التطور المتعدد المجالات والأفاق، العلمية منها والدينية

والاقتصادية، السياسية منها والثقافية الاجتماعية... منها والأخلاقية، وهذا أيا كان الحكم الأخلاقي علي مثل هذا التقدم[12] .

فكيف تجسد مثل ذلك التطور؟ وماهي العوامل الأخرى التي ساعدت عليه؟

وهل يمكن فعلا زرع مثل هذا النموذج المزدوج (البراغماتية والليبرالية)، بنفس النجاح، أو بنجاح مقارب، خارج الولايات المتحدة الأمريكية؟

علي مثل هذه الأسئلة، وغيرها، من الأسئلة الأخرى ذات الصلة ستحاول هذه الرسالة الإجابة... وصولا إلي فهم أفضل للتقدم الأمريكي وإلي الوقوف علي ما أمكن من شروط، لتوظيفها داخل وطننا العربي... بما يتماشي وعقيدته وتراثه، من جهة،.. والتحديات التي لا تزال تجهض طموحاته في مثل ذلك التقدم وذلك التطور المنشودين من جهة أخري.

وما الدور الذي، لعبه، الدين، ولا يزال يلعبه، في كل من ذلك. و هل يمكن تفعيل مثل هذه التجربة الأمريكية الليبرالية البراغماتية ... واستجابتها خارج الولايات المتحدة الأمريكية؟ كيف؟

و لأن الإشكالية في تعريفها الفلسفي خاصة (وهو الذي يهمنا هنا نظرا للطابع النظري و الفلسفي لموضوع هذه الرسالة علي أنها تشكل أطروحة أو قضية يمكن أن تكون صادقة أو كاذبة، فهي تعني إذن طرح قضية أو موضوع ما بالتأكيد أو بالنفي) التي ينطلق منها هذا البحث هي تلك التي تؤكد أن الليبرالية واليراغماتية ، مما تحملانه من مبادئ، نظرية علي الأقل في الحرية والعمل والمبادرة والعقيدة. قد لعبت دورا هاما خاصة علي المستوي الاجتماعي والاقتصادي في توطيد العلاقات داخل المجتمع الأمريكي الجديد المتعدد اللغات والثقافات والحضارات والعقائد كما سبق أن أشرنا.

---

[12]_ Cf. Tocqueville Alexis : De la démocratie en Amérique 1835, in Œuvres complètes, Gallimard, Paris, 1992, vol. II.

كما استطاعت أن توفق بالدرجة الأولي بين الفردية (L'individu) والجماعية (Le collectivisme) [13] فردية تحافظ علي حرياتها ولكنها مفتوحة علي جماعية لا تغرق الفرد تلك الحرية وسطها ولا تذوب الفرد حاملها وسطها.

فكيف تجسد هذا الدور المزدوج لكل من الليبرالية البراغماتية في توطيد حرية الفرد و الجماعة علي حد سواء وفي فاعليتهما معا كذلك وفي نفس الوقت؟

٥) المنهج : (La Méthode)

و للإجابة علي مثل هذه الأسئلة، وغيرها، وتحديد طبيعة هذه العلاقة أو العلاقات بين الليبرالية والبراغماتية وطبيعتها وأثرها، خاصة اليوم، علي الولايات المتحدة الأمريكية فإننا سنلجأ إلي المنهج التحليلي والتاريخي النقدي المقارن، لأننا نعتقد أنه وحده القادر علي تمكيننا من المقاربة التاريخية و الموضوعية لكل من الليبرالية و البراغماتية ولتطورهما، ونقد ما نعتقد أنه سلبيات في كل منهما، وهي عديدة كما سنري، مثل ايجابياتها.

إن هذا المنهج المتعدد يتميز...ببعده التاريخي و بالمقارنة القادرة علي تمكيننا من مقاربة الإيديولوجية الليبرالية والفلسفة أو المنهج البراغماتي بصورة تريد أن تكون أكثر فاعلية وموضوعية هو الذي يجعل المنهج في واحد من تعاريفه، طريقة هادفة إلي الحصول علي أقصي نتيجة مستهدفة بأقل تكلفة، مادية أو معنوية.

كما أنه المنهج التاريخي النقدي يقوم علي الحكم الموضوعي علي انجازات الإنسان...أيا كان ميدانها ونقدها...إن تطلبت النقد.

أما كلمة التاريخي فنعني بها كل ما الذي ينتمي إلي التاريخ أو إلي الصيرورة التي تشكل جوهر الحياة الإنسانية [14].

---

[13] _Cf. Dumont (L) : Essais sur l'individualisme, édit. Seuil, Paris, 1983.

[14] _ Foulquié (P): Dictionnaire de la langue philosophique, PP, 321_441.

و) الأفاق التي يبحثها البحث:

إن هذا العمل حينما يتوقف عند مثل تلك السلبيات التي يتضمنها كل من الليبرالية و البراغماتية، البورساوية بخاصة، فإن لا يهدف إلي مجرد الكشف عن مثل تلك الايجابيات و السلبيات، إنه يهدف أساسا إلي تمكين العرب،من فهمها ، لنمكينه من الاستفادة...الحقيقية من ايجابياتها وصولا إلي التكيف الأفضل مع الواقع العالمي اللتان تصنعانه اليوم

إن هذه الرسالة تأمل أن تسهم بجزء متواضع في الكشف من خلال مقاربتهما لكل من الليبرالية والبراغماتية، اللتان لا تزالان تشكلان ابرز الإيديولوجيات وأبرز الفلسفات ، وأهم رافد للفلسفة الأمريكية المعاصرة[15] ،كما سبق أن أشرنا، عن بعض الجوانب التي يمكن للعالم العربي بصورة خاصة توظيفها من كلتا الفلسفتين أو الإيديولوجيتين للخروج من تخلفه [16] ولتحقيق تقدم يعتمد علي الفاعلية و التقنية ولكنه لا ينسلخ في نفس الوقت ومثلما فعلت أمريكا عن الدين الذي لا حياة للعرب وكما يلاحظ ابن خلدون بدونه [17].

ز) الصعوبات التي واجهها الباحث:

إذا كان من الطبيعي أن كل بحث لا يتحقق إلا من خلال تجاوزه للصعوبات تجاوزا إيجابيا فإن مثل، هذه الصعوبات التي تعرض لها هذا البحث حول الليبرالية والبراغماتية ذات طابعين.

الطابع الأول ويتمثل في غموض بعض المفاهيم البراغماتية وهو الغموض الذي جعل أصحابها يستعملونها استعمالات مختلفة حتى لا نقول متناقضة. وذلك مثل الحقيقة، التي قد تعني لدي البعض منهم، النجاح، وقد تعني لدي البعض الآخر الرضي، ومثل الموضوعية بالنسبة لمفهوم العلم، الذي قد

---

[15] _Cf. Freeden (M) : Ideologies and political theory, Oxford university press, Oxford, 1996.

[16] _Cf. Popper (K): La société ouverte et ses ennemis 1945, Éd du Seuil, Paris, 1980, 2 vol.

[17]ـــ أنظر ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، 1978.

يعني، لدي البعض كذلك يقين العلم ولدي الآخرين يقين، أقرب إلي الذاتية وإلي الصوفية. إن نفس الحقيقة تصدق علي التجربة وعلي المنهج العلمي وعلي الفاعلية...إلخ.

أما **الطابع الثاني** فيتمثل في قلة البحوث والدراسات العربية حول الفلسفة الأمريكية عامة و الفلسفة أو المنهج البراغماتي خاصة.

ح) مكونات الرسالة :

تتكون هذه الرسالة من خمسة فصول، إضافة إلي مقدمة تاريخية ومنهجية وخاتمة، وقائمة بالمصادر والمراجع أ) العربية، ب) الأجنبية ذات الصلة، المباشرة، وغير المباشرة، بالموضوع. و قائمة لأهم أعلام البراغماتية و الليبرالية ثم قاموس بأهم المصطلحات الليبرالية والبراغماتية إضافة إلي المراجع والمصادر الأجنبية والعربية.

الفصل الأول: وهو بعنوان الفلسفة و الإيديولوجيا (العقيدة والحقيقة)، ويتناول بالتحديد والنقد كل من الإيديولوجيا، جذورا و مفاهيما وطروحات وأهدافا ونتائجا، ونقاط الالتقاء، والاختلاف بينهما...

الفصل الثاني: المعنون "بالبراغماتية والليبرالية" (المعرفة والفعل، أو العلم والعمل). وهو يتناول بصورة خاصة التطور التاريخي لكل من الليبرالية والبراغماتية...وطروحات وتصنيفات ومدي التفاعل والتكامل ...ومدي الاختلاف والتناقض بينهما كذلك...

الفصل الثالث: وهو بعنوان الفردانية، والدولة والديمقراطية (أو المصالحة الصعبة)، ويتناول محاولة التوفيق بين مثل هذه الأطروحات...، وهذا بالرغم من ادعاء، الليبرالية خاصة، أنها نجحت في حلها... ومدي أثر مثل تلك المصالحة الصعبة، لا علي المجتمع الأمريكي، الذي تبني، وكما سبق، مثل هذه الإيديولوجيا وهذه الفلسفة فحسب، بل وعلي بقية شعوب العالم.

الفصل الرابع: وهو بعنوان " مرآة أمريكا المكسورة"، (بحثا عن الإنسان من جديد)، الإنسان الذي غابت أو بالأحرى غيبت، الإيديولوجيا الليبرالية أبعاده الإنسانية، وسط مثل تلك الفردانية والآلية، والتقنية الطاغية، وطغيان عقلية الربح... والتجارة... علي العديد من القيم الإنسانية الحقيقية خاصة قيم التضامن الاجتماعي والرعاية، للعجزة وللفقراء، وتحقيقي السعادة الحقيقية للمواطن الأمريكي عامة..و للإنسان عامة.

الفصل الخامس: و يتناول موقف أو مكانة العالم العربي، الذي يمر اليوم بما يسميه البعض " ربيعه السياسي ومراحل الحرية و الكرامة " (Le printemps arabe) من كل من الليبرالية ومن البراغماتية وهو كما يدل عليه عنوانه فصل نقدي... ل كل من الليبرالية أو المنهج الفلسفي البراغماتي كما أنه فصل يتضمن مقارنة بالنظام بين هاتين الأخيرتين وبين الاقتصاد الإسلامي.

الفصل الأول

عن الإيديولوجيا وعن الفلسفة (العقيدة والحقيقة)

لأن موضوع هذه الرسالة هو البراغماتية والفلسفة، أو المنهج البراغماتي، فإننا نقول بادئ ذي بدأ أن بين الإيديولوجيا، أيا كانت، وبين الفلسفة، أيا كانت العديد من نقاط الالتقاء والتشابه بقدر ما بينهما من العديد من نقاط التباعد والاختلاف، كما سبق أن أشرنا في مقدمة هذه الرسالة.

فالإديويولوجيا والفلسفة تتحدان في الجذور المشتركة، وتختلفان تاريخيا، ومنهجا... حيث أن رحلة الفلسفة، أم العلوم، من المجرد إلي الملموس، ومن الملموس إلي المجرد، لا تضاهيها تاريخيا رحلة الإيديولوجيا التي استنبطت بدورها من الاعتقادات الكبرى لحياة الأمم والشعوب الأمر الذي تجعلهما صادرتين "عن الهم الإنساني المشترك، الهم الأصلي المتجدد والمتسائل: بأي وعي يسعد الإنسان، يحقق يتغير...وهو يفسر المكان بزمانه الخاص؟" [1]

من هنا كانت الإيديولوجيا مجددة للإنسان ولفكره هذا، و بالرغم من رفعها لشعار التفسير وذلك لأنها لا تستهدف سوي إبقاء الإنسان علي وضع سياسي واجتماعي لا يتغير.

ولأن الوعي الفلسفي مثل الوعي الإيديولوجي، يهدف، كل حسب طريقته، إلي التحقق الإنساني الأفضل، فإن مثل هذا الهدف يفرز العديد من الإشكال ومن الإشكالات... بين الإيديولوجيا وبين الفلسفة كما سنري ذلك.

[1]ــ د. فاضل الجمالي، الإيديولوجيا و الفلسفة، مجلة الفكر المعاصر، العدد14 بيروت، 1980، ص6 و مابعدها.

ذلك أنه إذا كان الوعي الفلسفي يطمح إلي وعي الأعماق، فإن الإيديولوجيا تطمح إلي وعي عام، لا يتآخي مع الفلسفة إلا ليناقضها... وأحيانا ليقابلها بل وليقتلها.

إن مثل هذا الاختلاف وهذا التداخل معا بين الإيديولوجيا وبين الفلسفة هو الذي سيولد كذلك العديد من نقاط الالتقاء... مثلما سيولد العديد من نقاط الاختلاف و هي النقاط التي سنعرض لها تباعا في هذا الفصل.

علي أننا سنتوقف قبل ذلك عند كل من الإيديولوجيا ومن الفلسفة، مصطلحا ومفهوما، مناهج وأهداف.

I) الإيديولوجيا: المصطلح والمفهوم.

تعني الإيديولوجيا (L'idéologie)، الكلمة ذات الأصل اليوناني و المكونة من فكرة (Idée) ومن لوغوس (Logos)، علم الأفكار (La science des idées).

و الإيديولوجيا مصطلح... ابتكره حديثا "ديسيتوت ديتراسي" (Destitut De Tracy)(1754 - 1836) [2] سنة 1853... ويقصد به، وكما سبق أن أشرنا،... علم الأفكار السياسية والاجتماعية خاصة وقد تأثر "دي تراسي" بنظرية الفيلسوف الإنجليزي "جون لوك" (John Locke) (1632-1704) التجريبية ، كما تأثر بمذهب الفيلسوف الفرنسي "كوندياك" (Condillac) (1714-1780) الذي يرد كل معرفة أو إدراك إلى أصول حسية بحتة. لقد أراد "دي تراسي" من خلال هذا

[2]_ D. De Tracy : Dissertations sur quelques questions d'idéologie, PUF, Paris, 1779.

التعريف للإيديولوجيا تجاوز" كلمة ومفهوم علم النفس الذي ينطوي علي مدلول روحي وديني... وصولا إلي تعريف لها أقرب إلي العقلانية".

لذلك يقول عن الإيديولوجيا " بأنها تخلق، أو تولد، في أجواء...لا تنتجها إلا أفكارنا... من علاقاتها الداخلية، وهي الأفكار التي هي أشبه في النهاية... بمنطقة جغرافية شاسعة ومتنوعة المناضر... والتضاريس... والأجزاء... والطرقات، لها وكلها ذات أصل واحد... بل ونقطة الانطلاق الواحدة... وهي الطرقات التي تتكفل الإيديولوجيا... بقيادة الناس فيها...".

وقد استخدم "دي تراسي" كلمة إيديولوجية بمفهوم أوسع وأشمل باعتبارها علم دراسة الأفكار والمعاني كما هي في الواقع المحدد تاريخياً ، ليست الأفكار في ذاتها، بل لذاتها في معانيها وفي تعبيراتها وأساليبها وتظاهراتها واستخداماتها ودلالاتها في مجتمع معين وفي مواقف اجتماعية محددة وفي سياق حضاري ثقافي محدد [3].

ولأن مفهوم الإيديولوجيا قديم، نسبيا، فإنه أخذ بالتالي العديد من التعاريف، نظرا لارتباط هذه الأخيرة المباشر بالسياسية وبالمجتمع، وبتغيراتها التي لا تتوقف.

وهكذا فإنه في حين يؤكد الماديون، وفي مقدمتهم الماركسيون، أنها وليدة الظروف الاجتماعية والاقتصادية للإنسان، يري آخرون أنها غير كذلك.

و بالرغم من أننا لن نتوقف عند مثل هذه التساؤلات حتى لا نقول الإشكالات حول جذور الإيديولوجيا...فإننا نلاحظ أن مثل هذه الجذور يجب البحث عنها في الممارسات الاجتماعية لبني الإنسان... التي تولد وتحدد علاقات اجتماعية جديدة... وإيديولوجيات جديدة بالتالي.

---

[3]ــ نبيل رمزي ، سوسيولوجيا المعرفة ، جدل الوعي والوجود الاجتماعي ، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، 2001، ص 18.

وإذا كان الواقع الاجتماعي هو المصدر الأول والحقيقي لحركة الأفكار... ومن ضمنها الإيديولوجيا والفلسفة والأفكار الحاملتين لها، فإن الفلسفة تظل، بالرغم من بعض التشابه بينها وبين الإيديولوجيا... مختلفة، وكما سنري، عن هذه الأخيرة أي عن الإيديولوجيا ذلك ماسنبينه، ونتبينه، بشيئ من التفصيل، من خلال هذا الفصل، عامة، ومن خلال العديد من التعاريف التي أعطيت لكل من الايديولوجيا ومن الفلسفة عامة.

1ــ تعريف الإيديولوجيا:

لقد أعطيت للإيديولوجيا، وللفلسفة كذلك، العديد من التعاريف، التي جعلت متعدد مفهومها، مثل مفهوم الثقافة ، ومتوقفا علي الزاوية الخاصة التي ينظر كل منها إليها...

من هنا صعوبة الخروج، بتعريف للإيديولوجيا، يقبله كل الناس. إن نفس الصعوبة تصدق، وكما سنري ذلك، الفلسفة وتعريفها.

وذلك ما يفسر، وكما يلاحظ "ريمون ارون" [4](Raymond Aron) (-1983 1905) ، أحد المدافعين عن الليبرالية الجديدة، "لماذا استعملت، وتستعمل، كلمة إيديولوجيا، تارة بمعني حيادي، وتارة بمعني الإطراء، وتارة أخري، بمعني الهجاء... متأرجحة بذلك، وكما يضيف، بين الدلالة الهجائية وبين الدلالة التبريرية".

علي أن الإيديولوجيا تظل مع ذلك، وبالرغم من تعدد تعاريفها، مرتبطة، بالوهم (L'illusion) وبالطوباوية (L'utopisme)، كما يلاحظ "كارل مانهيم"

[4]_ CF. R. Aron : L'opium des intellectuels, Gallimard, Paris, 1962.
_R. Aron : L'idéologie : Revue recherches philosophiques, V, I, 1977.

(K. Mannheim) [5] (1893ـ1947)، وغيره من الماركسيين، حيث أن كلا من الوهم ومن الطوباوية نتيجتين متشابهتين لمثل ذلك الوعي الخاطئ(La Fausse Conscience)، وهو الوعي الذي لا يوظفه البعض من الإيديولوجيين إلا انطلاقا من الماضي، وبهدف حفظ الكيان السياسي والاجتماعي، في حين أن الطوباوية، أساسا، ولوج، خيالي، إلي المستقبل... ودعوة إليه...

وإذا كنا لن نتوقف كثيرا هنا عند هذه المقارنة بين الإيديولوجيا والوهم والطوباوية، فإننا نشير مع ذلك إلي أن الطوباوية والوهم قد يكونان فرديان، (نتيجة لمرض نفسي)،في حين أن الإيديولوجيا لا تكون، ولا تتجسد إلا جماعيا.

يبدو الارتباط بين الإيديولوجيا والاستلاب، ارتباطاً وثيقاً، يبقي تأثير الإيديولوجيا مقرونا عمليا بفعل الاستلاب، بشتى وسائله وطرقه و أشكاله الثقافية و السياسية والصحية و النفسية المتعددة المؤثرة علي الفرد وعلي طبيعته الحية. إن الإيديولوجيا ليست نتاجاً فردياً، بل هي لا تنمو و لا يزداد تماسكها قوة، ولا قوام لها إلا في شكلها الجماعي المتراصي. تظهر الإيديولوجيا علي شكل أنماط متعددة من الدلالات و الرموز المحملة والمعتقدات والعادات و القيم والشعارات التي تنتجها جماعة ما ستظل دوماً السمة المميزة لانتماء الأفراد إلى هذه المرجعية التي لا حياة لها سوي هذه الجماعة.

ولأن الإيديولوجيا تعزز و تغذي، باستمرار، هذا الانتماء، تبقي بذلك و بفعل الاستلاب شرطا ضروريا وتاريخيا لبقائها و لاستمرارها ، فرغبة الفرد في المساهمة ضمن البناء الحضاري و من ثم إلي التغيير تبقي محكومة بهواجس هذه الجماعة و مصيرها المشدود بهذا الانتماء، الذي لا يعني سوى الذوبان بصيغة الاستلاب

(5) _ CF. K. Mannheim : Idéologie et Utopie, trad. Franc. Edition, Rivière, Paris, 1956.

محولا بالتالي الإيديولوجيا إلي عقيدة جامدة لتختلط بالدين وتحل محل العقل، و الذي تتحول وبفعل الإيديولوجيا إلي دوغماطيقا (Rupture dogmatique).، كل ذلك من خلال شحنة عاطفية عالية تجعل الجميع مشدودين إليها، وعندما تنحرف هذه العواطف إلي إيديولوجيا تصبح عقيدة تصورية لمؤسسات الواقع تحميها ضمن هالة القداسة وتحفظ صيرورتها التشريعية والتنظيمية ضد أي تغيير محتمل.

فالاستلاب في الإيديولوجيا هو ناشئ عن رفض إيجابي للواقع، إنه ليس هروباً منه.

فالإيديولوجيات تحاول أن تبرز لجمهورها مدى جديتها، كما تحاول قدر الإمكان أن تعقلن مخططاتها، وأن تعمل من خلال استراتيجيات تبدو ظاهرياً متماسكة منطقياً، وبين المستلب الطوباوي والآخر الإيديولوجي، هناك فارق هام، ذلك أن الإيديولوجيا تقدم مشروعاً يحتاج إلى فاعلين اجتماعيين، سمتهم الأساسية أن يكونوا مستلبين، وهذا معنى أن يكون المستلب في الإيديولوجيا يمارس رفضاً إيجابياً للواقع وضغطا مستمرا من طرف هذه الإيديولوجيا المختزنة في الجماهير. فالرفض الإيجابي هذا سيتبعه فعل من أجل التغيير، إلا أن هذا التغيير لا ينطلق من الواقع، من فهم قوانينه وشروطه؛ إنه ليس تغييراً من خلال وعي حقيقة هذا الواقع، ذلك أن الإيديولوجيا هو "وعي زائف" كما عبر ماركس، وتتجلى خطورة المسألة عندما ينجم عن هذا الوعي الزائف مشاريع زائفة، بحيث يطلب من التاريخ والواقع أن ينصاعا لها.

الاستلاب هنا ينجم عن الاعتقاد الذي يسري بين الناس في حالتهم تلك، بأنهم غير ما هم عليهم في الواقع. وهذا يعني أن الناس في الإيديولوجيا يعيشون وجوداً زائفاً، لأن وعيهم زائف. فالوعي كما رأى ماركس أيضاً لا يمكن أن يكون سوى الوجود الواعي.، فإن الاستلاب يكون كذلك، لأن الفرد ينتج وعياً مقلوبا.

فالإنسان المستلب هو كائن لاتاريخي أو تم تحويله إلى هذا الحال. فالوعي المقلوب ينتج تاريخاً مقلوباً، أو هو لاتاريخ. وفي مواجهة تلك الحال من الاستلاب، حيث يعيش المستلب مندمجاً في تجربة الوجود، عاجزاً عن وعيها (*).

يري المفكر "مطاع صفدي" " أن خطر الإيديولوجيا يكمن أيضا في بث أدوار تقتصر علي بناء الأساطير والفلكلور وبعض النتاجات الأدبية والفنية، والعقائد السحرية والصوفية،لذلك فهي تأخذ شكل من أشكال اليوتوبيا السلبية. التي تغذي اليقظة عند الشعوب والفئات، مستهلكة بذلك طاقة التغيير المكبوتة علي أصعدة الأوهام الجماعية من جمالية وصوفية وأسطورية. ولكنها تظل عاجزة عن تفجير مشروع مادي في أرضية الواقع. بذلك تتحول اليوتوبيا السلبية إلي حاجز جديد كثيف بين العقل والتاريخ وكلما تعاظم هذا الانقطاع بين العقل والتاريخ يظل عجز الشعب عن تحويلها إلي مشروع عملي تغييري شامل، وذلك بسبب العوائق الموضوعية التي تمثلها، عادة، الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية القائمة، كلما أصاب اليوتوبيا خطر التحول إلي إيديولوجيا يتمسك بها الشعب، العاجز عن تحقيق أحلامه الخيالية" (6).

في حين تظهر اليوتوبيا لنا وتبدوا كما لو كانت تعبيرا عن الحنين إلي التغيير لما هو واقع بأدوات غير واقعية ولأهداف محض تخيلية. لا يبذل أي جهد حقيقي في محاولة فهم موضوعية الظروف القائمة، وإنما يتجاوزها، بنوع من القفزات التخيلية،

(*)أنظر: منذر شباني: مجلة الثورة، مؤسسة الوحدة للطباعة والصحافة و النشر، دمشق.

(6)ــ أنظر : مطاع صفدي، العقلانية وإيديولوجيا التقنية في المشروع الثقافي الغربي،مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي،بيروت، العدد،16،1981.

عمليات الحلم الجماعي التي لا تقتصر علي أفراد أو فئات بل تأخذ بتيارها مجتمعات وأمما بكاملها ".

إن الذهنية اليوتوبية، شأنها شأن الإيديولوجيا، تقدم صوراً مشوهة، ناقصة، مراوغة وخادعة للواقع الاجتماعي. وكلما ازداد إتقان ما تقدمه اليوتوبيا و الإيديولوجيا لجمهورها، كلما انضوى ذلك الجمهور تحت لواء الخرافة. ومع ذلك، فإن الاستلاب لا يحمل الآليات والصيغ و التمظهرات نفسها التي تحملها كل من اليوتوبيا و الإيديولوجيا. فالاستلاب في اليوتوبيا، ناشئ عن رفض سلبي للواقع، هروب متعمد من مواجهته، هروب إلى واقع خارج الزمان والمكان. إنه ليس واقعاً بل خيال، تتحرر فيه الذات المستلبة من واقعها ومن عجزها معاً. فيه تحقق تلك الذات ما تعجز عن تحقيقه في الواقع، فيه تتحرر الذات مما تعتقد أنه اضطهادها، من بؤسها، من أمراضها، من عدم قدرتها على التكيف مع الواقع، أو تغييره، فيه تلجأ الذات إلى استعارة واقع من أزمنة أخرى من الماضي (7).

و يضيف الدكتور "مطاع صفدي" أن "اليوتوبيا تلغي الواقع باسم ما لم يقع بعد فهي بذلك تدمر ممكنات الحاضر لتجعل المستقبل غير قابل للتحقق، أشبه بالمستحيل. في حين أن الإيديولوجيا تجر المستقبل إلي الحاضر. من حيث هو، أي المستقبل، خطاب عقلاني، شكلاني، وتسبغه علي مؤسسات الواقع، وتدعي عن هذه المؤسسات وبالنيابة عنها، أنها تحقق المضمون الفعلي (الموهوم أصلا) كونها

(7)_أنظر: نفس المرجع.

مؤسسة من أجل، تغيير، الواقع، فيما هي حقا تقوم عقبة موضوعية في وجه ذلك التغيير، وبذلك فهي تلغي المستقبل، كما ألغت اليوتوبيا الواقع الراهن. ولكن في حين أن اليوتوبيا تجهل أو تتجاهل إمكانية التغيير في الواقع وتستبدلها بحلميات البدائل المستقبلية غير الممكنة أصلا، وتخلق بذلك أفاقا من المشكلات الزاهية التي قد تساعد علي إنتاج الآداب والقيم الشكلية والأسطوريات الخبيثة، فإن الإيديولوجيا تبدو أشد صرامة وحسما في تعاملها مع ممكنات التغيير المتوفرة في أرضية الواقع. فهي لا تتجاهل هذه الممكنات، ولكنها علي العكس تترصدها بخبث ودقة، وتراقب نموها وتطورها. حتى إذا نضجت وآذنت بخطر، تعد الإيديولوجيا حينئذ إلي محاولة استيعابها وامتصاصها عن طريق جذبها وخداعها، وتوريطها في علاقة مشاكله جدلية مزيفة مع خطاباتها ذات التمظهرات الطوباوية و الفكروية الكاذبة"[8].

فهي تستطيع أن تظهر ذاتها علي ممكنات التغيير بثوب اليوتوبيا البراق، مستخدمة من اليوتوبيا وظيفتها الأصلية كطرح تجريدي لتفريغ انحصار الوعي ضمن دائرة مشاكلات المؤسسات القائمة. وإذ يضيع الوعي بين ما يملكه حق من ممكنات التغيير وبين ما تعرضه عليه الإيديولوجيا المقنعة من بدائل تحريفية، تتميز عن تلك الممكنات بكونها تملك حضورا راهنا عبر إنتاجات المؤسسات القائمة.

نعود الآن إلي تعدد تعاريف الإيديولوجيا، بل ، لنقول أن في مثل ذلك التعدد ما قد يفسر الالتقاء بين مثل هذه التعاريف... وبين الإيديولوجيات المختلفة...حول بعض القضايا وذلك مثل التقاء الرأسمالية والماركسية في الاهتمام بالملكية الفردية

[8]_ أنظر: نفس المرجع.

وبدور الدين وبالدولة، والتقاء كل من الفاشية والستالينية (**Le Stalinisme**)... في الحكم الكلياني (**Le Totalitarisme**) والديكتاتوري، المناهض لكل حرية مهما كانت.

2 ــ نماذج من هذه التعاريف للإيديولوجيا:

أ - تعريف "فريدريك انجلز" (**F. Engles**) [9] (**1820-1895**) :

إن الإيديولوجيا صيرورة يقوم بها الفكر (المزعوم) عن وعي بلا شك، ولكن بوعي خاطئ مع ذلك. أما القوي الحقيقية التي تحركه، فتظل خفية عليه، وإلا فإننا لا نكون تجاه صيرورة إيديولوجية أبدا.

وهكذا فإن المفكر يتخيل قوي محركة غير صحيحة أو صحيحة في الظاهر. ولما كانت هذه الصيرورة عقلية أو فكرية، فإن صاحبنا يستخلص منها مضمون الفكرة الخالصة وصورتها، سواء أكان ذلك من تفكيره الخاص أم من تفكر من سبقه.

و يضيف أن الذي يجده بين يديه هو حصرا مواد فكرية لا يحاول النظر إلي أصلها عن كثب، فيحسب أنها مواد تنشأ عن الفكر نفسه، من غير أن يبحث عن مصدر آخر ممكن، هو غير هذا الفكر، وعلي ذلك فإن هذه الطريقة في رأيه هي البداهة بعينها، إذ إن كل عمل إنساني يتحقق عن طريق الفكر، يبدو له آخر أمر، وكأنه يقوم علي الفكر.

[9] _CF. F. Engles : Lettre à Mehring, 14 Août, diverses éditions, Paris, 1893.

ب - تعريف "كارل ماركس" (K. Marx) [10](1818-1883) :

يري ماركس "أن تاريخ الطبيعة، أو ما سمي بالعلوم الطبيعية، لا يهمنا، بل علينا أن نهتم بتاريخ الناس، إذ إن الإيديولوجيا كلها تقريبا، إنما ترد، إما إلي تصور خاطئ لهذا التاريخ، وإما إلي عملية تجريدية كاملة لهذا التاريخ".

لذلك يقول" أحمد أنور" في كتابه "النظرية والمنهج في علم الاجتماع " أن الماركسية قد أسهمت في أواخر العقد الخامس من القرن التاسع عشر في بلورة مفهوم الإيديولوجيا ، فكان أول تعريف قدمه "ماركس" و"انجلز" في كتابهما (الإيديولوجيا الألمانية) أن الإيديولوجيا عبارة عن نظام للأفكار الباطلة ، وأنها مجرد محاولة لتبرير السيطرة الطبقية، وعلى ذلك فإن الإيديولوجية هي تشويه للحقائق بقصد تبرير موقف الطبقة الحاكمة وقد لقبها "إنجلز" بأنها "وعي كاذب" [11].

ج - تعريف " لويس ألتوسير" (Louis. Althusser) [12] (1918-1990)

"إن الإيديولوجيا هي منظومة(لها منطقها الخاص بها) منظومة من التصورات (كالصور والأساطير والأفكار، والمفاهيم تبعا لكل حالة علي حدة) مزودة بوجود ودور تاريخيين، داخل مجتمع ما. ولنقل، دون البحث في تفاصيل علاقات العلم بتاريخه (الإيديولوجي)، أن الإيديولوجيا، جملة من التصورات تتميز عن العلم، من حيث إن دورها السياسي الاجتماعي، غالب علي دورها النظري (أو وظيفتها المعرفية".

---

[10] _CF. Marx : Œuvres Philosophique, diverses éditions, Paris, 1970

[11] _ أنظر: أحمد أنور، النظرية و المنهج في علم الاجتماع، (عدة طبعات)، و أنظر أيضا

[12] _Cf.L. Althusser : La pensée pour Marx, diverses éditions.

بهذا المعنى يتجاوز" ألتوسير" فكرة النظر إلى الإيديولوجيا باعتبارها (وعيا زائفا) لتصبح "نسقا من التمثلات الجماهيرية التي لا يمكن الاستغناء عنها في أي مجتمع حيث تعمل على ربط الفاعلين بأدوارهم ومواجهة متطلبات أوضاع وجودهم".

هكذا يري الماركسيون قبل "ماركس"، أن الإيديولوجيا وعي بائس (Conscience malheureuse) متناسين أن هذه الحقيقة، أو هذا النقد أول ما ينطبق ، فإنه ينطبق علي إيديولوجيتهم الماركسية هذه... كما سنري ذلك لاحقا..[13] .

د - تعريف "كارل مانهيم": [14]

" إننا نفهم من كلمة إيديولوجيات، مجموعة التأويلات للوضع أو الموقف الاجتماعي، التي لا تنشأ كحصيلة لتجارب شخصية، بل كنوع من المعرفة المشوهة لهذه التجارب، التي تصلح لإخفاء الوضع الحقيقي، وتؤثر في الفرد كما لو أنها ضغط أو إرغام".

يقول "مانهايم" في هذا الصدد ، "أن كل الأنساق الفكرية التي تهدف بصورة رئيسية إلى الدفاع عن الوضع الراهن ، وإيجاد التبريرات اللازمة لحماية مصالح الفئات الحاكمة تسمى إيديولوجيا ، وهى أنظمة ثابتة ودفاعية" [15].

و يري الدكتور "أحمد أنور" في مؤلفه "النظرية والمنهج في علم الاجتماع" في

---

[13]–مجدى وهبة ، مرجع سابق ، ص 35. مزيد من التفاصيل أنظر: جورج لوكاش، التاريخ والوعي الطبقي، ترجمة حنا الشاعر، دار الأندلس، ط2 .

[14]_ أنظر: أحمد أنور، النظرية و المنهج في علم الاجتماع،(عدة طبعات).

[15]ـ محمد عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979، ص 234.

فكرة "مانهيم" للإيديولوجيا التي تقول أن أي معالجة للإديولوجية يجب أن تفرق بين معنيين متميزين ومنفصلين للمصطلح هما : المعنى الخاص والمعنى العام .

فالمعني الخاص يمكن أن يتراوح بين الكذب الوجداني الشعوري والخداع النفسي، ولكن ذو طبيعة سيكولوجية ، أى أن الفرد الذي يؤمن بالمعنى الخاص للإيديولوجيا يمكن أن يكون قادراً على التفكير بأسلوب آخر، إذا كان راغباً في رفض تحيزاته واستبعاد أغراضه وتعصباته.

فكأن المفهوم الخاص للإيديولوجية يشير في نظره إلى الشكوك التي توجد لدينا دائما إزاء الآراء والأفكار والتصورات التي يتقدم بها المعارضون لنا وتؤدي بالضرورة إلى عدم القدرة على إدراك الواقع الاجتماعي إدراكاً متكاملاً وحقيقياً. ويتجلى الطابع المميز للمفهوم الخاص عندما يتناقض مع المفهوم الكلي الشامل للإيديولوجية، وخاصة عندما يشير إلى عصر من العصور أو حقبة تاريخية معينة، أو فئة إجتماعية واضحة المعالم والسمات ، أو حينما نهتم بتركيب البناء الكلي للعقل وبخصائصه في مرحلة تاريخية معينة . ومعنى ذلك أنه في الوقت الذي يشير فيه المفهوم الخاص إلى جزء فقط من الأقوال التي يطلقها المعارض، فإن المفهوم الكلي يتاول المعرفة كلها، ويحاول تعريف المفاهيم استناداً إلى الحياة الجماعية. كذلك بينما يقيم المفهوم الخاص تحليليه للأفكار والأراء على مستوى نفسي، يعرف المفهوم الكلي للآفكار والآراء إلى مرحلة تاريخية، وإلى طبقة إجتماعية تفكر في مقولات غير مقولاتنا [16].

أما المفهوم العام فإنه يفترض سلفاً وبكل بساطة وجود نوع من التطابق بين

[16]ــ نفس المرجع: ص235.

وضع إجتماعي معين ووجهة نظر بالذات ، وتكون نقطة الانطلاق في المفهوم الأول، الفرد دائماً حتى ولو بدأنا بالفئة الاجتماعية لأن كافة الظواهر النفسية يجب ان تختزل إلى عقول الأفراد ، بينما تبدأ في المفهوم الثاني بإعادة بناء وجهة النظر الكلية للفئة الاجتماعية، أى إعادة بناء الخلفية النظرية التي تستقر وراء الأحكام الشخصية للأفراد ، فتتضح بذلك المظاهر النفسية الجماعية للإيديولوجيا [17].

ويفرق "مانهايم" بين الإيديولوجيا واليوتوبيا ، حيث أن الإيديولوجيا هى أفكار متنوعة ومتسامية على الوضعية ، لم تنجح من الوجهة الواقعية في تحقيق محتوياتها بالرغم من أنها قد تكون الدافع المقصود للسلوك الذاتي فإن معانيها كثيرا ما تكون مزيفة ومشوهة مثال ذلك الفكرة الداعية للمحبة والأخوة المسيحية في مجتمع قائم على العبودية ، تبقى الأخوة فكرة غير مترجمة للواقع، فهى بهذا المعنى فكرة إيديولوجية، أما اليوتوبيا فهى توجه السلوك نحو عناصر لا تحتويها الوضعية ، ولكنها ليست إيديولوجية ، لأنها نجحت في نشاطها المعارض في تحويل الواقع التاريخي القائم إلى واقع يتطابق وينسجم معها.

أما اليوتوبيا فإنها نظرة غير تاريخية لا تنظر للواقع في ضوء الماضي ثم تستشرف المستقبل في ضوء الحاضر ، إنها على العكس تنظر إلى الحاضر من زاوية مدى إتفاقه أو اختلافه مع المثال.

فاليوتوبيا رفض وعداء مطلق للواقع ومن ثم تعتبر اليوتوبيا إيديولوجيا فعلية ،

[17]_ أنظر: أحمد أنور، النظرية و المنهج في علم الاجتماع.

فهى لا تمثل نوعاُ من الإيديولوجية من وجهة نظر علمية ، لأن تجاوز الواقع في الفكر والفعل لا يمكن أن يكون تفكيراً علمياً إنه يوتوبيا.

إن الإيديولوجي لا يتجاهل الواقع ولا يلغي التاريخ ، بينما اليوتوبي يلغي الواقع على مستوى الذهن، ويعمل على محوه على مستوى الواقع، والإيديولوجي يتعامل مع الواقع ويسعى إلى تغييره بينما اليوتوبي أحكامه مطلقه ومواقفه جامدة .

ويرى "مانهايم" كذلك أن التمييز بين ماهو "يوتوبي" وما هو إيديولوجي صعب، لأن هذا التمييز يعتمد على الواقع الذي تطبق عليه هذا المعيار ، ومن الممكن أن تصبح يوتوبيات اليوم وقائع الغد، فاليوتوبيات ماهي إلا حقائق لم تنضج بعد.

و يضيف"مانهايم" أن كل أشكال التفكير ذات طابع إيديولوجي، فالإيديولوجيا نسق لأفكار الجماعة ترتبط بالمصلحة ، وقد ترتبط إيديولوجية الجماعة بمصالحها إلى الحد الذي لا يستطيع فيه أعضاؤها أن يفكروا إلا فيما تريد الجماعة أن يفكروا فيه.

و بالنسبة للتراث العربي فإن "عبد الله العروي" يري أن "الإيديولوجيا كلمة دخيلة على جميع اللغات الحية وهي تعنِي لغويًا في أصلها الفرنسي (علم الأفكار) لكنها لم تحتفظ بالمعنى اللغوي، إذ استعارها الألمان وضمنوها معنَى آخر، ثم رجعت إلى الفرنسية فأصبحت دخيلة حتى في لغتها الأصلية ولذلك فليس من الغريب في مثل هذه الحالة أن يعجز الكتاب العرب عن ترجمتها لكلمات مرضية، إن العبارات التي تقابلها (منظومة فكرية) (عقيدة) تشير فقط إلى معنى واحد من بين

معانيها" [18] .

الإيديولوجيا إذن هى نسق من المعتقدات والمفاهيم (واقعية ومعيارية) يسعى إلى تفسير ظواهر إجتماعية معقدة من خلال منظور يوجه ويبسط الاختيارات السياسية الاجتماعية للأفراد والجماعات . وهذا هو ما يمكن وصفه بالمعنى الحيادي للمصطلح، إذ أن مثل هذا التعريف ليست لديه القدرة على توضيح الدلالات المختلفة والمتنوعة التي اكتسبها من الأنساق الفكرية العديدة التي عملت على إظهار مدى التوازن بين الجانبين الواقعي والأخلاقي اللذين يمثلان مقومات الإيديولوجية.

أو قل أنها نظام الأفكار المتداخلة (كالمعتقدات والتقاليد والمبادئ والأساطير) التي تؤمن بها جماعة معينة أو مجتمع ما وتعكس مصالحها واهتماماتها الاجتماعية والأخلاقية والدينية والسياسية والاقتصادية والنظامية وتبررها في نفس الوقت وتقوم الإيديولوجيات بمهمة التبريرات المنطقية والفلسفية لنماذج السلوك والاتجاهات ، والأهداف وأوضاع الحياة العامة السائدة وجدير بالذكر أن إيديولوجية أى شعب تنطوى على تفسير وإعادة صياغة أطر مرجعية إيديولوجية بديلة على أن هناك من يرى أن عناصر الإيديولوجية حقائق صادقة ومذاهب ثابتة وليست صيغا فلسفية أو نظرية يمكن أن تتوافق مع كل تغير في الظروف الاجتماعية والثقافية.

ويبدو أن الاستخدام الفني لمصطلح الإيديولوجية يميل إلى اعتبار الإيديولوجية محصلة عدة عناصر: فهى لا تدل فقط على المعتقدات التي توجد لدى الناس او نسق

[18]ــ أنظر عبد الله العروي، مفهوم الإيديولوجيا، دار التنوير، ط1، بيروت، 1983.

القيم ، أو محصلة الأهداف والمعايير ، وإنما تتضمن كل هذه الجوانب مجتمعة ، هذا بالاضافة إلى نظرة الانسان للأشياء المحيطة به، والتصور الذي يطوره عن العالم ، وهى في نفس الوقت تشير إلى مجموعة الخبرات والأفكار والآراء التي يستند عليها في تقييمه للظواهر المحيطة به [19].

وهناك تعريف آخر للإيديولوجية يري فيها نسقا من الآراء والأفكار والنظريات السياسية والحقوقية والدينية والأخلاقية والفلسفية . فالإيديولوجيا جزءاً من الوعي الاجتماعي تتحدد بظروف حياة المجتمع المادية وتعكس العلاقات الاجتماعية وفي المجتمع الطبقي تتسم الإيديولوجيا بطابع طبقي . ويأتي الصراع في ميدان الإيديولوجيا إنعكاساً طبيعياً لتضاد المصالح الطبقية ، ويمثل شكلاً من أشكال الصراع الطبقي الأساسية.

ورغم أن تطور الإيديولوجيا يتحدد في نهاية المطاف بالظروف الاقتصادية، فإنها تتمتع باستقلالية نسبية، تنعكس في أن كل نسق إيديولوجي جديد كونه إنعكاساً للوجود الاجتماعي يأتي في الوقت ذاته استمرارا للتطور الفكري السالف ، ويشكل تمثيلا نظرياً لما تجمع من مخزون المفاهيم والتصورات وتتجلى هذه الاستقلالية النسبية في القوانين الخاصة لتطور أشكالها المنفردة وكذلك في خصوصية تأثيرها على الظواهر الاجتماعية، وضمناً على الأساس المادي.

[19]ــ عاطف غيث، مرجع سابق، ص 235

ه - تعريف "آرون":

ويذهب المفكر الفرنسي "آرون" إلي أن الإيديولوجيا هي منظومة كلية لتأويل العالم التاريخي (السياسي إلي العصر الصناعي).

و - تعريف "ماكسيم رودنسون" (Maxime Rodinson)[20]

يحصر "رودنسون" أن "وظيفة الإيديولوجيات في تقديم توجيهات للعمل الفردي أو الجماعي"

ز - تعريف "جان مونري" (J. Monnoret)[21]

يري "مونوري"" إن الإيديولوجيا نوع من التفكير مشحون بالعاطفة إلي أبعد حد، لكن كلا من هذين العنصرين يفسد الآخر"

ح ــ تعريف كارل ياسبرس(K. Jaspers) [22] (1883-1969):

أما "ياسبرز" فيؤكد " أن الإيديولوجيا مركب من الأفكار أو التصورات يحسبه صاحب العلاقة تأويلا للعالم، أو لموقفه الخاص، تأويلا يصور له الحقيقة المطلقة، ولكن علي صورة وهم يبرر به نفسه، ويتنكر، ويتخفي بصورة أو بأخرى، ولكن من أجل مصلحته المباشرة. فإذا نظرنا إلي فكر ما، ورأينا أنه إيديولوجي، فهذا يعادل القدرة علي الكشف عن الخطأ وهتك حجاب السوء. وإذا قلنا إن هذا الفكر

[20] _Cf. Maxime Rodinson :La sociologie et L'idéologie marxiste (diverses éditions)
[21] Cf Hirschman (A): Les passions et les intérêts 1977, PUF, Paris,1980.
[22] _Cf. K. Jaspers: Introduction à la philosophie, diverses éditions.

إيديولوجي، فهذا يعني أننا نأخذ عليه أنه كاذب، وغير شريف. ولا مجال لاتهام الفكر الإيديولوجي بأكثر من هذا"

ط ــ تعريف جان مينو (Jean Meynaud) [23]

" إن الإيديولوجيا فيما يقول تعكس اهتمام الإنسان بمحاولة تكيف الوسط الاجتماعي مع مسيرة التاريخ، لعالم يصنع بدون مثل ذلك الوسط... بل ضده"[17]

تلك نماذج من تعاريف الإيديولوجيا، وهي التعاريف التي يلاحظ البعض من الباحثين، من أمثال "لوسيان غولدمان" (Lucien Goldmann)..." أن النظرة الكلية للعالم تنقصها كلها"... ولأنها كذلك فإن الإيديولوجيا، لا تاريخية (antihistorique)... نتيجة لهذه النظرة الجزئية من طرفنا للعالم، ونتيجة كذلك للطابع الدوغمائي...(Dogma) الذي يحكمها ويبعدها بالتالي ، لا عن حركة التاريخ فحسب، بل وعن الحقيقة.

من هنا مناوئتها للتغيير وللتقدم حيث أن التغيير والتقدم اللذين تسمح بهما هما التغيير والتقدم الماديين فقط كما هو الحال بالنسبة للإيديولوجيا الماركسية... فضلا عن الإيديولوجيا الستالينية.

ظ ــ وقد تناول " هابرماس" بدوره (Jurgen Habermas) الإيديولوجيا، في علاقتها بالوعي الاجتماعي إلا أنه قد تبنى مفهوم (المصلحة) كعامل حاسم قادر

[23] _J. Meynaud: Les Attitudes politiques, Q.S.J? PUF, Paris, 1962,P,102.

على التمييز والزيف، ثم يربط " هابرماس" تحقيق المصلحة بالإيديولوجيا مستهدفة بذلك واقعا كائنا يبرز من خلاله الوجه الحقيقي التي تختفي من ورائه ملامح هذه الإيديولوجية الحقيقية، وذلك على مستويين مادي ونظري. فعلى المستويين يربط مفهوم الإيديولوجية بنقد الإيديولوجية ، وبالنقد الاجتماعي ذلك أن نقد إيديولوجية ما يستلزم كشف القوة الاجتماعية صاحبة المصلحة في ترويج أفكار بعينها.

ويعمل هذا المفهوم الخاص للإيديولوجيا في إطار سيكولوجية المصالح في الوقت الذي يتجه فيه المفهوم العام إلى التحليل الوظيفي والوصف الموضوعي للفروق البنائية بين العقليات التي تعمل داخل مركبات إجتماعية مختلفة . ولهذا يرى من يتبنى المفهوم الخاص أن المصالح هى السبب الكامن وراء تلك الأكذوبة أو ذلك الخداع.

ويحاول "هابرماس" أن يكشف عوامل التشويه والخداع وإخفاء بعض جوانب الحقيقة وابراز بعضها الآخر ، فالإيديولوجيا قناع يخفي أكثر مما يعلن ، ويزيف أكثر مما يوضح ، وهو معنى سلبي طالما زعمه نقاد الإيديولوجية على مر العصور الذين يعتقدون (أن كل فكرة هى إحدى مفردات إيديولوجية معينة، وكل إيديولوجية هي قناع لمصلحة ما) [24].

فالحقيقة التي هي صورة الواقع، ليست سوي انعكاس الذي يظهر في صورة التزام إيديولوجي، وإنما الالتزام يأتي من الشخص الذى استعان بها لكي يـــدعم موقفـــه. فالإيديولوجيا تقوم على الاعتقاد في صحة مبادئ وأفكار وقضايا ، لم يتم التحقـــق

[24]ـــ أنظر : مطاع صفدي، العقلانية وإيديولوجيا التقنية في المشروع الثقافي الغربي،مجلة الفكر العربي المعاصر.

من صدقها على أساس المنهج العلمي.

ويحدد "هابرماس" وظائف الإيديولوجية فيميز بين وظيفتين مختلفتين الأول: هدم وإزاحة والثاني : دعم وإحلال وتجديد. وإذا أخذنا مرحلة التحول التاريخي من النظام الإقطاعي إلى النظام الرأسمالي نجد أن الإيديولوجيا الرأسمالية قد قامت بالدورين معاً : هدم إيديولوجيا النظام الإقطاعي وبلورة نسق إيديولوجي جديد من الحرية والمساواة ويعلق "هابرماس" أهمية خاصة على نقد الإيديولوجيا، ذلك أن التحليل الناقد الذي يقوم على مستوى المجتمع ، ويقوم النقد الإيديولوجي بكشف ما يخبئه النظام السائد من خلال الهيمنة الإيديولوجية مما ينطوى عليه النظام من استغلال وقهر ، ويقوم النقد الإيديولوجي بتبديد الأوهام والدعاوى الإيديولوجية الزائفة (25)

أما "**ماكس ويبر**"(Max Weber) (1864-1920) فإن التفسير الذي قدمه لعلاقة البروتستانتية(Le protestantisme) بالرأسمالية (Le capitalisme) يعد بمثابة نقد مباشر للنظرية الماركسية وتفنيد صريح لمسلماتها حيث أوضح أن الأفكار تمارس دوراً أساسياً في دفع حركة المجتمع وتحوله نحو أشكال جديدة، ولقد أوضح "فيبر" أيضاً أن من الصعب فهم التطور الرأسمالي في ضوء العوامل الاقتصادية وحدها لأن معناه التقليل من دور الأفعال في صنع المجتمع والتاريخ . ولقد قصد "فيبر" بذلك تأكيد قضية أساسية هى أن دراسة نشأة الرأسمالية يجب ألا يقتصر على العوامل الاقتصادية فقط بل يجب أن تأخذ في اعتبارها وبنفس الأهمية تصورات

(25)_ أنظر: أحمد أنور، النظرية و المنهج في علم الإجتماع. و أنظر أيضا: جوران ثربورون، إيديولوجيا السلطة وسلطة الإيديولوجيا ، ترجمة إلياس مرقص ، دار الوحدة ، بيروت، 1982.

الناس عن العالم الذي يعيشون فيه وواجباتهم إزاءه . ومعنى ذلك أن الكالفنينة (Le calvénisme) في نظر "فيبر" ليست مجرد انعكاس سلبي لظروف اقتصادية بقدر ما هى توجيه إيديولوجي فعال للفعل الاجتماعي وبالتالي عامل حاسم في إحداث التغير الاجتماعي وهذه مبالغة من "فيبر" في نقده لمفهوم الإيديولوجية عند "ماركس" و"انجلز" ذلك أن "ماركس" و"انجلز" لم يقصدا القول بأن الإيديولوجية هى مجرد انعكاس سلبي (مشوه) بقصد ما قصدا إبراز الدور الهام الذي تلعبه بوصفها مصدرا للشرعية السياسية والتغير الاجتماعي[26].

وهناك عدة تعريفات أخري للإيديولوجيا، حيث فقد عرفها "بارسونز" "بأنها نسق من الأفكار الموجهة التي لها أصل أمبيريقي (des origines empiriques) تلك التي تمنح الإنسان تفسيراً لطبيعة الممارسة أو التجربة التي تشكل بذلك أثرا للجماعة والمواقف التي تقف فيها والعمليات التي نمت بها حتى حالتها الراهنة ثم الأهداف التي يتوجه إليها الأعضاء جماعيا وعلاقتهم بمسار الأحدث في المستقبل" [27].

ويعرف "**غي روشيه** " (Rocher Guy) الإيديولوجيا بأنها نسق من الأفكار والأحكام ظاهر ومنتظم عموماً يستخدم ليصف ويفسر ويشرح أو يبرر وضع مجموعة أو جماعة من الناس، والذي يستوحي من مفاهيم القيم بشكل عام ، ويحدد اتجاه الفعل التاريخي لهذه المجموعة أو لجماعة من الناس[28].

نلاحظ علي هذا التعريف أنه يفرق بين الفكر في ذاته وما ينتج عنه من أفكار عامة

---

[26]– أنظر: أحمد أنور، النظرية و المنهج في علم الاجتماع.

[27]_ أنظر: نفس المرجع.

[28]ـ أنظر :على ليلة ، البنائية الوظيفية في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، دار المعارف، القاهرة، 1982، ص7.

والإيديولوجيا باعتبارها نسقاً من الأفكار يحدد ويوجه أفعال وممارسات جماعة اجتماعية معينة في لحظة تاريخية محددة، لأن ذلك هو الفيصل بين الأفكار والنظريات من جهة والإيديولوجيات من جهة أخرى، فهى وإن كانت نوعاً خاصاً من الأفكار إلا أنها تقوم بوظيفة اجتماعية محددة هى توجيه الفعل الاجتماعي، هى إذن فكر في حالة فعل ، فكر يستهدف تحريك جماعة معينة نحو أهداف محددة ، وهكذا تلعب الإيديولوجية دوراً هاماً في تحديد الفعل الاجتماعي، فهي تحدد اتجاه الفاعل وتفسره وتبرره وتضفي شرعية على الوسائل المتاحة للفاعل والغاية التي يستهدفها.

ومن التعريفات الهامة للإيديولوجيا تعريف **"حنة أرندت "** (Hannah Arendt) [29](1906-1975)حيث ترى أن الإيديولوجيات تسعى في نشأتها كونها تتحول وبالتدريج إلي توتاليتارية (Totalitarisme) ممنهجة ومنظمة فهي تنشأ من مصادر فكرية وسياسية واجتماعية متعددة ولتتداخل مع عناصر متناثرة غير متسقة لتأخذ بذلك شكلها النهائي لتصبح شمولية السلوك والفكر والعادة .

"علي أن الدولنة (Etatisme) قد تحولت و في نظر "أرندت" أصبح دورها منحصرا في تحقق نظام الرغبات والأفكار والمنافع وتتقاطع معها دون أن تنفيها، وتستخدم بمعني سلاح في تثبيت طابعها السلطوي الشامل وهو العقلنة التي تتخذ سمات متمايزة العلموية والتتخطيط والتشريع..".

وتعتبر محاولة "جون لوك" لتفنيد مقولة "الحق الإلهي" المصدر الرئيسي لشرعنه (Légitimation) السلطوية في العصور السابقة لعصر التنوير.

[29] _Hannah Arendt ; Les origines du totalitarisme. Le système totalitaire, Seuil, coll. « Points politique », Paris, 1972, p, 315.

فالدولنة أصبح دورها يصاغ فقط علي القولبة الشاملة، لا تنظر للفرد إلا من حث هو قوة إنتاجية استهلاكية متجاوزة بالتالي قدرته علي وصوله للتغيير، كما أنها تتدخل في مختلف مناحي وأوجه حياته التمثيلية والمجتمعية، ولذا أطلق "هربرت ماركيوز" (Marcuse Herbert) (1898-1979)علي المجتمع الصناعي "الإنسان ذي البعد الواحد" (L'homme unidimensionnel).

إن الفكر العالمي أو النظام العالمي لا يزال يقوم إلي حد اليوم علي رواسب الهيمنة المذهبية و من قبضة "الأنظمة" الكليانة التسلطية التي تقمع العقل و الحريات في التفكير دون أن تجد لها طريقا لحل هذه الهيمنة التي لا زال الإنسان في هذا القرن يعيش في تفكيره حدود هيمنتها دون تجاوزه لهذه الحدود. هذه الإيديولوجيات التي لم يسمح للعقل الإنصات لتفوقه.

"فاعتقاد الإنسان بأنه يمتلك الحقيقة هو مصدر كل قمع. فهذا الاعتقاد يعتقل العقل: عقل الذات، وعقل الآخر. ذلك أن كل اعتقاد من هذا النوع هو بالضرورة، إرادة سياسية. وممارسة القوة المرتبطة به"[30].فهي لا تتركنا أن نعيش في كنف عالم قد يكون في النهاية تخلص من عبودية هذه الأوهام التي عمتها الإيديولوجيات بمفاهيمها الضيقة الانتهازية للحريات و التي طائل و لا جدوى من العيش في جمودها إلي نمط جديد من الأنظمة لا يقل عنها وحشية و قساوة بدعوة "أنجاسيورامونيه" بالأنظمة الشمولية (des régimes totalitaires) (من العولمة الشاملة) أو لما تواجهنا الدولة كأدلوجة، أي كفكرة مسبقة، أدلوجة الدولة هي

[30]_أنظر. حسن حنفي: " الجذور التاريخية لأزمة الحرية و الديمقراطية في وجداننا المعاصر"ضمن الديمقراطية وحقوق الإنسان في الوطن العربي، مجلة المستقبل العربي، العدد 4، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1983.

وصفها علي حالها وقبولها كمعطي أولي، فهل يعيد التساؤل حول الدولة حتما نهاية الأدلوجة وبداية النظرية.

"الإيديولوجيا توجيه للمعتقدات وللقيم في المجتمع الإنساني ليست بناء ذهني غير واع، بل هي تعبير عن نوازع التمثل والانتماء، كما هي حاجة عميقة من حاجات النظام المدني الذي يقتضي الأبعاد الرمزية لشد لحمة المجتمع وتوثيق عراهن وتوليد صورته عن ذاته وعن الآخر"[31] .

التوتاليتارية التي تعني الكل أو الامتلاء وهي الفكرة التي تنطلق من القول : "أنه لا حدود ولا أماكن لا يحق للدولة التدخل بها. وان الدولة التوتاليتارية هي تجسيد وامتداد للروح الأخلاقي للشعب، مع ما يفرضه ذلك من ذوبان الفرد في البنية العامة للدولة وحركاتها السياسية "[32].

غير أن التوتاليتارية، بوصفها ظاهرة تاريخية سياسية فكرية وثقافية ظاهرة غاية في التعقيد. لكنه تعقيد يختبئ وراء ملامحها الجلية والبسيطة.

من الصعب الحديث عن "أصول فلسفية" مستقلة للتوتاليتارية. بمعنى أن من الصعب الحديث عن "فلسفة توتاليتارية" مستقلة قائمة بذاتها. بما في ذلك عن تلك الفلسفات التي اقترنت بها النظم السياسية التوتاليتارية كالشيوعية (الماركسية واللينينية والستالينية وغيرها) والفاشية والاشتراكية القومية(النازية). فالتوتاليتارية إديولوجية وحالة ومنظومة فريدة وحديثة .

(31) _ Cf. Mannheim (K) : Idéologie et Utopie.
(32) _Cf. Hannah Arendt ; Les origines du totalitarisme. Le système totalitaire.

فالمسألة ليست و كما يفهمها ويعرضها السياسيون و الإيديولوجيين علي مختلف مذاهبهم و اتجاهاتهم خيارا بين الرأسمالية المتوحشة المقترنة ب"الديمقراطية"، (ديكتاتورية الأقلية) وبين الاشتراكية المقترنة ب"ديكتاتورية" (ديمقراطية الأكثرية). فإذا كانت الليبرالية نظام حكم الأغلبية ليس بوسع هذه الأخيرة أن تفرض ما تشاء و أن تشرع ما تهوي، أغلبية تواجهها أقلية، و ذلك باعتبار أن الدولة هي الوصية الوحيدة بحفظ هذه الحقوق في المساواة المادية وفي الحظوظ وفي التفاوت المعرفي المقرون بالنجاح الفردي.

فإذا كانت البراغماتية تظل متمسكة بالنجاح الفردي، و الحق أنه يكون من الحماقة والطيش أن نتعارك أو نتشاجر مع النجاح، تبقي البراغماتية مثل الليبرالية عدوة ونقيضة السلطوية. وإذا كانت الأبوية المتطرفة هي احدي السمات الملازمة لجميع التوتاليتاريين و بعض السلطويين ، فإن التسامح(Tolérance) هو احدي السمات الملازمة للنظام الديمقراطي الليبرالي . وإذا كانت أبوية التوتاليتاريين تعتمد علي "المعرفة الخاصة" أو الحيازة المحتكرة ل" الحقيقة الكونية"، إن الموقف المعرفي الأكثر انسجاما مع التوجه الديمقراطي الليبرالي المتسامح هو إما البراغماتية التي تعتبر الحقيقة المكتشفة غير نهائية و جزئية وناتجة عن السعي المشترك، أو الإرتيابية(Le doute vivant)التي تشك في وجود أو إمكانية الوصول إلي الحقيقة المطلقة أو الكلية[33].

[33]– أنظر:سعيد زيداني: الديمقراطية_الليبرالية ومفهوم الدولة المحايدة، مجلة المستقبل العربي، العدد279، 1994. و أنظر أيضا: إطلالة علي الديمقراطية الليبرالية، المستقبل العربي، العدد 1990،135.

وهو الاتجاه الذي عمقه الفيلسوف"كارل بوبر" (Karl Popper) (1902-1994) لاحقا في نقده للتوتاليتارية كما وضعه في كتابه "المجتمع المفتوح وأعداءه" (La société ouverte et ses ennemis)الصادر عام 1945، أي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وصراع التوتاليتاريات . إذ انطلق من مقدمة فكرية تقول، بان التوتاليتارية ظاهرة قديمة. وأنها موجودة في "المجتمع المغلق" في معارضة المجتمع المفتوح. والمقصود بالمجتمع المغلق[34]، هو البنية الاجتماعية المغلقة التي يعمها الفساد والتي تجعل ومن خلالها الفرد في حالة من انعدام الثقة ، و من فقدان ايجابيته ونوع من التشيؤ Réification للوعي.

فالإيديولوجيا هي دوماً قرينة الوعي الخاطئ فالإيديولوجيا، من حيث إنها متجهة صوب الماضي، تبقي موجهة لها تهمة التضليل، لكن يمكن أن تكون هناك أشكال كثيفة من الوعي الخاطئ، تكون وظيفتها هي الحفاظ على الوضع الاجتماعي. "ريمون آرون" يشير من جهته إلى أن قضية الاستلاب وقضية الوعي الخاطئ "قضيتان متلازمتان".

وإذا كان مضمون الثورة التاريخية الكبرى للإنسانية يقوم في تأسيس الانتقال من المجتمع المغلق إلى المجتمع المفتوح، فان التوتاليتارية الجديدة هي رجوع إلى المجتمع المغلق. إنها تمثل نفسية الرجوع إلى المغارة وسيادة الانغلاق عبر إرساء أسس السيادة المطلقة للدولة. بحيث نراه يجد فلسفة "أفلاطون" (Platon) (427-348ق م)السياسية مصدرا فكريا أساسيا للتوتاليتارية، انطلاقا من فكرة أفلاطون القائلة، بان "العدالة هي ما يفيد الدولة ويستجيب لمصالحها".

[34]أنظر: هيثم الجنابي، في سؤال التوتاليتارية ، الحوار المتمدن، العدد2600، 2009.

وكذلك سيادة واستحواذ الإيديولوجية على عقول وأفئدة الجماهير من خلال توظيفها الدائم والشامل. خصوصا إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن الإيديولوجية هي أداة سياسية وليست معرفية. من هنا قيمة وفعالية المنظمات الإيديولوجية (المؤدلجة) والتنظيم الهرمي الصارم في الإدارة والمنظمات المحكومة بقاعدة "من ليس معنا فهو ضدنا"، أي كل ما يتوج الخطاب التوتاليتاري باعتباره خطابا لا عقلانيا. رسوخ التقاليد الاستبدادية و الأبوية للسلطة، أصبحنا بذلك لدينا شعور عميق ودائم بالهشاشة و انعدام الأمن و القزمية ، يدفعها في اتجاهات مختلفة و متعارضة تقود جميعا إلي التشدد و الانغلاق النابعين من الخوف علي المصير.و ليس الاحتقار هنا إلا وسيلة لتوليد العصبية، والعصبية وسيلة لا بد منها لتوليد العدوان و إنتاجه علي نطاق واسع . مع استبدال اليوم عصبية بعصبية أخري جديدة.

و قد برزت هذه السلوكات المفتعلة و المدعمة من طرف الجماهير في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وفي النصف الأول من القرن العشرين الذي يعد زمن تجسيدها العملي. ذلك يعني أن قرنا من الزمن (البيان الشيوعي عام 1948) وظهور "المعسكر الاشتراكي" والإزالة التامة لمشاريع البدائل المنافسة (الفاشية والنازية) للشيوعية الستالينية (1948).

و لأن التوتاليتارية "تراكم" في شحذ فكرة وهواجس "الوحدة" المطلقة.. إذ جسد كل منهم بطريقته الخاصة هذا الكمون. بمعنى اشتراكهم جميعا في سيادة الرؤية الإيديولوجية والعصمة الأبدية واحتقار التاريخ والمستقبل والمجتمع والحرية الفردية والاجتماعية والشرعية والقانون.

وضمن هذا السياق يمكن الاتفاق مع الفكرة الجوهرية التي وضعها "بوبر" بهذا الصدد فيما دعاه بالمنظومات المغلقة (التوتاليتارية) والمنظومات "المنفتحة" (الليبرالية). فالتوتاليتارية منظومة مغلقة. بينما الفلسفة من حيث كونها رؤية وأسلوب في التفكير وغاية محكومة بحب الحكمة تتنافى وتتعارض وتتضاد مع الانغلاق والتزمت. مع أن ذلك لا يتنافى مع الادعاء الذاتي ببلوغ "الحقيقة النهائية".

لكن الأمر يختلف بالنسبة للطوباويات العقلية الأخلاقية وذلك لأنها محكومة بنوازع معرفية ووجودية وأخلاقية عقلية، أي فلسفية صرفة. ومن ثم فان غايتها ليس تنظيم المجتمع بمعايير ومقاييس العقلانية التكنوقراطية الحديثة، بقدر ما كانت تعمل ببواعث الوحدانية الفلسفية المتسامية وفكرة الخير الاسمي وحكمة رجل الدولة الفلسفية. وهي مكونات لا علاقة لها بالإيديولوجية الحديثة، كما هو الحال في (جمهورية) "أفلاطون" و(آراء أهل المدينة الفاضلة) للفارابي. والشيء نفسه يمكن قوله عن مشاريع الطوباويات السياسية الأخلاقية العقلية الكبرى كما نراها على سبيل المثال عند "توماس مور" (Thomas Moore) (1779-1852)في (اليوتوبيا)، وكامبانيلا في (مدينة الشمس). فقد كانت تلك، وأمثالها، الصيغة الخيالية لجزيرة العقل المحاصرة بواقع فاسد. إنها نموذج المجتمع العادل. من هنا اختلافها الجذري عما في النماذج الشكلية اللاهوتية المشابهة، كما هو الحال في (مدينة الله) الاكوينية (توما الاكويني) (Thomas d'Aquin) (1225-1274)و(شرح كتاب القيامة) "ليوحيم الفلوري" (ايطالي- القرن 12) وغيرها.

فالشيوعية والنازية والفاشية، أي القوى المتربية بتقاليد الإيديولوجيات الكونية الكبرى وبدائلها الشمولية هي قوى راديكالية. وفي هذا يكمن سر عنفوانها زمن

الأزمات و"مراحل الانتقال" العاصفة. لكنها خلافا للقوى الأخرى الفاعلة زمن انكسار القيم والمفاهيم والمؤسسات عادة ما يرتبط نقدها للواقع بمحاولة تجاوزه إلى "الأفضل" و"الأسمى". لكنه تجاوز يعادل في حقيقته الرجوع إلى نفسية وذهنية القطيع البدائي. وفي هذا يكمن سرّ وطبيعة "الشكل الجديد للهيمنة"، أي لمصادرة التاريخ والمستقبل والروح الإنساني والعقل الحر، باختصار مصادرة كل شيء من أجل صنع كلّ خاضع وخنوع بوصفها الصيغة "المثلى" و"المتسامية" للبديل. من هنا تنوع مظاهرها، واجتماعها في الغاية والوسائل. باختصار ليست هذه الأشكال الجديدة للسيطرة والاستحكام (الهيمنة) سوى مظاهر متنوعة لفعل الآلة التكنوقراطية الشكلانية. مما يجعلها فريسة الأوهام السياسية والإيديولوجية. ذلك يعني أن الجذور الاقتصادية للنزعة الراديكالية بشكل عام.[35]

أما "**أوغست كونت**" (Auguste Comte) (1798-1857)فقد اتخذ موقفاً عدائيًا من الإيديولوجيات الرئيسية الثلاث السائدة في عصره وهي الليبرالية والاشتراكية والشيوعية وبذل كل جهد للحد من انتشارها فقد رفض منذ البداية الليبرالية الفلسفية بكل متضمناتها ومقتضياتها السياسية والاقتصادية، رغم أن المظاهر الاقتصادية لهذه الحركة كانت تنادي بضرورة رفع القيود والحواجز المفروضة على الحياة الاقتصادية لإتاحة الفرصة لظهور الحوافز الفردية التي تساعد على النجاح. كذلك وقف موقف المعارضة السافرة الصريحة من الشيوعية التي كان يعتبرها إيديولوجية لا أخلاقية، ودخل في حوار عنيف مع الاشتراكية انتهى به إلى رفضها لأنها تقف موقف العداء من المجتمع البرجوازي وتحاول تغييره عن طريق الثورة وليس

[35]أنظر: هيثم الجنابي، في سؤال التوتاليتارية.

عن طريق التوعية أو عن طريق التغير التدريجي البطيء وهذا معناه أن "أوجست كونت" يرى أن المجتمع الإنساني يعيش على التنظيم أكثر مما يعيش على الإيديولوجيات.[36]

إن الخلاصة التي نخرج بها من هذه التعاريف كلها للإيديولوجيا هي:
أن كل إيديولوجية، مهما تكن، إنما هي في النهاية عملية انتقاء بعض العناصر من مجموعات نظرية مختلفة، والتأليف بينها لتنشأ عن ذلك مجموعة جديدة منسجمة، أو يحاول أصحابها أن يجعلوها منسجمة.

3 ــ الإيديولوجيا... والمعارف الإنسانية:

من هنا الارتباط، أو الارتباطات الخاصة للإيديولوجيا بمختلف المعارف الإنسانية، وبمعاييرها، وهي المعارف التي نلتقي هنا بالإشارة إلي الأهم منها وفي مقدمتها العلم والفلسفة خاصة وهي التي تعنينا هنا:

4 ــ الإيديولوجيا والعلم:

لأن الإيديولوجيا، وكما سبق أن أشرنا، هي المقابل المعكوس للطوباوية، فإنهما لم تتأثر، عكس الفلسفة، بالتطورات العلمية التي شهدها العالم... خاصة في نهايات القرن الماضي وبدايات القرن الحالي (الحادي والعشرون من تاريخ الإنسانية) ولم تتطور بالتالي كثيرا... نتيجة لتطوره.

[36]– أنظر: أحمد أنور، النظرية و المنهج في علم الاجتماع.

ولم يزد الطابع الجزئي... اللاعقلاني، الجامد، والمجمد للبعض من الإيديولوجيات سوى إبعاد لها عن العقلانية وعن العلم بالتالي وعن التاريخانية (L'historicisme).

لكل ذلك فإنه إذا كان العلم، ومهما كانت درجة تقدمه، لا يمكنه إلا أن يتأثر بخطاب الإيديولوجيا، وإذا كان قد ينصت أحيانا لجدلها... ولمجادلاتها فإنه لا يتأثر بها ولا يتوه وسط تهويماتها وصراعاتها تلك. حيث أن العلم يؤلف وكما نعلم، نشاطا فكريا حرا... ومستقلا عن الإيديولوجيا، وإن كان لا يلغيها، ذلك ما يؤكد استمرار الناس في التمسك بعقائدهم، لمدة غير قصيرة من الزمن، بالرغم من تقدم العلم... وآثاره، وهذا مثل استمرار الناس، بالأمس، في الاعتقاد في ثبات الأرض، بالرغم من اكتشافات كوبيرنيكوس (Copernic) العلمية... واستمرار آخرين في التأكيد علي استحالة وصول الإنسان إلي القمر، بالرغم من أن ذلك تحقق فعلا، وعلي مرآي من جميع العالم منذ سنة 1969.

وهذا يعني أن الإيديولوجيا تحيا بأفكارها الخاصة والمستقلة عن غيرها من الأفكار الأخرى.

من هنا مناوأة الإيديولوجيا للحقيقة، وفي مقدمتها الحقيقة الفلسفية، باستثناء الحقيقة العلمية المادية منها بصورة خاصة.

نلاحظ هنا أن هناك مجموعات من الإيديولوجيا، التقليدية، والصناعية والدينية أو المعتدلة له... والمتطرفة... والسياسية... والاجتماعية... والفاشية... والليبرالية والديمقراطية والتقدمية الاجتماعية... الخ.

إن ذلك يعني أن كل إيديولوجية، مهما تكن الجهود التي تبذلها لتصبح مقبولة عقليا، إنما هي عملية انتقاء بعض العناصر من مجموعات نظرية مختلفة، والتأليف بينها لينشأ عن ذلك مجموعة جديدة منسجمة. ولنقل علي سبيل المثال، إن

الماركسية تفخر بأن تكون سليلة الهيجلية الألمانية، والاقتصاد الانجليزي، والاشتراكية الفرنسية. وتكشف سوسيولوجية " العقائديات أو الإيديولوجيات" عن تداخل عناصر متباينة الأصل والمصدر، في كل إيديولوجية مهما تكن قيمتها ومستواها.

وما من شك أن آراء "ماركس" النظرية تختلط اختلاطا كبيرا بممارسته العلمية كمناضل اجتماعي. ومن هنا يتضح لنا لماذا كانت الممارسة العملية أصلا من أصول المعرفة النظرية لدي الماركسيين، سواء روعي هذا الأصل، عمليا بالدرجة المناسبة، أو لم يراع. إذ كثيرا ما يقدم، في السلوك العملي عنصر الممارسة علي عنصر المعرفة تبعا للحاجات العملية، وعندما يعاد إلي نصوص "ماركس" الأصلية، فإن هذه العودة التي تبدو في الظاهر مقاومة للتغيير، أو منحا للانحراف، لا تكون في الحقيقة إلا خدمة أو تبريرا لأهداف الحاضر، وحاجات المسؤولين في الموقف الذي يكونون فيه.

5 ــ الإيديولوجيا والفلسفة:

وإذا كانت تلك هي علاقة، أو علاقات الإيديولوجيا بالعلم وبالحقيقة عامة، فإن علاقتها، أو علاقاتها، بالفلسفة وبحقيقتها، أو حقائقها... لا تختلف في النهاية كثيرا.

من هنا فإننا سوف نتوقف، أولا، عند تعريف، أو بالأحرى، عند بعض تعاريف، الفلسفة، هذه المعرفة ذات التاريخ الطويل والعريق، المعروف من طرف كل المثقفين... تقريبا، عكس الإيديولوجيا، التي تعود إلي نهايات القرن السابع عشر، وبدايات القرن الثامن عشر الميلادي، أي إلي قرون التطور الصناعي والتقني، والعلمي عامة الأوروبي.

II) الفلسفة: (La philosophie)

1ـــ تعريف الفلسفة:

حظيت الفلسفة نتيجة لعراقة تاريخها، بالعديد من التعاريف، التي لا تبدو وكما سنري متناقضة كثيرا، مثل تعاريف الإيديولوجيا.

وكلمة الفلسفة مكونة من الكلمة الإغريقية محبة (Philein)، و Sophia (الحكيم) أو الحكمة.

فإذا كان "فيثاغور" (القرن السادس ق م) (Pythagore)قد عرف الفلسفة بأنها محبة الحكمة [37]، و"أفلاطون"، بأنها تأمل الموت [38] ، و"أرسطو" (Aristote) (384-322 ق م) بأنها التفكير العقلاني في الأشياء [39] و"ابن رشد" (1126-1198)، بأنها التأمل في الوجود والموجودات [40] و"هيدغر" (Martin Heidegger) (1889-1976) أنها "حكمة المحبة" فإن التعريف العام الذي نخرج به هو ذلك الذي يري فيها "هيدغر" نظرة فردية وأصيلة للإنسان وللعالم[41].

فإن الحقيقة التي نخرج بها هي أن الفلسفة، مثل الإيديولوجيا، متعددة بدورها (الفلسفة الواقعية، المثالية، التطورية..المادية..الوجودية..الظواهرية..البنيوية... الخ).

---

[37] _ CF. E. Bréhier : Histoire de La philosophie , PUF, Paris, 1945,T2.

[38] _ CF. Platon : Œuvres Complètes, diverses éditions.

[39] _CF. Aristote : Ouvres Complètes, diverses éditions.

[40]ـــ ابن رشد : فصل المقال، تقديم محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، 1994.

[41] _Cf. Henri Gouhier : La philosophie et son histoire, Librairie philosophique, J.Vrin, Paris, 1948.

كما أن الفلسفة كذلك بحث عقلاني يهدف إلي فهم الإنسان والعالم وإلي تفسير وجود كل منهما [42]. إن هذه النزعة التفسيرية للفلسفة هي التي تميزها عن الإيديولوجيا العلم"[43].

.

فالفلسفة، إلي حد ما، معرفة عقلانية بالمعني الواسع للعقلانية وهي في الوقت نفسه معرفة لا تخلو من عاطفة، لأن صاحبها... يوصف أولا بأنه "محب للحكمة"... قبل يوصف بأنه عقلاني والحب عاطفة [44]، قبل أن يكون عقلا، هذا إن لم يكن مضادا لهذا الأخير تماما.

ولعل هذا هو ما قصده، "هنري غوييه" (H.Gouhier) حين قال "إن غاية الفلسفة ومرادها هي العقلانية (Le rationnalisme) التي تشكل الصفة الأساسية لها. فالعقلانية مثلها والمعقلنة (La rationnalisation)، حياتها، فكلماتها قد تكون غير جذابة ولكنها كلمات يحيل معظمها علي الفعل، بصورة مباشرة، أو غير مباشرة" [45].

فالعقلانية والتأمل والروحانية (Le spiritualisme)، لا تجعلها تضحي بالرغم من ذلك، بإرادتها للحقيقة وبالعبقرية الحية لصاحبها، وبرغبته في الانتصار الفعلي اللذان يشكلان روح كل فلسفة وكل فيلسوف حقيقي.

---

[42] _ Cf. A. Lalande : Vocabulaire Technique et Critique de la philosophie, PUF, Paris,1951
[43] _CF. P. Foulquié : Dictionnaire de la langue philosophique, PUF, Paris, 1978
[44] - CF. Christian Godin : Dictionnaire de philosophie, Fayard, Paris, 2004.
[45] _CF. H. Gouhier : La philosophie et son histoire, PP 25_26.

لذلك فإن الفلسفة تعرف باعتبارها عملا وفعلا (أنكساغوراس و شارل بيرس) وباعتبار أن عملها ذلك مندمج، وغير منفصل عن تعريفها.

ولذلك أيضا فإننا حينما نتحدث "عن عقلانية الفلسفة فإن ذلك يعني العقلنة (La rationnalisation) لعالم غير معطي كعالم عقلاني...للإنسان".

تبقي بعد كل هذه التعاريف، وقبلها، "أن الفلسفة، كما يلاحظ "بريهيه" (E.Bréhier)، في جوهرها، اعتراض مستمر من قبل الروح الإنسانية ضد كل محاولة آلية يراد بها إدماج الوجود البشري في دائرة مغلقة من التنظيمات الصناعية، أو الاصطناعية، والأجهزة المادية والتحديدات الموضوعية".

وهناك حقيقة أخري، وهي متولدة عن الأولي، وهي المتمثلة في أن الفلسفة التي كانت وراء كل المعاركة السياسية... والاجتماعية... والإنسانية تظل وكما سنري، بالرغم من حملات التهوين لها، ومن الإعلانات العديدة عن موتها، وبالرغم من الاتهامات والانتقادات العديدة لها بالتوقف عند مجرد التأمل للعالم، بدلا من العمل علي تغييره (ماركس) تبقي بذلك لازمة للإنسان ولتفكير في مساره وفي مصيره، في حياته وفي موته... وفي معني كل من تلك الحياة وذلك الموت ودلالتهما الفردية الجماعية والمتعددة، المباشرة وغير المباشرة [46].

[46]ــ د. زكرياء ابراهيم : مشكلة الفلسفة ،مكتبة مصر، 1960، ص54ــ 60.

2 ــ الفلسفة والعلم:

من الضروري أن نؤكد، حينما نتطرق للعلاقة بين الفلسفة وبين العلم بالذات، أن الفلسفة كانت محتوية للعلم وإن هذا الأخير كان مندمجا فيها، مثل غيره من بقية العلوم والمعارف في هذه الفترة، التي كانت فيها الفلسفة أم العلوم، كل العلوم.

وذلك يعني أن العلم (La science) لم يكن يتميز في هذه الفترة، مثل العلم الحديث، عن الفلسفة، بالقياس(La mesure)، والتحقق (La vérification) والمناهج الصارمة(Les méthodes rigoureuses)...الخ... وهي المميزات التي لم يعرفها العلم إلا في العصور الحديثة.

لذلك نفهم بالتالي كيف ظلت الفلسفة، وحتى القرن السابع عشر للميلاد مرادفة للفيزياء، ذلك ما تؤكده علي أي حال مؤلفات كل من نيوتن (Issac Newton)[47] ، وديكارت [48] وغيرهم كثيرون.

وكان يجب انتظار النهضة الأوروبية، وبداية ميلاد العلم الحديث، لتبدأ مختلف العلوم في الانفصال التدريجي عن الفلسفة...وكذلك، فعل الدين، المسيحي، خاصة... وهو الانفصال الذي انتهي بقطيعة(rupture) شبه نهائية بين العلوم بل وبين الدين و بين الفلسفة.

وإذا كان البعض من ذوي النزعات العلمانية(Les scientistes) قد اعتقدوا أن ذلك الانفصال نهائي فإن الواقع الحالي للفلسفة قد تكفل بدحض إدعاءاتهم...

---

[47] _Isaac Newton : Principes mathématiques et philosophie naturelle, Divers éditions.

[48] - René Descartes : Principes de philosophie, Divers éditions.

" ذلك ما يؤكده، علي أي حال، من بين ما يؤكد، الاهتمام الجديد والمتزايد اليوم، بالفلسفة عامة، وبالفلسفة السياسية والأخلاقية، خاصة، من طرف الجامعات والمعاهد، الأوروبية وغير الأوروبية، المختلفة، ومن طرف العديد من المؤتمرات الفلسفية المحلية و الجهوية والعالمية كذلك، التي اتخذت كمواضيع رئيسية لها "الفلسفة والديمقراطية" و"الفلسفة والتعددية السياسية والثقافية"... و" الفلسفة وحقوق الإنسان" و"الفلسفة والسلام".. والفلسفة والثورة الرقمية(La révolution numérique)...إلخ.

ولأن " الإيديولوجيات" هي "مركبات أفكار" توجه النشاط نحو المحافظة علي بقاء النظام القائم. فإنه قد يقع في ظننا أن الأفكار تتولد بطريقة تلقائية، ولكن الحقيقة، فيما يقول "كارل ماهيم"، إن الأفكار تتوقف توقفا تاما علي السياق التاريخي. وتبعا لذلك، فإنه ليس المهم أن نعمد إلي دراسة الفكر المجرد، أو العقل الخالص، بل المهم بالأحرى أن نقف علي الظروف الاجتماعية الفعلية التي عملت علي ظهور هذا التفكير أو ذلك الإنتاج العقلي. وإذا كان من الحق أننا ننتسب إلي جماعة بعينها، فما ذلك لمجرد أننا ولدنا في كنفها، أو لمجرد أننا ندين بالطاعة والولاء لها، أو لمجرد أننا حريصون علي التمسك بها والدفاع عنها، وإنما بالأحرى لأننا نري العالم وما فيه من أشياء علي نحو ما تراه تلك الجماعة، أعني أننا نستخدم في إدراكه نفس المعاني أو الدلالات التي تستخدمها تلك الجماعة في إدراكه" [49].

[49]ــ د. أنظر زكرياء ابراهيم، مشكلة الفلسفة،ص182.

والواقع أن أي مفهوم كلي أو جزئي، بل أي معني خاص، إنما ينطوي علي "بلورة" لخبرات جماعة بعينها، ومن هذه الناحية قد يكون أهم شيء يمكن أن نعرفه عن هذا الشخص أو ذاك، إنما هو تلك الأمور التي يعدها طبيعية عادية، أو تلك المسائل التي يسلم بها ضمنا دون أدني فحص أو مناقشة .

وذلك ما يؤكده اليوم كذلك توجه العديد من الشعوب، الغربية، وغيرها من الشعوب الأخرى، خاصة تلك التي لها تقاليد ديمقراطييه، إلي التخلي عن فلسفة الديمقراطية التمثيلية... نحو فلسفة الديمقراطية المباشرة، ونحو مزاياها بالنسبة إلي الديمقراطية الأولي.

وذلك ما يؤكده أخيرا، وليس آخرا...انهيار الأسطورة العلمانية (Le mythe scientiste)، أمام مخاطر العلم... الذي أدي بالإنسان إلي العدمية (Le nihilisme) وإلي الفوضى (Le désordre) وإلي الدمار الإنساني الذي يبحث اليوم عن مأزقه العلماني هذا بالعودة إلي الفلسفة [50].

من هنا فشل تلك الحملات [51] المضادة للفلسفة والمهونة من دورها في الحياة... باعتبارها بؤسا(misère) (كارل ماركس)، تارة، وكفرا تارة [52]، وهراء (العلمانيون) تارة أخري.

---

[50]ــ البخاري حمانة: عن الفلسفة وعن الحرية في القرن الحادي والعشرين،(فلسفة الحرية)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009، ص377 ومابعدها.

[51]ــ البخاري حمانة: الفلسفة العربية إلي أين؟ كتاب مستقبل الفلسفة المعاصرة في الوطن العربي والعالم، دار الحكمة، بغداد، العراق،2000.

[52]ــ البخاري حمانة : دفاعا عن الفلسفة، مجلة الثقافة، الجزائر، العدد، 94، 1986.

3ــ الفلسفة و الإيديولوجيا:

والواقع أن الفلسفة، كما يقول "ماهايم"، قد لعبت دورا كبيرا في العمل علي توطيد دعائم هذا التصور الكلي للإيديولوجيا. وهنا نجد أنفسنا بإزاء مراحل ثلاث يمثلها علي التوالي، من بين الفلاسفة المحدثين، كل من "كانت" (E. Kant) (1724-1804)، و"هيغل" (Hegel) (1770-1831)، وماركس.

والمرحلة الأولي الإيديولوجيا إنما هي تلك التي تحققت في ألمانيا، حينما ترقت فلسفة الوعي، فأحلت رويدا محل وحدة العالم الموضوعية الأنطولوجية التي كانت سائدة في العصور الوسطي المسيحية، وحدة إلي الذاتية التي دعت إليها فلسفة التنوير. وقد أسهم "كانط"، علي وجه الخصوص، في العمل علي تقويض أركان تلك النزعة التو كيدية الأنطولوجية التي كانت تنظر إلي "العالم" بوصفه موجودا في استقلال تام عنا، متصفا بصورة ثابتة نهائية حاسمة .

أما المرحلة الثانية في تطور المفهوم الكلي للإيديولوجيا فهي تلك التي حول فيها "هيغل" هذا المفهوم الكلي من حقيقة عالمية من الزمان إلي حقيقة تاريخية. وهكذا أكد "هيغل" (والمدرسة التاريخية) أن وحدة العالم إنما تتحقق خلال عملية تحول تاريخي مستمر. وبعد أن كانت "الذات" في عصر التنوير، بوصفها حاملة لوحدة الوعي أو الشعور، تعد بمثابة موجودة مجرد عال علي الزمان، مرتفع فوق مستوي المجتمع (وكأنما هي شعور أو وعي في ذاته)، أصبحت "روح الشعب" في هذه

المرحلة الجديدة تمثل عناصر التاريخية المختلفة للشعور، وقد تكاملت واتحدت علي صورة وحدة كلية، ألا وهي ، علي حد تعبير "هيغل"، روح العالم وهذا التغيير في وجهة النظر قد كان ، في جانب منه، ثمرة لما اختلف علي الروح الأوروبية من تطورات سياسية واجتماعية : إذ نفذت النظرة السياسية إلي صميم الحياة اليومية القومية خلال حروب "نابوليون" وبعدها...[53]

في تحليله للعلاقة بين الفلسفة و الإيديولوجيا، يلاحظ... المفكر والدبلوماسي العراقي، "د. فاضل الجمالي" " أن أول ما يلاحظ علي العلاقة بين الفلسفة وبين الإيديولوجيا هو" أن جذور يهما ليست واضحة إذ قد يدخل شيء من الفلسفة في الإيديولوجيا، وشيء من الإيديولوجيا في الفلسفة. فجمهورية "أفلاطون" ليست أكثر من إيديولوجيا سياسية تصدر عن فلسفته، كما تصدر المدينة الفاضلة عن فلسفة "الفارابي" (874ـ950)، وفي آخر الحدود، يمكن أن تختلط الفلسفة بالإيديولوجيا اختلاطا كاملا، فلا يعرف الإنسان إن كانت نقطة البداية هي الإيديولوجيا، أو الفلسفة، كما هي الحال في الماركسية "[54] .

ويضيف "الجمالي" أنه "من الملاحظ بوضوح أن الفلسفة تستخدم كوسيلة لدعم الإيديولوجيا، أو قل إنها لا تكون إلا بمثابة مقدمة لها، كأنما تصنع علي قياسها (مما هو أظهر ما يمكن في الفلسفة الماركسية) وكذلك هل العكس صحيح؟ إن من الصعب أن نجد هنا جوابا موضوعيا غير أن المنظومات الفلسفية المختلفة، ولا سيما الأخلاقية منها، لا تكون في الغالب من التنظير التأملي للأخلاق الشائعة الدينية

[53]ـ أنظر زكرياء إبراهيم، مشكلة الفلسفة، ص188.

[54]د. فاضل الجمالي: الإيديولوجيا والفلسفة، مجلة الفكر المعاصر.

الأصل والمصدر. ولا نضرب هنا إلا مثلا واحدا هو فلسفة كانط الأخلاقية. فكل موضوعاتها، من حرية الإرادة، إلي خلود النفس، إلي وجود الله، ليست إلا دعما فلسفيا للأخلاق المسبحة. فإن مضي التنظير إلي غير ذلك، كما في الأخلاق الحيوية(غويو، نيتشه، سبنسر، مثلا) فإنه ليس من الصعب أن نجد في ذلك مسايرة لنظريات جديدة، كنظرية التطور مثلا، أو دعما غير مقصود، أو مقصودا لتمايز الطبقات الاجتماعية. ومن هنا كان في وسع الماركسيين أن يتهموا هذه الفلسفات، بتهمة الرجعية أو البورجوازية."[55]

علي أننا نلاحظ أن هذا كله لا يمس إلا سوسيولوجية هذه النظريات، لا مشاريعها، ومهما يتأثر الفيلسوف بشروط عصره، والقيم السائدة فيه، بصورة شعورية أو لا شعورية، فإن مشروعه الأول ليس الانتهاء إلي إيديولوجيا معينة، بل هو الوصول إلي " رؤية شاملة للكون" وتفسيره عقليا. ولهذا أمكن دوما أن تستقل الإيديولوجيا بنفسها دون أن تعتمد علي الفلسفة، إلا في منهج التفكير وحده، علي حين أن الفلسفة تظل، في شمولها وسعتها، أغني وأكبر من الإيديولوجيا، علي الرغم من أنها قد تكون ركيزة من ركائزها. وبتعبير آخر، إن الفلسفة لا تحتاج بالضرورة إلي الإيديولوجيا، ولكن الإيديولوجيا لا بد وأن تحتاج إلي الفلسفة، ولو بصورة جزئية[56] .

---

[55]ـــ أنظر: نفس المرجع.

[56]– أنظر: أحمد أنور، النظرية و المنهج في علم الاجتماع.

من هنا فإن أهم الفوارق بين الفلسفة و الإيديولوجيا، هي أن الأولي تبقي، من حيث المبدأ، فرضيات قابلة للنقاش، مفتوحة للجدل، وليس من الهرطقة في شيء أن نتصدى لمناقشتها. علي حين أن الإيديولوجيا "فلسفة مغلقة" يتعصب لها، وتعتبر شيئا كالعقيدة الدينية، يحوم حولها المؤمنون و المهرطقون معا. وبتعبير آخر: إن الإيديولوجيا أقرب إلي الدين منها إلي الفلسفة. وليس من قبيل المصادفة أن تلح الماركسية علي اعتبار نفسها طريقة تفكير، وبحث أكثر منها عقيدة، وذلك في محاولة للتقرب من الفلسفة التي تتعالي في السمو علي كل عقائدية. لكن هذا كله كان عبثا. إذ سرعان ما هبط المؤمنون بالماركسية إلي مستوى العقيدة المغلقة ، مبتعدين أكثر فأكثر عن الروح الفلسفية.

"ولا يعني ذلك أن هذا الداء لا يصيب الفلسفة مطلقا، إذ إن من المعروف أن مدرسة "فيثاغورس" الفلسفية لم تكن مجرد مدرسة فلسفية، بل كانت أشبه ما يكون بحلقة صوفية، ليس من حق أفرادها أن يبوحوا لغيرهم بتعاليمهم الفلسفية، فضلا عن أنه لم يكن يجوز لهم الظهور أمام المعلم الأكبر، إلا بعد خمس سنوات من الصبر والسكينة، حتى لقد شاع قي أوساط "لفيثاغوريين" أن "فيثاغورس" ليس إلا الإله أبولون متجسدا. ومع ذلك فمن النادر أن تنقلب الفلسفة إلي عقيدة، كما أن من النادر أن تنقلب العقيدة إلي فلسفة"[57] .

[57] - Cf. Bréhier (E) : Histoire de La philosophie, PUF, 1945, T1.

إن هذا يذكرنا بالتمييز، في إطار علم النفس، بين العقل الباني والعقل المبني. فالأول عندما يحاول الوصول إلي الحقيقة يصل إلي معطيات معينة، في لحظة من لحظات البحث، فتصبح هذه كما لو أنها العقل المبني، أو المتبلور. غير أن العقل الباني يظل دائم البحث في أسسه وكثيرا ما يهدم الذي بناه من قبل ليعيد بناءه. وما المعارفية أو الابستيمولوجيا إلا حصيلة هذا الجهد الباني، الهادم معا [58] ، والذي لا يثق مطلقا بأنه وصل إلي الحقيقة. فكأن العقل دائم العذاب، والعناء، والقلق والشك، ولكنه متى تبلور، تجمد، وفارقه العذاب والقلق والشك وانقلب إلي إيديولوجيا. فكأن مستوي السذاجة واليقين هو الذي يعين الفرق بين الفلسفة و الإيديولوجيا، وكلما تضاءل اقتربنا من الفلسفة، وكلما كبر ابتعدنا عنها واقتربنا من الإيديولوجيا. فكأن الإيديولوجيا هي عقل لا يعرف العذاب أبدا.

والخلاصة إن الإيديولوجيا كما يلاحظ البعض فلسفة ناقصة، متحيزة أصلا، وكأنها مصنوعة سلفا لتؤثر في المجتمع، عن طريق إيمان الأنصار بها، وانصياعهم لها. إنها مشروع فعل وتأثير، لا مشروع فهم وتفكير. لكن هذه الفروق الجارحة ليست إلا الفروق التي تدفع إلي حدها الأعلى، غير أنها كثيرا ما تتضاءل لتقرب الفلسفة من الإيديولوجيا (فيثاغورس) أو الإيديولوجيا من الفلسفة (ماركس). لكن الذي يبحث عن الفروق، لا يبحث عنها إلا في المواد الصافية، المجردة من الأخلاط، فإذا عوض بهذه الأخلاط عن المواد الصافية ، التبست الفروق وغمضت الحدود، واقتربت الأضواء بعضها من بعض وعلي كل حال، فإن حنين الإيديولوجيا إلي أن

[58]– ــ أنظر زكرياء إبراهيم، مشكلة الفلسفة.

تصبح فلسفة أكبر من حنين الفلسفة إلي أن تصبح إيديولوجيا، كما لو أن ذلك تعبير عن "عذاب ضمير" وندم، علما أن الإيديولوجيا تغترب عن الفلسفة، وتجعل من المشكوك فيه حقيقة معلنة، قوية، عنيفة، أو تحاول فرضها علي الآخرين علي أنها كذلك، دون أن ينسي أصحابها أن فيها ثغرات كثيرة تبعدها عن الحقيقة، ولو أنه يسرهم أن يؤمن الناس بأنها مسلمات بديهية، لا مجال للشك فيها. "وفي كل الأحوال، فإن ما يصح علي كل فلسفة من حيث إنها لا تحيط بالواقع إحاطة صحيحة، ولا تفسره تفسيرا كاملا، يصح أكثر بكثير علي الإيديولوجيا التي تظل دون الفلسفة ميلا إلي الموضوعية، وأكثر منها اتصالا بالأهواء والرغبات، منها بالتأمل والعقل الموضوعي ولئن عني ذلك شيئا، فإنه يعني أنه أكبر خطر يصيب الناس من الإيديولوجيا، هو أن تبعدهم عن كل شك في سلامة معطياتها.. إذ ذاك تنغلق آفاق الفكر، وينقلب الشك يقينا، والحقيقة الذاتية حقيقة موضوعية، والرؤية الجزئية رؤية كلية، فلا ينشأ عن ذلك إلا مثل ذلك التعصب الذي تنحرف بالأديان عن سموها المثالي، لتصبح كراهية لكل ما هو غيرها، وحقدا عنيفا عليه"[59] .

ولكن، لئن كانت غاية الإيديولوجيا الجديدة تغيير العالم، لا تفسره، أو الحلول محل الإيديولوجيا القديمة، فإن من الصعب علي الإنسان أن يحاول هذا التغيير بنصف إيمان، أو بإيمان يخالجه الشك في منطلقاته. ولكن، لئن صح هذا بالنسبة إلي الجماهير العريضة، فإنه لا يصح بالنسبة إلي قادة الإيديولوجيين أنفسهم، ذلك أن الخطر كبير في قلب الفرضيات، فرضيات العمل، إلي عقائد جامدة، وإحالة هذه إلي دين جديد

[59]ـــ أنظر: نفس المرجع .

لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ذلك أن من الصعب علي الواقع، المتطور باستمرار، أن يدخل في قوالب صلبة، وأن يقال له: لا تتزحزح عنها. إن في ذلك قسرا للأشياء علي غير طبيعتها، وشيئا من القتل إما لإمكانات الإنسان المبدعة، وإما لتطور الواقع إلي ما هو أرقي منه. ومنذ أيام اليونان، كانت الميتولوجيا تخترع أسطورة "سرير بروكرست" الذي لا يجوز أن يكون الإنسان أطول منه ولا أقصر، لتبين درجة الحمق فيما يسمي بالقوالب الجامدة".

4 ــ الالتقاء والاختلاف بين الفلسفة و الإيديولوجيا:

نخلص من كل ما تقدم إلي أن سلبيات وايجابيات كل من الإيديولوجيا ومن الفلسفة كثيرة... وإن كانت ايجابيات الفلسفة، أكثر من إيجابيات الإيديولوجيا.

أ ــ الإيجابيات:

1 ــ أن كلا من الفلسفة ومن الإيديولوجيا تمثل شكلا من أشكال الثقافة، خاصة السياسية والاجتماعية، السائدة في عصرها.

2 ــ أن كلا منهما منشغلة بالهم الإنساني... وبمستقبل تريده أفضل له... من واقعه الراهن.

3ــ أن كلا منهما وليدة الفكر، فرديا كان (الفلسفة) أو جماعيا (الإيديولوجيا) جامد، أي دوغمائيا ومجمدا كان، أو محررا...[60] .

[60] -_ CF. Dumont : Les idéologies

ب ــ السلبيات:

1 ــ أن كلا منهما يستند أساسا إلي التنظير، وإن خالطه مثل ذلك التنظير جزءا من العمل المادي (كما هو الحال بالنسبة للإيديولوجيا والفلسفة أو للمذهب البراغماتي.

2 ــ أن كلا منهما وليد نظريات وفرضيات حول الواقع... غير مؤكدة صحتها أو تطابق كل منها له... ومعه.

3ــ أن كلا منهما يعملان علي تعميم تطرفهم وعلي مختلف مجالات سياسية واجتماعية وثقافية وعلمية وأخلاقية والعقائدية لهذا الواقع علي الناس، انطلاقا من اعتقادها بصدق نظريتهم هذه إليه ومطابقتها له، وقدرة تلك النظرة علي تمكينهم من استيعابه[61] .

ــ الإيديولوجيا والفلسفة: تقارب وتباعد

إن الواقع العالمي ، قد أكد في الماضي، وهو يؤكد اليوم، أن كلا من الإيديولوجيا ومن الفلسفة ستظلان فاعلتان في الوعي الإنساني الباحث عن الحق وعن السعادة... وعن الحياة الكريمة.

إن هذه الحقيقة تتأكد بصورة جلية حينما نتذكر

أ ــ أن الإنسانية لم تعرف يوما، من تاريخها ذاك سيطرة نهائية لإيديولوجيا واحدة عليها...

[61] _ CF. E. Bottigelli : Genèse du Socialisme scientifique, édit Sociales, Paris, 1962.

ب ــ أن مستقبل الإنسانية وحريتها وكرامتها، كان دوما وليدا تعدد حرية آرائها... وتنوع فكرها، مهما بلغت سلبيات مثل ذلك الفكر، وليس في انطوائه وراء فكرة... أو إيديولوجيا واحدة مهما كان اكتمالها وكمالها...

ج ــ أن الصراع الإيديولوجي القائم اليوم، وبحدة... بين هذه الإيديولوجيا الليبرالية، وبين الإيديولوجيا الدينية، خاصة "الإسلاموية" منها، والذي حوله البعض إلي صراع بين الحضارات، يقدم لنا أبرز البراهين علي سخف تلك الآراء المبشرة بنهاية الإيديولوجيا.

د ــ أن العولمة بالتالي....، بما تحمله من تحديات سلبية واقتصادية وتقنية... وثقافية، ليست في النهاية سوي التجسيد العملي للإيديولوجيا الليبرالية الجديدة... تماما مثل الإيديولوجيا الجديدة المضادة لها (أي للعولمة) (L'anti-mondialisation) و الإيديولوجيا الليبرالية المتولدة عنها بالتالي.

ه ــ أن الإنسان باعتباره الحيوان الوحيد، الذي يسقط، (يتصور) وكما لاحظ "كارل ماركس"، بناءه الاجتماعي الجديد والمأمول... قبل الشروع في تجسيده وهذا عكس النحلة، لا يمكن إلا أن تعدد وتختلف مشاريعه بتعدد أماله وباختلافها.

سبق أن أشرنا، في بداية هذا البحث إلي أن العولمة أو الإيديولوجيا الليبرالية الجديدة، التي تبدو اليوم وكأنها الإيديولوجيا الوحيدة التي أثبتت تقنية... وعلما، اقتصادا ومالا، سياسية وثقافية، قدرتها علي التجدد وعلي التجديد كذلك..

ولم يزد تردي، حتى لا نقول سقوط، الإيديولوجيا الماركسية وتفتت معسكرها (1990)، هذه الحقيقة إلا تأكيدا..

في مثل هذا الجو جاءت طروحات الانتصار النهائي للإيديولوجيا الليبرالية وللفلسفة المتضمنة لها وتحولها إلي إيديولوجيا وإلي فلسفة واحدة ووحيدة لكل الإنسانية، وفيه كذلك جاءت طروحات نهاية التاريخ (فوكوياما) (F. Fukuyama)..[62] (1952ــ ؟) وتحول الصراع الإيديولوجي إلي صراع حضاري (Clash of civilizations) (هوتينغتون) (S.Huntington) [63](1927ــ2008).

و فيها ظهرت محاولات عديدة لتروج لأسطورة نهاية الإيديولوجيا من أجل إخفاء التناقضات داخل النظام الرأسمالي وإغفال الصراع الإيديولوجي ومن أهمها محاولات "ريمون آرون" و"سيمور ليبست" و"جالبراث" وغيرهم.

فالمفكر الفرنسي "ريمون أرون" يدعو إلى ما يمسي تفتيت الإيديولوجيا ويوضح أن السلام العالمي لا يمكن أن يتحقق إلا في اليوم الذي يكف فيه الساسة عن اعتبار الصراع الإيديولوجي أمراً حتمياً[64].

أما "سيمور ليبست" فيري أن الديموقراطية المستقرة أدت إلى نهاية الأيديولوجيات ، حيث حقق العمال المواطنة واختفى الصراع الطبقي وارتفعت معدلات الحراك الاجتماعي ، وقد أدت هذه التغييرات إلى اختفاء الصراع الأيديولوجي.

كما أوضح "دانيال بيل" (D. Bell) (1119ــ2011) بدوره وفي كتابه (نهاية

(62) _ CF. Francis Fukuyama : La fin de l'histoire et le dernier homme, trad. Franç. Gallimard, Paris, 1992.
(63) _ CF. Samuel Huntungting : The clash of civilisations, Freign Affairs, 4, USA, May, 1994.
(64) ــAron (R): Essais sur les libertés, Calmann- Lévy , Paris,1965,P,53

الإيديولوجيا) 1960 أن العصر الإيديولوجي قد انتهى وأن الراديكالية السياسية – الاقتصادية قد فقدت معناها ، لأن العالم الغربي حقق ما يسمى (مجتمع الوفرة) وتم استيعاب الطبقة العاملة وانتشرت القيم الديموقراطية والتعددية السياسية ولذلك فإن الإيديولوجيا فقدت حيويتها الثقافية والسياسية.

وأكد "ياكوب باريون" من ناحية أن مقولة (نهاية الإيديولوجيا) هي مقولة إيديولوجية، ولا يمكن التحرر من الإيديولوجيا ، حيث أن الإيديولوجيا لا تنحصر في الفكر النظري ، إذ أنها تقوم بدور حاسم في تقييم طابع الحياة الاجتماعية وتوجيه الفعل الاجتماعي للإنسان. فتتضمن الإيديولوجيا (نسق متكامل من النظريات والأفكار والأحكام القيمية، تتصف باتساع مداها وشمول محتواها).

وقد قام عالم الاجتماع الراديكالي" س. رايت ميلز" بتوجيه الاتهام لمناصري القول (بنهاية الأيديولوجيا) بأنهم (محافظون صريحون وليبراليون متعبون وراديكاليون ساخطون) وأوضح "ميلز" أن القول بنهاية الأيديولوجيا يقوم على وهم التحرر من أى التزام حقيقي[65].

ضمن هذا الاطار ظهرت دعاوي (نهاية الإيديولوجيا) حيث أكدت هذه الدعوى أن الإيديولوجيا تتعاظم أكثر من أى وقت مضى ، وما قاله "بيل" كان فخا لأن الإيديولوجيا في تعاظم والحركات المجتمعية مثلا لازالت تدحض هذه الفكرة.

---

[65]ــ راسل جاكوبي ، نهاية اليوتوبيا ، السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة ، ترجمة فاروق عبد القادر، عالم المعرفة، العدد 269 ، الكويت، 2001 ، ص 18 ــ 19

وقد نقد عديد من المفكرين مقولة نهاية الإيديولوجيا ومنهم "ميشيل نوفاك" (Michael Novak) و"ستيفين كالمان" (Steve Kelman)فقد أوضحا أن حركات التحرر تؤكد عدم انطفاء الإيديولوجيا بل على العكس فهو موجة متصاعدة من الوهج الإيديولوجي في البلاد الصناعية الغربية.

وقد أوضح "كريستوفر لاش" (Cherstophers Lasch) أن المجتمع ما بعد الصناعي شهد تفجر صراعات جديدة أدت إلى (انبعاث الإيديولوجيا) وهو ما تجلى في الثورات والإضرابات والتمردات.

وأكد "بول لوتر" (Paul Lauter)1995 أن نهاية الإيديولوجيا شعوذة حيث أنها تحاول أن تطمس الاختلافات الفكرية والسياسية.

ويمكن أن نلمح التقارب بين أفكار (دانيال بيل) و(فوكوياما) وبخاصة فيما يتعلق بانتصارالديمقراطية الغربية وانتصار الرأسمالية الليبرالية وبنهايةالإيديولوجيا ونهاية التاريخ[66].

ولاشك أن الدراسات السابقة التي حاولت التدليل على نهاية الإيديولوجيا تنطوي على عدم إدراك لأهمية الإيديولوجيات ودلالتها بالنسبة للحياة العملية، فالإديولوجيات تقدم إجابة على أهم الأسئلة التي تتصل بحياة الإنسان، ومن هنا يبدو أنه لا جدوى من التحرر منها .

[66] _ Cf. Bell. (D): The end of Ideology, New York, 1960.

وأننا لنجد في كتابات (كولا كوفسكي) تعبيرا حقيقيا عن ذلك حينما كتب يقول (تشمل الإيديولوجية التقييم الأخلاقي والسياسي أي تلك القوى الدافعة والخلاقة التي تصبح الحياة بدونها مستحيلة، فالشعار الذي يدعو إلى التحرر التام من الإيديولوجية تخيل ساذج والذين يصورون لأنفسهم أنهم نجحوا في ذلك يقعون ضحية وهم ، فالمرء الذي يطالب بإلغاء الإيديولوجية، وإزالتها من الوجود ، لا بد له من تقييمها قبل ذلك ، وهذا التقييم يشكل (فعلاً إيديولوجياً) ولا يمكن تصور مجتمع دون إيديولوجيات، فالمجتمعات الإنسانية تفرز الإيديولوجية كما لو أنها المناخ أو البيئة الضرورية لتنفسها لحياتها التاريخية.

"وعلى ذلك فلا يمكن تقبل الفكرة الطوباوية عن عالم تزول فيه الإيديولوجيا، إلا أنه من المتوقع أن تحدث تغييرات في الأشكال الإيديولوجية وعلاقاتها، أو وزوال بعض الأشكال الإيديولوجية وانتقال وظيفتها إلى أشكال أخرى أو نمو أشكال إيديولوجية حسب مقدمات التجربة المكتسبة"[67].

لكل ذلك فإن العالم الثالث، آملين ومن ضمنه العالم العربي، مطالبة اليوم بإنتاج مفاهيم إيديولوجيته وفلسفته أصيلتين قادرتين علي التصدي لمفاهيم الإيديولوجيا الليبرالية، المجسدة اليوم في العولمة وفي النظام العالمي الجديد(Le nouvel ordre mondial) تحديا كبيرا علي المستوي العالمي [68] ووصولا إلي دفع هذه العولمة نحو مسالك أكثر إنسانية... وأكثر عالمية... قولا وعملا.

---

[67]ـــ ميشيل فاديه ، الإيديولوجية ، وثائق من الأصول الفلسفية، ترجمة أمينة رشيد وسيد البحراوي، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 1982.

[68] _ Ahmed Lalaoui: Société, culture et technologie dans le Maghreb, Annales de l'université d'Oran, Numéro spécial, N^{e}4,1997, PP,155_167.

" و الواقع أننا نحيا في عصر اضطراب فكري، وهذا الاضطراب الفكري هو المسؤول عن توقف الكثيرين عند صراع الإيديولوجيات المختلفة، دون الاهتمام بالعمل علي مناقشة الأفكار، أو تعقل المذاهب، أو مواجهة الفلسفات بعضها البعض الآخر. والمشاهد في عصرنا الحاضر أن الكثيرين لم يعودوا يعنون أنفسهم بمناقشة آراء خصومهم، بل أصبحوا يقنعون بالطعن فيها والانتقاص من قيمتها، بدعوي أنها مجرد "إيديولوجيا" . ولكن مثل هذه النسبية إنما هي ظاهرة فكرية ذات دلالة خطيرة، لأنها تظهرنا علي أن "صراع الإيديولوجيات" قد أصبح في عصرنا الحالي هو "الحقيقة الوحيدة." وحين تحاول "سوسيولوجيا المعرفة" أن تبين لنا أن كل مذهب فلسفي أو ابستيمولوجي ليس إلا مجرد لحظة من لحظات تاريخ الفكر، فإنها إنما نقذف بالصيرورة التاريخية إلي هاوية "المحال" ،أو "اللامعقول". وآية ذلك أن البناء التاريخي (La construction historique) لا يكفي وحده لفهم العالم، بل لا بد من التسليم بوجود شيء فيما وراء التاريخ، لكي يكون للتاريخ نفسه معني أو دلالة. ولعل هذا هو ما عناه أحد المفكرين المعاصرين حينما كتب يقول:" إنه بدون الأبدية الإلهية، لا يمكن أن يكون ثمة تاريخ إنساني"[69].

[69]ــ أنظر زكرياء ابراهيم، مشكلة الفلسفة.

الفصـــل الثانـــي

الليبراليـــــة و البراغماتيـــة (المعرفة والعمل)

بين الليبرالية وبين البراغماتية العديد من نقاط التشابه والاتفاق والعديد كذلك، من نقاط الاختلاف والتضاد... كما سنري ذلك من خلال هذا الفصل خاصة ومن خلال غيره من فصول هذه الرسالة بصورة عامة.

ولكي تتبين ذلك فإننا سنعرض، تباعا لكل من الليبرالية ومن البراغماتية جذورا تاريخا مصطلحات و مفاهيما، مناهج وأهدافا، نماذج وشخصيات.

I) الليبرالية: (Le libéralisme)

الليبرالية، إيديولوجيا مثل الإيديولوجيا المناوئة لها والمتمثلة خاصة، في الاشتراكية (Le socialisme).

فالليبرالية، نظرية (Théorie) ومذهب (doctrine)، برنامج (Programme)، وممارسة (Pratique)... وتطبيق.

والليبرالية، موقف كذلك، (attitude)، واستعداد من طرف الفكر الإنساني، ومن طرف الإنسان بالتالي، للبحث، من خلال منظور (Perspective) معين للمشاكل التي تطرحها عملية تهيئة الحياة والمجتمع. [1]

إن هذه المضامين تلتقي في النهاية، وكما سنري ذلك، حول أهم النقاط الأساسية التي تشكل جوهر كل، نزعة ليبرالية، سياسية، كانت، أو اقتصادية، دينية كانت أو ثقافية، اجتماعية كانت، أو تقنية... وذلك مثلا لتثبت بالحرية في مختلف

[1]_ CF. Georges Burdeau : Le libéralisme, Introduction, Seuil, Col. Point, Paris, 1979.

المجالات، وبالفردية والملكية الخاصة [2] وذلك مثل الموقف من الدولة ومن دورها في المجتمع، ومن الوطن والمواطنة، وحرية السوق والربح...الخ.

1ـــ الليبرالية: الكلمة(اللغة)

الليبرالية، لغة، كلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية (Liber) أي الحرية، أو الإنسان الحر (Libertas).

أما اصطلاحا، فإن الليبرالية تعني المذهب السياسي، والاجتماعي، الذي يري أنه من الأفضل للفرد وللمجتمع، المضاعفة قدر الإمكان، من حرية الجهاز التشريعي (Le pouvoir legislatif) و تقليص، (قدر الإمكان كذلك)، من الجهاز التنفيذي (Le pouvoir exécutif)، حتى لا يطغي هذا الأخير علي الأول، و حتى يعطي لكل المواطنين أكبر قدر من الحرية ومن الضمانات الممكنة، ضد التعسف، المحتمل (L'arbitraire) من طرف الدولة. [3]

كما تعني الليبرالية كذلك ذلك التصور والمفهوم (Conception)، الذي يري أن القيمة المثلي، للإنسان، إنما تتمثل في الحرية الفردية، وأن الدولة (L'Etat) تشكل أكبر المخاطر ضد مثل تلك الحرية. [4]

---

[2] _ Ibid. P, 59.

[3] _ A. Lalande : Vocabulaire technique et critique de la philosophie, PUF, Paris, 1951, P, 557.

[4] _Cf. Christian Godin : Dictionnaire philosophique.

وأخيرا، وليس آخرا، فإن الليبرالية، تعني "الموقف (attitude) الداعم من طرف الليبراليين للفردانية وللحرية... في مختلف المجالات خاصة الاقتصادية والسياسية ومن ضمنها حرية الضمير والقول والعمل والاعتقاد الديني" [5].

نلاحظ أن هذه المعاني المتعددة لليبرالية، إنما تعكس تعدد مضامينها، ومواضيعها... ومناهجها... وليس تعدد أهدافها، أو هدفها الرئيسي المتمثل في تمكين الإنسان الفرد من الحرية أيا كان مجال هذه الحرية... اقتصادية أو سياسية، اجتماعية أو دينية، ثقافية أو تقنية. كما سبق أن أشرنا.

كما نلاحظ كذلك أن هذه المعاني المتعددة لليبرالية إنما تفسر كذلك وبالتالي تعدد تعاريفها ... كما سنري.

2 ــ التعريف والمفهوم:

أ) تعرف الليبرالية، عامة، وكما سبق أن أشرنا وأيا كان موضوعها وشكلها، أنها " مذهب سياسي واقتصادي يري أن المصلحة العامة (للأمة أو للشعب)، تتطلب توسيع القانون، قدر الإمكان ، للحريات الخاصة، أي حريات الخواص، أو الأفراد، والحد كذلك وبالتالي، وبقدر الإمكان، من تدخلات الدولة، التي يجب أن ينحصر دورها في تحقيق استتباب الأمن العام خاصة، الذي يعد الشرط الأساسي لممارسة مثل تلك الحريات الخاصة".[6]

---

[5] _ Le Robert : diverses éditions, P, 1096.

[6] _P. Foulquié : Dictionnaire de la langue philosophique, P, 406.

ب) كما تعرف الليبرالية كذلك، خاصة في شكلها الجديد اليوم، أي الليبرالية الجديدة (Le néo-libéralisme) بتأكيدها علي أن مثل ذلك التدخل للدولة، يجب أن ينحصر، وعكس ما ذهبت إليه الليبرالية المطلقة، أو القديمة (Le libéralisme absolu) في ميادين الصحة العامة [7].

نخلص مما تقدم، إلي أن الليبرالية إنما هي في النهاية، ومهما كان مجالها، مذهب اجتماعي وسياسي هادف إلي تحرير الإنسان كفرد، أولا، وكجماعة بعد ذلك، وإن أمكن، من القيود السلطوية، اقتصادية كانت أو سياسية، أو ثقافية، تحريرا يتطابق وظروف كل مجتمع إنساني وثقافته وصولا إلي حرية وإلي كرامة الإنسان، كفرد قبل أن يكون جماعة وحقه في الحرية وفي الملكية الخاصة في الحياة الحرة والسعادة القائمة علي العقل والعمل والديمقراطية والتقدم.

[7] _Ibid. P, 63.

3 ــ الليبرالية: الجذور والتاريخ

الليبرالية وليدة، و وريثة، الرأسمالية (Le capitalisme)، التي يمكن أن نعرفها بأنها نظام اقتصادي، ظهر فيما بين القرن الرابع عشر للميلاد... والقرن السادس عشر علي يد الطبقة البورجوازية التي خلفت التجارية (Le mercantilisme) وطبقة الإقطاع.

فالرأسمالية إذن نظام ذو فلسفة اجتماعية وسياسية تقوم علي أساس تنمية الملكية الفردية، وعلي توسيع مفهوم الحرية، الفردية، وفتح السوق أمام منافسة الأفراد بعيدا عن أي تدخل للدولة.

نلاحظ مع "ماكس فيبر" علي هذا التعريف للرأسمالية (التي تلتقي، وكما سنري في العديد من النقاط مع الليبرالية) أنها إذا كانت تركز أساسا علي الربح والكسب المستمر والمتنامي من خلال المنافسة والتبادل الحر للسلع والملكية (L'échange) وللخدمات فإنها ليست المذهب أو الفلسفة الوحيدة في ذلك.

علي أننا نلاحظ أن الربح... وتكديس المال والمنافسة ليس لهم في ذاتهم، أية علاقة بالرأسمالية وذلك لسبب بسيط وهو أن مستخدمي المقاهي والأطباء... والفنانين والعاهرات وموظفي التجارة والجنود واللصوص والمتسولون لهذا الميل للكسب والربح.

لذلك نقول أن الحاجة، أو الرغبة في الكسب غير المحدود لا تنطوي في حد ذاتها أبدا علي مقومات الرأسمالية و لا حتى عن روحها [8].

وإذا كان البعض من الباحثين يرجع جذور الليبرالية، والتجارية والرأسمالية، كذلك وبالتالي، إلي الفلاسفة اليونان محتلين بصورة، خاصة في السفسطائيين منهم و تركيزهم علي الإنسان وحريته "بروتاغوراس" (Protagoras) و "جورجياس" (Gorgias) و"سقراط" (Socrate) (470ـ399 ق م) و"نتيشه" (Friedrich Nietzsche) (1844-1900)وغيرهم. فإن الرأسمالية وليدة العديد من المفكرين ومن الفلاسفة تجريبيين والواقعيين والنفعيين، مثل الليبرالية، كما سنري ذلك، وذلك من أمثال: **أـ "فرانسيس بيكون"** (**F. Bacon**) (1561 ـ1626) و تجريبيته المؤسسة.

ب ـ و آدام سميث (**Adam Smith**) (1723ـ1790): وهو من أشهر الكلاسيكيين المؤسسين للنزعة الليبرالية الحديثة علي الإطلاق، ولد في مدينة "كيركالدي" في اسكوتلندا، ودرس الفلسفة، وكان أستاذا لعلم المنطق في جامعة جلاسجو، سافر إلي فرنسا سنة(1766) والتقي هناك أصحاب المذهب الحر، وفي سنة (1776) أصدر كتابه (**بحث في طبيعة وأسباب ثروة الأمم**) هذا الكتاب الذي قال عنه أصحاب أحد النقاد وهو "**إدمون برك**": "إنه أعظم مؤلف خطه قلم إنسان"

[8] _Ibid, P,25

ج ــ و"**دافيد ريكاردو**" (**D. Ricardo**) (1772ــ1823) الإيطالي قام بشرح قوانين توزيع الدخل في الاقتصاد الرأسمالي، ويقال عنه أنه كان ذا اتجاه فلسفي ممتزج بالدوافع الأخلاقية لقوله: " إن أي عمل يعتبر منافيا للأخلاق ما لم يصدر عن شعور بالمحبة للآخرين".

د ــ و"روبرت مالتوس" (**R. Malthus**) (1766ــ1834) وهو اقتصادي إنجليزي كلاسيكي متشائم صاحب النظرية المشهورة عن السكان إذ يعتبر أن عدد السكان يزيد وفق متوالية هندسية بينما يزيد الإنتاج وفق متوالية حسابية مما سيؤدي حتما إلي نقص الغذاء والسكان.

ه ــ و"**جون ستوارت مل**" (**John Stuart Mill**) (1806ــ1873) يعد حلقة اتصال بين المذهب الفردي والمذهب الاشتراكي فقد نشر سنة (1836) كتابه (**مبادئ الاقتصاد السياسي**)

و **ــ و"اللورد كينز"** (**L. Keynes**) (1883ــ1946) وهو صاحب النظرية التي عرفت باسمه والتي تدور حول البطالة والتشغيل والتي تجاوزت غيرها من النظريات إذ يرجع إليه الفضل في تحقيق التشغيل الكامل للقوة العاملة في المجتمع الرأسمالي، وقد ذكر نظريته هذه ضمن كتابه (**النظرية العامة في التشغيل والفائدة والنقود**) الذي نشره سنة 1936.

ز ــ و "**دفيد هيوم**" (**David Hume**) (1711ــ1776): صاحب نظرية النفعية التي وضعها بشكل متكامل والتي تقول بأن " الملكية الخاصة تقليد اتبعه الناس وينبغي عليهم أن يتبعوه لأن في ذلك منفعتهم"، وغيرهم كثيرون.[9]

في مثل هذه الأجواء، التي سنعرض فيما بعد، فالأنوار (Les lumières) الفكرية والعلمية والدينية والسياسية، والتي لم يزدها التحرر من الكنيسة، ومن الطغيان السياسي من الملوك (Les rois)، خاصة بعد الثوريين الأمريكيين (1776) والفرنسية (1789) وتطور التصنيع (L'industrialisation) والعمل (Le travail) التي عرفتها خاصة كل من بريطانيا وفرنسا...وألمانيا في القرن السابع والثامن عشر للميلاد،.. **ولدت الليبرالية علي أنقاض الرأسمالية وفي مثلها... أخذ الإنسان، ومن خلال تلك الأشكال المختلفة والمتعددة التي عرفتها الليبرالية، مكانة المركز..الفرد..الذي يجب أن يكون حرا...سواء من سلطة دينية كانت أو سياسية أو اجتماعية حرية لا تحدها سوي حرية الآخرين وحرية أولا الآخر، كما يجب أن يتمكن من التملك الفردي لكل ما يمكن أن يمكنه تملك... نظرا إلي أن الملكية والحرية الفرديتين... هما محركتا...التقدم...والمواطنة...وأساس العدل.**

نشير هنا إلي الدور الذي لعبته **البروتستانتية** (Le protestantisme) ممثلة خاصة في **الكالفينية واللوثرية** (Le Calvinisme , Luther) إضفاء البعد الديني علي الليبرالية [10].

---

[9]_ CF. Alain Cotta : Le capitalisme.

[10] _ CF. M. Weber : L'Etique protestante et l'esprit du capitalisme, (diverses éditions).

وفي مثلها كذلك جاءت الليبرالية كرد فعل، علي مثل ذلك التسلط الديني والسياسي، من طرف الكنيسة والملوك في أوروبا في القرنين السابع والثامن عشر واللذين وصفهم " بالمستبدين العادلين" (Les despotes justes).

لم تتخل الليبرالية عن مطالبها الأساسية، والمتمثلة بصورة خاصة، وكما سنري، في حرية الفرد، قولا وعملا، سلوك... ومهنة... دينا ودنيا بعيدا عن الدولة وعن تدخلاتها.

بذلك كانت الليبرالية الوليدة المباشرة للأنوار (Les lumières) كذلك، ولرموزها من المفكرين ومن الفلاسفة الأوربيين من أمثال "مونتيسكيو" (Montesquieu) (1689ـ1755) و "رونوفييه" (Renouvier) (1815ـ1903) و"فولتير" (Voltaire) (1694ـ1778) و"ألمبيرت" (d'Alembert) (1717ـ1783) الذين قدسوا العقل و أقاموا قوانين الإنسان علي قوانين الطبيعة، وآمنوا بقدرته المطلقة عليها.

وبذلك أيضا كانت الليبرالية، ومن خلال تركيزها هنا علي الحرية الفردية، التي لا يجب أن تعرف حدودا، أو تحديدا، من طرف الدولة، وأيا كان مجالها [11] .

وفي مثل هذه الظروف أخيرا، رفعت تلك الشعارات المطالبة بتجسيد مثل تلك الحرية، علي مختلف المستويات، وفي مقدمتها شعار "آدام سميث" المعروف " **دعه يعمل"..(Laisser faire)، وكذلك شعار أتركوه يمر (الإنسان) (Laisser passer) نحو مصالحه ومنفعته التي لا تتعارض، وكما يضيف آخرون و"ماندفيل"**

(11) _G. Burdeau : Le libéralisme, P, 40.

(Mandeville) (1670ـــ1733) في مؤلفه، أو قصته، **"اليد الخفية"** (La **main invisible**) **مع مصلحة المجموع، بل تدعمها ... حيث أن مصلحة أو منفعة كل فرد إنما تنتهي إلي مصلحة أو منفعة الجميع... أي المجتمع** [12] .

4 ــ الأسس والأهداف:

إن هذه المفاهيم ... وهذه التعاريف لليبرالية تقودنا إلي التوقف قليلا عند أهم الأسس أو المبادئ التي تقوم عليها الليبرالية، أي إلي المنطلقات التي تستند إليها، والأهداف التي تسعي لتحقيقها، وهي الأسس والمنطلقات والأهداف المتولدة عن روح الليبرالية ذاتها، ومضامينها التي سبقت الإشارة إلي البعض منها التي سنتناولها بشيء من التفصيل في الفصل الثالث من هذه الرسالة.

و لأن الليبرالية تمتد، وكما سبق أن أشرنا، إلي مجالات سياسية واقتصادية، ودينية، واجتماعية، وثقافية وعلمية، مختلفة، فإنها قد أخذت تبعا لذلك عبر تطورها الأوروبي خاصة، العديد من الأشكال الليبرالية الكلاسيكية والمطلقة والثورية أي الفوضوية (L'anarcho-_capitalisme).

[12]_CF. Adam Smith : Recherches sur la nature et les causes de la richesse des nations, 1776, PUF, Paris, 1995.

كما أن الليبرالية برفضها لتدخل الدولة، ولسيادتها في حياة الأفراد وفي حياة المجتمع ، الذين يشكلونه إنما تؤكد في الحقيقة ...عقيدتها (Son dogme) أساسية القائمة علي سيادة الفرد (L'individu)و حريته المطلقة، القادرة وحدها علي جعل المجتمع، الذي تحقق، وكما سبق أن أشرنا، مصالحه بتحقق مصلحة كل فرد فيه أولا، يسير بصورة منظمة ومثلي ومن تلقاء نفسه بعيدا عن أي سلطة (autorité) وعن أي تسلط (autoritarisme) للدولة .

من هذه المفاهيم للفرد وللحرية وللدولة وللمجتمع وللملكية وللربح أو المنفعة الفردية تلخص إلي أسس الليبرالية ممثلة في:

1) الفردانية (L'individualisme)

2) والحرية، (La liberté) والديمقراطية (بمعناها الشامل).

3) القانونية(L'égalité) والعقل والحد من سلطة الدولة، والفصل بين السلطات والحق في الملكية الخاصة...إلخ.

أ.تمجيد الفرد...باعتباره أداة وهدف، كل عمل إنساني مادي خاصة.

ب.الحرية: تأكيد حرية الإنسان الفرد المبدع، والقادر وحده علي تسيير حرية الآخر [13]. وهي الحرية التي ستشكل، في نظرها أساس الفعل (La justice) والتي لا يجب أن تحد بأي حد إلا حد مثل ذلك الآخر... والتي تشكل بالتالي السبيل إلي الله وإلي الحياة الجماعية الحرة.

[13] _ Ibid. : PP, 72_164_176.

ج.تمجيد العقل لقوة إبداع ومعيار المواطنة (La citoyenneté) كمحرك للتقدم (Le progrès)..

د.تمجيد القانون: الذي هو العقل والذي يجب أن يحكم الجميع أفرادا..كانوا أو جماعات [14].

ه. الحد من تدخل الدولة في شؤون الفرد... وفي شؤون المجتمع بالتالي وانحصار دورها في تحقيق الأمن والاهتمام... بتنظيم عالم العمل، والصحة العمومية...الخ

و. تقديس الملكية الفردية (La sacralisation propriété privée) باعتبارها حقا طبيعيا، وشرط قيام كل حرية وكل مواطنة وكل تقدم.

ز.الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية وتغليب الأولي علي الأخيرة، حماية للديمقراطية.

ح.شرعية الربح والمنفعة. [15]

ط.الحق في السعادة. (Le droit au bonheur).

يضاف إلي كل هذه الأسس، أسس أخري، وذلك مثل التصنيع (L'industrialisation) تقديس العمل، والادخار... وعدم الإسراف في التبذير والاستهلاك (La consommation)...الخ.

[14]_ L. E. Laboulaye : Le parti libéral, son programme et son avenir, PUF, Paris,(Sd), P,35.
[15] _Ibid, P, 38

5 ــ خصائص الليبرالية:

أ ــ الإيجابيات:

لأن الليبرالية كانت الفلسفة أو الإيديولوجيا الوحيدة التي جعلت من الإنسان منطلقا ومن حريته الشاملة، هدفها، فإنها لم تتخذ، مثل العديد من الإيديولوجيات السياسية والاقتصادية والدينية التي سبقتها، وتلتها، أي مرجعية مقدسة خارجة، لأنها لو فعلت ذلك لم تعد ليبرالية.

من هنا كان الإنسان الفرد مرجعيتها، ومن حريته وكرامته خاصة اتجاه الدولة والكنيسة وتسلطها وتدخلها...هدفها الأول والأخير.[16]

ومن هنا أيضا اقترن تاريخها بالتجربة... وبالتعبير والتجديد قدر اقترانه بحرية الفرد... شبه المطلقة كما سبق أن أشرنا.

ومن هنا، أخيرا، **فإن للإنسان الحق، فيما تري الليبرالية في التفكير في أي موضوع، دنيوي كان أو دينيا، سياسيا أو اقتصاديا، اجتماعيا أو ثقافيا، علميا كان أو تقنيا الخ تماما كما أنه له الحق في تحقيق أحلامه وأماله وسعادته بدون أي تدخل من طرف أي كان...**[17] .

---

(16) _J. Ferry : Discours et opinions, T, IV, 1898, P, 3.
(17) _ G. Burdeau : Le libéralisme, P,80.
(18) _ E. Durkheim : La division du travail social, (Divers éditions).

إن هذه المضامين الكبرى لليبرالية هي التي أضفت عليها العديد من الخصائص التي قل أن توجد مجتمعة، في أي إيديولوجيا أو في أي فلسفة أخري، وهي الخصائص التي نشير إلي الأهم منها فيما يلي:

1. **إنها إيديولوجيا أو فلسفة، متفائلة (Optimiste) تؤمن بالإنسان وبحريته وبقدرته علي تحديد مساره ومصيره... عكس العديد من الإيديولوجيات والديانات القائمة علي الحتمية وعلي المكتوب.**
2. **أنها إيديولوجية لا تفصل بين النظر وبين العمل وهي أول من نظر لتقسيمه (La division du travail) [18] تماما مثل البراغماتية ...عامة، و براغماتية "بيرس بيرس" (Ch. S. Peirce) (أو بورس) خاصة وكما سنري ذلك في ثنايا هذا الفصل والفصول المتبقية من هذه الرسالة.**
3. **إنها إيديولوجيا تقوم علي الاختلاف، لأنها تؤمن، عكس معظم الإيديولوجيات الأخرى، بحرية الفرد... وهي الحرية التي لا تحدها، وكما سبق أن أشرنا، سوي حرية الآخر(L'autre).**
4. **إنها أول إيديولوجية وفقت مثل البراغماتية بين الإيمان (الديني) خاصة وبين العمل.**
5. **أنها من الإيديولوجيات القلائل، التي لم تمت، وذلك لأنها ارتبطت بطبيعة الناس الذين وجدوا غايتهم فيها معنا مجسدا للحياة وللسعادة.**

6. إنها إيديولوجيا لا تعارض الديمقراطية، أو التقدم أو السعادة... بل تعمل بنجاح نسبي علي الامتداد بهما كل أبناء البشر، وهذا عكس العديد من الإيديولوجيات الطبقية... و البروليتارية،.. والفاشية والنازية. [19]

ب ــ السلبيات:

يلاحظ أعداء وأنصار الإيديولوجيا الليبرالية، علي حد سواء، العديد من الجوانب السلبية، خاصة علي مستوي النتائج.

ولأن الماركسية (Le marxisme) خاصة قد تكفلت بالحديث مثل هذه السلبيات [20] ، وهي كثيرة كما سبق أن أشرنا، فإننا نورد فيما يلي البعض من هذه السلبيات:

1. أن حرية الفرد، تماما مثل فردانيته، إذ لم تحدها حدود أخلاقية (La moralité)... فإنها تتحول وكما هو الحال اليوم إلي سلاح فردي فتاك ضد المجموع... وضد مصالحه.

2. ارتباط الليبرالية عامة بالاستعمار (Le colonialisme) و الاستلاب (L'aliénation) منذ نداء "غلاد ستون" (Gladstone) (1809ــ1898)، الليبرالي الإنجليزي سنة 1898، لبرلمان بلاده... "بضرورة استعمار العالم الثالث"، وبإرغام الصينيين علي تناول المخدرات ثم الدور الذي لعبته انجلترا الليبرالية الإطاحة بثورة

(19) _CF. J. Touchard : Histoire des idées politiques, diverses éditions.
(20) _CF. K. Marx et F. Engels : Leur vie et leurs œuvres, PUF, Paris, 1955_1970, 4 Volumes.

مصدق (Mossadegh) في إيران (1950) والليبرالية الفرنسية، التي سخرت الثورة الفرنسية (1789) ومبادئها في الحرية وإعلانها الخاص بتفوق الإنسان والمواطن... لغزو ولا أكثر من بلد في العالم الثالث فحسب، بل ولغزو العديد من البلدان الأوروبية...(غزوات نابليون بونابرت الأوروبيين (Napoléon Bonaparte).

3. إن إلحاح الليبراليون علي عدم التدخل، بصورة قريبة وبعيدة، مباشرة أو غير مباشرة، من طرف الدولة في الشأن العام، خاصة في التوزيع العادل للثروات وفي التسيير المتطابق مع حاجات المجتمع، للاقتصاد وللملكية الخاصة، وللربح والمنفعة، يجعلهم ينسون أو يتناسون، وكما يلاحظ "جون كيتز" (John Keynes) (1883ـ1946) " إن الاقتصاد عامة والاقتصاد السياسي (L'économie politique) خاصة غير قادر علي حل مشاكله بنفسه حيث أن هناك فترات كساد(récession) اقتصادي كالكساد الذي عرفته أمريكا أولا، والعالم، سنة 1929. والذي حتم تدخل الدولة والحكومة لتحقيق الاقتصاد تارة، ولفرض الحماية، وإن بصورة مؤقتة، (Le protectionnisme) كما تفعل اليوم العديد من الدول الليبرالية، وفي مقدمتهم الولايات المتحدة الأمريكية".

4. إن الرغبة في الربح اللامحدود والجري وراء ظهور الفاشية والنازية، كما أنه هو الذي اليوم والأمس وراء... الشركات المتعددة الجنسيات (Le Néo-libéralisme_ Les multi- nationalisme)، ووراء الاستغلال الفاحش للإنسان

في العالم الثالث من طرف الليبرالية الجديدة ووراء ظهور العولمة [21] وإفرازاتها المدمرة علي هذا العالم بصورة خاصة.

5. الفشل المستمر من طرف الليبرالية في التوفيق بين الحرية الفردية، والحريات الفردية للآخرين... وفي حل العديد من التناقضات التي لا يمكن أن تبرز فيها.

6 _ مستقبل الليبرالية:

لأن العامل المحرك لليبرالية ليس، وكما توهم الليبراليين أن توهم، ليست الحرية الفردية، بمعناها الواسع، بل الحرية الاقتصادية علي وجه التحديد،(**حرية التبادل والربح اللامحدود... والسوق المفتوحة،..الخ**)، وهو العامل الذي لم يزده تصدر الولايات المتحدة الأمريكية منذ، نهايات الحرب العامية الأولي (1919)، لهذه الإيديولوجيا حضورا... وانتشارا وهذا بالرغم من أزماتها 1914ـ1929 ... فإن الليبرالية... قديمة كانت أو جديدة، فإن مستقبلها يبدو غير محدود، في المنظور القريب علي الأقل، حيث أنه لا حياة للإنسان أيا كان لونه أو جنسه ووطنه أو دينه إلا بالاقتصاد، أيا كان شكله... وأيا كانت قوته [22] .

إن هذه الميزة هي التي نأمل أن لا تدفع وكما تدفع الليبرالية الجديدة (Le Néo-libéralisme) اليوم... إلي التناقض مع أسسها الأولية، حتى لا نقول مبدأها الأول، وهو الأساس المتمثل في الارتباط الإنسان وحريته وسعادته... والذي لا يمكن أن

---

[21] _ J. Baudrillard : Les violences de la mondialisation, journal le Monde, Paris, 23 Janvier, 2004.

[22] _ Ibid. : P, 293.

يتجسد في أراء وكما يؤكد تاريخ وتجارب الليبرالية ذلك، إلا بإعادة الاعتبار للفعل، السياسي والاقتصادي والثقافي والأخلاقي، له... وصولا إلي تكوين جديد له كمواطن (Citoyen)... لا قبل لها، عكس كل الإيديولوجيات الأخرى المتجاوزة، إن تجاوز حقوقه وكرامته، وذلك لسبب بسيط وهو أن مضمونها ومستقبلها كذلك إنما هو في مستقبل مثل هذا الإنسان الجديد والمنشود.

II_ البراغماتية: (Le pragmatisme)

"البراغماتية فلسفة الفلسفة الأمريكية" [23] (Le pragmatisme est la philosophie de la philosophie américaine) وفلسفة العهد الذهبي (L'âge d'or) (1865_1940)، تركز علي الفرد وفعله وكلها ارتبطت بفلسفة العلوم و الأخلاق أو القيم (Les valeurs) أو كلها مرتبطة كذلك بهذه الفلسفة [25]. أو المنهج (La méthode)، وهذا ابتداءا من الواقعية الجديدة (Le néo-libéralisme) "رالف بارتون بيري" (Ralph Barton Perry) (1876_1957) والواقعية النقدية (Le réalisme critique) "جورج سانتيانا" (G. Santayana) (1863_1952) والمذهب الطبيعي (Le naturalisme) "وود بريدج" (J.E. Wood bridge)

(23) _ Gérard Deledalle : La philosophie Américaine, P, 51.

(25) _ Marvin Farber ; L'activité philosophique contemporaine en France et aux États-Unis, PUF, Paris, 1950, P, 10_14.

و "وايتهد" (Whitehead) (1861ــ1947) إضافة إلي المذهب المثالي (L'idéalisme) "جورج موريس" (G.S. Morris) (1901ــ1979) كذلك وإلي حد كبير[26].

ولأن البراغماتية فلسفة أو مذهب أمريكي ولدت أساسا مع "شارل سندرس بورس" (أو بيرس) (Charles Sanders Peirce) (1839ــ1914) فإننا سوف نتابعها أساسا لدي هذا الأخير، بالدرجة الأولي دون إهمال كلي في الوقت نفسه، للبراغماتيات التي بناها زملاؤه... خاصة "وليام جيمس" (William James) (1842ــ1910) و "جون ديوي" (John Dewey) (1859ــ1952)..." وهم زملاؤه الذين إنتهت به خلافاته معهم بالانفصال عنهم كما سنري ذلك.

لقد ظلت البراغماتية الأمريكية، ممثلة بصورة خاصة في براغماتية "بورس"، منذ القرن التاسع عشر، وحتى نهايات القرن العشرين، مقرونة لدي العديد من الأمريكيين، ومن غير الأمريكيين، بالنجاح الكبير الذي حققته الولايات المتحدة الأمريكية في مختلف الميادين، العلمية والتقنية، والصناعية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

1 ــ الكلمة (اللغة) والمصطلح:

البراغماتية (Le pragmatisme) كلمة... مشتقة، كما سبق أن أشرنا، من الكلمة اليونانية "براغما" (Pragma)...بمعني...فعل (Pragmatiko) أو شيء غير أن المعني

(26)_ Gérard Deledalle : La philosophie Américaine, P, 51.

المطروح في المستويين المذكورين قد يثير إشكالا من حيث الجذر والاستخدام لكلمة البراغماتية، ذلك أن"البراغما" pragma أو "براغماطا" Pragmata قد تعني الفعل والأثر الذي يحدثه السلوك أو الفكرة كما أنها قد تعني الكثرة و الاختلاف أو منهج الكثرة (Le pluralisme) الموجود في الطبيعة وهو الذي يؤدي بدوره إلي الاختلاف والتعددية الفكرية الفعلية المقرونة بالأثر التي تحدثه ، مما يبعث علي التساؤل إن كان الفلاسفة البراغماتيون قد استخدموا "البراغما" الأشياء ليدلوا بها علي معني "براتين" أي الفعل، وحسب بعض مؤرخي الفلسفة فإن أصحاب المذهب البراغماتي قد دمجوا اللفظين اليونانيين،معا، أي "البراغما" الأشياء المصنوعة المحدثة الأثر عن طريق التجربة و"براغما" الفعل.

أول من استخدام كلمة "البراغماتية"، فإن "ديوي" يؤكد في مقاله:" نمو البراغماتية الأمريكية (The Development of American Pragmatism) أنه تشارلز سندرس بيرس بوصفه أول من استخدمها، وذلك حينما فرق بين كلمتي براغماتي و عملي مستعيرا إياها من الفيلسوف الألماني "كانط" حيث يقول "ديوي": " إن أصل البراغماتية يرجع إلي بيرس ، لقد عرف كلمة براغماتية من دراسته لكانط ، وهذا يخالف "الرأي السائد الذي يذهب إلي اعتبار البراغماتية نظرية أمريكية خالصة، ففي كتاب "ميتافيزيقا الأخلاق" ميز "كانط" بين ماهو "براغماتي" وماهو "عملي.[27]

(27)_ Cf. Tiercelin (C) : Ch Peirce et Le Pragmatisme, P UF, Paris ,1993.

و قد وردت هذه الكلمة ، أو المفهوم ، أول ما ورد عند السفسطائيين (Protagoras)، كما وردت بعد ذلك عند "كانط" و ذلك في مؤلفه "الأنثروبولوجيا من منظور براجماتي "، بمضمون أخلاقي ، أو إيطيقي (Ethique) إلي تكييف معارفنا و نشاطنا مع الأخلاق . و هو النشاط الذي يقوم علي أرضية من الشك و من الاعتقاد ... وصولا إلي الحقيقة و لكن عن طريق الحدس ... و ليس عن طريق التجربة وثم عن "وليام جيمس" سنة 1902 ... ليستبدلها "بيرس" [1] بعد ذلك نتيجة لسوء استعمال زميله لها ب (pragmaticisme).

كما ورد هذا المفهوم عند العديد من الفلاسفة و ذلك من أمثال "موريس بلوندل" (M. Blondel) (ت1949 م) و "هنري برغسون" (H. Bergson) (1859ـ1941) و نيتشه...الخ. و قد أخذت البراغماتية العديد من الاتجاهات الأخرى عن الاتجاه البيرسوي ، لعل أشهرها هو الاتجاه الأداتي (L' Instrumentalisme) "جون ديوي" * مدرسة شيكاغو ،(Chicago) و الاتجاه التجريبي و الإنساني "وليام جيمس" وصولا إلي المذهب النفعي الأداتي والذي ظهر بداية مع "جيرمي بنتام" (J. Bentham) [(28)].

* عرف "جون ديوي" بنزعته الفردانية نحو تأسيسه للمذهب الوسيلي و الواقع أن ديوي لم يكن براغماتيا منذ بداية حياته الفكرية، فقد تأثر في بادئ الأمر بالهيغلية من خلال أستاذه ّج،س.موريسّ G.S. Morris وبقيت آثار هذا المنهج الفلسفي تلازمه حتى بعد تحوله عنها إلي البراغماتية، بفعل التصور البيولوجي للنفس، هذه الفكرة التي انتبه إليها من خلال نظرية وليام جيمس حول تصوره الجديد عن كيفية تحول الاعتقاد إلي إرادة، وقد عرف "ديوي" لتأسيسه بالمنهج الوسيلي أو الأداتية (La logique instrumentale)(أنظر محمد الجديدي، فلسفة الخبرة عند ديوي، عدة طبعات)

(28)_ Cf. Tiercelin (C) : Le doute en question. Parades pragmatistes au défi sceptique, L'Éclat, Paris, 2005.

2 ــ الجذور والتاريخ:

يمكن القول أن جذور البراغماتية تمتد بالتالي من السوفسطائيين، تماما مثل الليبرالية، كما سبق أن أشرنا [29].

كما أن مصطلح البراغماتية ورد بعد ذلك علي يد العديد من الفلاسفة، خاصة المحدثين والمعاصرين، من أمثال كانط، وإن كان مضمون أخلاقي، و "ايطيقي"، وذلك بمعني " تكييف معارفنا ونشاطنا مع الأخلاق"[30] ثم علي يد الفيلسوف "موريس بلوندل" و"برغسون" (ت1941) (H. Bergson) وغيرهم وهم كثيرون اليوم .

3 ــ التعريف والمفهوم:

إذا كان "شارل ساندرز بورس[*] قد عرف البراغماتية تماما نظرية في المنهج (Théorie de la méthode)[31] وبأنها مقال جديد في المنهج (un nouveau

---

[29] _Cf. Tiercelin (C) : Ch Peirce et Le Pragmatisme .

[30] _ Cf. Kant : Critique de la raison pure, trad. J.Barni, Flammarion, Paris, (sd).

[*]– كان بيرس متنوع الاهتمامات و الاختصاصات فقد كتب في العديد من المجالات ، ابتداء من الانطولوجيا و، الأخلاق و ، الفلك و الدين و الفلسفة و الميتافيزيقا و الرياضيات و المنطق و البصريات و السيمياء و علم النفس و علم المساحة الأرضية (Géodetic Survey) و علوم الآثار المصرية ،و التاريخ ، و الكيمياء، و الفيزياء و علم الألوان و الأطياف (La photométrique). كما كان بيرس بالتالي و كما أكد برتراند راسل (B Russel) (ت 1970) بركانا يقذف حمما معرفية بها كثير من الذهب .

ولد شارل سندرس بيرس سنة 1839 بمدينة كامبردج (Cambridge) ، ولاية (ماساشوسيت) (Massachusetts) بالولايات المتحدة الأمريكية ، من أب خبير ، و هي الخبرة التي ستجعل بيرس مرتبطا دوما

discours de la méthode) فإن باحثين آخرين... قد عرفوها... وبأنها "فلسفة الديمقراطية الأمريكية" (جون ديوي)، الثورة الفلسفية الأولي والعملية علي المثالية [32]... وبأنها "فلسفة علمية" [33]، وبأنها فلسفة الفلسفة الأمريكية وهي فلسفة النجاح والأثر، القائمين علي العقل والتجربة.

بالرياضيات بصورة خاصة . تعرف أثناء دراسته بجامعة هارفارد (Harvard) هو في سن الثالثة عشر علي منطق وايتلي (La Logique de Wately)، و علي فلسفة كانط (E Kant) و هذا قبل أن يعمل في نفس الجامعة كأستاذ للفلسفة و للمنطق في جامعة (J Hopkins) و بنظامها و التي لم يحظ فيها بتقدير أكاديمي نظرا لنقده المستمر للجامعات و لم يرسم فيها نتيجة لحدة أخلاقه ... سافر عدة مرات إلي باريس ... و حاول فيها الكتابة باللغة الفرنسية بعد أن بدأ في تعلمها علي يد صديق له (Léo Seguin) (*). كان بيرس متدينا (Théiste) مثل أبيه ، كما عرف (بيرس) العديد من مفكري عصره من أمثال "إيمرسون" (Emerson) و "جورج سانتيانا " (J Santayana) (ت1952 م) و" رويس" (J Royce) إضافة إلي وليام جيمس و "جون ديوي".

انظم (بيرس) سنة1870 إلي النادي الميتافيزيقي (Club des métaphysiciens) ، الذي كان يظم أيضا بعض الفلاسفة مثل جيمس و ديوي و جون فيسك (J fisk) (ت1901 م) و بعض العلماء ... المتأثرين خاصة بالداروينية و ذلك من أمثال شانسي رايت (Chancy Wright)(1875 م) و غيرهم ... وهذا النادي .. وهم لا وجود له في الواقع ... و هدفه تجاوز الميتافيزيقيين و الميتافيزيقا التي لا طائل منها و من أطروحاتها عكس التجربة . و كان بيرس قد عمل لبعض الأوقات ممثلا لبلاده في المؤتمر الدولي لعلم المساحة (Géodetic Survey) ، لم يكتب بيرس في حياته سوي كتابين لم ينه الثاني ... بل إن كل ما كتبه مقالات متناثرة في بعض المجالات و القواميس كان بيرس نتيجة لحدة طبعه ... و لتعقد أسلوبه كذلك بائع رديء لبضاعة... التي لم تجد طريقها إلي الانتشار إلا بعد تواري صاحبها.

مؤلفاته : كتب بيرس كما لم يكن خطيبا بارعا أو مقنعا و، و كما أسلفنا، ما يزيد عن 80000 ورقة مخطوطة بيده و لكنه لن ينشر إلا البعض منها في بعض المعاجم و المجلات ، و نقدم فيما يلي أهم المؤلفات التي كتبها بيرس و نشر معظمها ، من طرف المعجبين له ، بعد وفاته .

"تثبيت الاعتقاد" (The Fixation of the Belief)(1878) ،"كيف نجعل أفكارنا واضحة" (How to Make Our Ideas Clears) (1879) ،" ماهي البراغماتية" (What Pragmatism Is?)(1905) .

(31) _ Gérard Deledalle : La philosophie Américaine, PP, 10_58.

[32]- Ibid., P, 34.

[33] - Ibid., P, 62.

يضاف إلي كل هذه التعاريف، المعرفة، بالبراغماتية عامة، و بالبراغماتية البورساوية خاصة، تعاريف أخري ناقدة بل ومنددة لها... سنعرض للبعض منها في الفقرة الخاصة بنقد هذه البراغماتية... من هذا الفصل.

4 ــ الجذور:

إن ضبط جذور مفاهيم الفلسفة الأمريكية، لا يزال إلي حد الآن يشكل أمرا صعبا للعديد من الفلاسفة لأنه يؤسس اليوم للعديد من النظريات الاجتماعية، الاقتصادية و الإنسانية علي حد سواء.

لقد تغذت البراغماتية "البيرسوية"، إضافة إلي النظريات السياسية الأوروبية بالفلسفات الأمريكية الواقعية والواقعية الجديدة، والواقعية النقدية، والمثالية...الخ، الوافدة من أوروبا... خاصة فلسفة "ديكارت"، و"هيغل" و"داروين" (Darwin) (ت1882)[34] .

و تأثرت البراغماتية البيرساوية، كذلك بالعديد من المذاهب الفلسفية والنفسية والدينية (البروتستانتية) الأخرى، ومن الاتجاهات العلمية كذلك.

لقد تأثرت البراغماتية... من بين ما تأثرت بانتصار الشمال علي الجنوب 1871، في حرب الانفصال الأمريكية الأهلية التي هزت التقاليد وفتحت علي مصراعها أبواب التقدم والتحرر الإنساني اللامحدود وهنا في كل المجالات السياسية والاجتماعية... والدينية... والفكرية ... والثقافية.[35]

(*)ــ(وقد قتله مجند جزائري في الجيش التونسي ، اثر اختلاف معه ، في مدينة باجة بتونس).

[34]- Ibid., P, 69.

[35] _ Cf. Tocqueville (A) : De la démocratie en Amérique.

كما تأثرت البراغماتية بالجو السياسي الجديد، وبنظرياته ومنظري الحرية والفردية والديمقراطية... التي... ميزته وإلي بعد الدستور الأمريكي، إضافة إلي إعلان الاستقلال (Act of independence)أبرز نماذجها.

كما...تغذت البراغماتية كذلك من تلك الثورات الفلسفية التي تلت هذه الثورة السياسية، والتي تمثلت من بين ما تمثلت في ثورة "إميرسون" (Emerson) (ت1882) و"تورو" (Thoreau) (ت1862) علي المثالية والهيغلية، وثورة البراغماتية علي الديكارتية والكانطية...الخ.

لقد تأثرت البراغماتية عموما، و البيرساوية خصوصا، "بالسفسطائيين" و "بكانط" و لكنها رفضت مسلماته حول العقل العملي (La Raison Pratique) و حولت الفعل من المجال الأخلاقي إلي المجال العقلي أي إلي مكافئ للحقيقة و إلي معيار لها. كما تأثرت بالاتجاه الحسي البريطاني (Le Sensualisme) الرافض للميتافيزيقا و الذي لا يهتم بتحليل المعرفة ، و أصولها ، كما فعل "جون لوك" و "دفيد هيوم" (D. Hume) (ت 1776 م) ، بل بعلاقتها بعالم التجربة ... الذي يجعلها بالتالي أقرب فلسفة إلي "فرانسيس بيكون" (F. Bacon)... منها إلي "لوك" (أو "هيوم" ، و الذي اعتبره "جون ديوي" الأب الحقيقي للبراغماتية. و هذا في الوقت التي رفضت فيه البراغماتية للمفهوم الإيكوسي للحس المشترك (Commun Sens) كمعيار للحقيقة.

كما تأثرت البراغماتية كذلك بنظرية التطور "الداروينية" ممثلة...أساسا، لا في "لامارك" (Lamarck) (ت 1866 م)، بل في شانسي رايت (Chancy Wright) (ت1875)، حيث أخذت عنه مفهومه للمنهج (Méthode / Method) و عن "فين"(Venn) مقولته حول التحقق عن طريق

التجربة [36] (L'expérience Test). كما تأثرت البراغماتية بالوضعية ممثلة في "أوغست كونت"و في اتجاهه الهادف إلي وضع حد للفوضى العقلية التي ولدتها الفلسفات المثالية ، خاصة ، و ذلك من خلال ربطه للفلسفة بالعمل ولكنه رفض الطابع المادي المنطقي للحقيقة لدي هذه الفلسفة الوضعية. وعن الفلسفة الإيكوسية عن"ألكسندر بين" (A .Bain) (ت1904 م) فقد أخذت البراغماتية عنه مفهومه للحس المشترك من جهة و للاعتقاد الذي لا يمكن إلا أن يولد لدي صاحبه إلا دافعا إلي العمل لأن الاعتقاد كما يضيف هو ما يبدأ الإنسان عنده بالفعل المجسد أو الاستعداد لمثل ذلك الفعل، في رأيه لأن الإنسان لا يؤمن بفكرة ما ، كما قال ، و لا يعتقد بصحتها إلا بقدر استعداده للنشاط وللعمل وفقا لها .

أما و عن "جورج باركلي" (J.Berkeley) (ت 1753 م) فقد أخذت البراغماتية عنه موقفه الذي يذهب إلي القول" **بأن الواقع، ليس فقط، هو كل ما نفكر و لكنه ذلك الذي لا يتأثر بمثل ذلك التفكير من طرفنا فيه، بل هو أيضا كل ما لا نفكر فيه**".[37]

و في فرنسا تأثرت البراغماتية بفلسفة ديكارت الذي أخذت عنه مبدأه في الشك لا مضمونه و الذي حولته، إلي شك عملي بعيدا عن شكله الديكارتي المصطنع و عن مضمونه الميتافيزيقي و الفلسفي المحض. و أخيرا و ليس آخرا فقد تأثرت البراغماتية ... بمختلف العلوم التجريبية التي كانت سائدة في عصرها ، و هي العلوم

[36]_ Gérard Deledalle : La Philosophie Américaine, P,56.
[37]_ Ibid. P,60.

التي سبقت الإشارة إلي البعض منها، كما تأثرت البراغماتية [38] بالداروينية والتطورية ممثلين في "هربرت سبنسر" (H.Spencer) (ت 1903) و في "شانسي ورايت" (Chancy Wright) (1830ـ1875) و "لامارك" وكما أشرنا، ونظريتهم ... في البحث المستمر من طرف الإنسان عن التوازن (L'équilibre) وفي الموضوعية العلمية القائمة، علي التحقق (La vérification)... التي سادت الروح المخبرية (L'esprit de laboratoire). باتجاه الباحثين إلي التجربة (L'expérience)، التي أصبحت المعيار الذي يقاس به العلم ... و الحياة ... نتيجة لطغيان الروح المخبرية (L'Esprit de Laboratoire) .

كما تميز هذا العصر بافتتاح أول جامعة لائكيه في الولايات المتحدة، في نفس الفترة التي ظهر فيها مؤلف داروين " أصل الأنواع " (L'origine des espèces) و هي جامعة (John Hopkins) التي تشكل بداية القرن العشرين ... كما ذهب "أندريه مالرو" (A .Malraux) ، و ببروز التحليل العقلاني للدين[39].

هكذا ازدهرت العلوم الكيميائية و البيولوجية و الرياضية و الفيزيائية ... و الهندسية و الإنسانية (الاجتماعية و النفسية) ...إلي جانب ...ازدهار تلك المقاربات العقلانية و التجريبية للدين (La religion). و هي المقاربات التي أكدت أن الاعتقاد في الدين، أيا كان ، يجب أن يصل عمليا ، بصاحبه إلي الله

(38) _ Cf. Schneider (H.W) : Histoire de la philosophie américaine, Ed Gallimard, Paris, 1955.

(39) - Morton (W) : La pensée sociale en Amérique, trad. M. Levi, PUF, Paris, 1963.

...من خلال تأثيره الايجابي في سلوكه ... و ذلك ما جسده، و إلي حد ما التيار البروتستانتي الذي يعد الحليف الأول لليبرالية الأمريكية.

أما علي المستوي الاجتماعي فقد تميز هذا العصر بالأهمية الجديدة التي أخذها الزمان... و القيم المحددة للسلوك، إضافة إلي بداية الشروع في أمريكا الجديدة ... و توطيد أسلوبها الاقتصادي و السياسي و الاقتصادي الليبرالي في التميز وصولا إلي تجسيد أسلوبها الخاص في الحياة (The Américain way of Life) .

في مثل هذا العصر ... ظهرت البراغماتية ... ومن روافده الفكرية و العلمية و الدينية ...و الاجتماعية و السياسية ... ارتوت و توطدت ... لتخرج ... بمذهب أساسه الفعل و الفاعلية ... في الواقع المعاش (أو المعيش) . و هو الفعل الذي اعتبره هذا المذهب، معيارا لكل حقيقة أيا كان ميدانها . الفلسفة الأمريكية المنفتحة حول معطيات التيار الليبرالي والمتمثلة خصوصا من خلال التطرف في بروز العديد من الفلسفات البراغماتية عامة ليست فلسفة بقدر ماهي منهج ... للبحث و للعمل .

فقد نشأت البراغماتية أول ما نشأت سنة 1878 ببريطانيا أولا ثم تطورت و تجسدت بعد ذلك في الولايات المتحدة الأمريكية علي يد رائدها الأول "شارل بيرس" و رفيقه "وليام جيمس" الذي كان أول من أعلن رسميا عن ميلادها و "جون ديوي" نتيجة لانشغال روادها ، بتخليص الفلسفة عامة و الميتافيزيقا من الفوضى العقلية في ظروف أشبه بنشأة الكانطية التي في التيارات المثالية و الدوغمائية و اللاأدرية و هذا بعد أن أصبحت عرضة لهجومات الحركات العلمية و الفلسفية بصورة خاصة .

و هي ليست فلسفة أو نظرية في الحقيقة بل منهجا.. للعمل و مقال جديد في المنهج و قد وجدت البراغماتية في الرأسمالية ...السياسية و الاقتصادية من جهة ، و في جمعها بين النظرة التطورية للعالم ... و بين النظرة الدينية له [40]....طريقها نحو حل المشاكل الأخلاقية و العلائقية بين هذا الخليط من الأديان ... و الثقافات و الحضارات و الألوان و اللغات.. و الديانات و الطموحات السياسية و الاجتماعية و ذلك من خلال اعتمادها للتجربة باعتبارها معيار الحقيقة و للعمل الفاعل كمقياس لصدقها و هذا أيا كانت هذه الحقيقة و أيا كان مصدرها كذلك .

هكذا أكدت البراغماتية ، و علي لسان بيرس : **" أن كل ما يقدم أو يقال ، لكي يقبل من طرف الجميع ، في الولايات المتحدة الأمريكية و خارجها ، يجب أن يقود إلي تجربة ذات نتائج، عملية أو معنوية، و إلا فليس له معني " فكرتي عن أي شيء هي فكرتي عن آثاره المحسوسة".**

فالتجربة نتيجة أساسية للفكر ... كما قال (جون ديوي) و لا يمكن تصور حياة أو فكر بدونها كما أضاف . أما "بيرس" فقد **أكد أن كل ما يقدم أو يقال يجب أن يقود إلي تجربة ذات نتائج و إلا فليس له معني**

كما تاثرت البراغماتية البيرساوية، أخيرا وليس آخرا، بالواقع الإنساني الذي شكله التوافد المتزايد للمهاجرين الأوروبيين، وغير الأوروبيين بعد ذلك، إليها... والذي انتهي بمجتمع متعدد الأجناس والألوان والثقافات والديانات... والقيم...

(40) _-.Schneider H.W : Histoire de la philosophie américaine, P, 404.

والحضارات... والتطلعات... كما سنري ذلك، لاحقا، وبشيء من التفصيل، مجتمع قائم **علي "الفردية ــ الجماعية"** [41].

و إذا كانت البراغماتية المتأثرة ، مثل غيرها من الفلسفات في الولايات المتحدة الأمريكية ، بالواقع الإنساني و الاجتماعي و التاريخي و السياسي الخاص بهذا البلد فإنها تأثرت كذلك ، و مثل تلك الفلسفات ، بالمبادئ السبعة عشر الشهيرة التي تحكم منذ 1776 الحياة السياسية و الاجتماعية الأمريكية ، فإنها تظل مع ذلك الفلسفة ، أو المنهج الفلسفي، الوحيدة المعبر بوضوح عن روح هذا البلد ... و ذلك من خلال اعتباره للعمل التجريبي الفاعل ، أو الفعال العامل المشترك الذي يجب أن يلتقي عنده ، و عند الحقيقة ، أو الحقائق، الحامل لها ، هذا الخليط من الأشخاص المكونين للمجتمع الأمريكي الجديد .

من مثل هذه الفلسفات والتيارات الدينية والعلمية والنفسية والتقنية والثقافية والحضارية خرجت البراغماتية البورساوية، وانطلاقا منها صنعت أصالتها، التي جاءت مطابقة لإيديولوجيا أمريكا القائمة علي النجاح العملي أولا [42]، والمعنوي بعد ذلك، وهو النجاح الذي قالت أنه يجب أن يشكل وحده معيار الحقيقة بالنسبة

---

[41] ــ د. زكي نجيب محمود: من زاوية الفلسفة، دار الشروق القاهرة، 1979، ص101.

[42] ــ Cf. Peirce (Ch.S) :The Fixation of The Belief, « Comment se fixe la croyance »», trad. C. Tiercelin et P. Thibaud, Le Cerf, Paris, 2002.

لكل الأمريكيين وطريقتهم نحو الحرية والديمقراطية ... الفعلية و الحقيقية... المتولدة عن الواقع، وبعيدا عن أي شعارات مجردة، أيا كان مضمونها ومصدرها.

5 ــ نظرية المعرفة:

اهتم بيرس مثل غيره من الفلاسفة البراغماتيين وغير البراغماتيين، بالمعرفة، مفهوما ووسائل وغاية، خاصة من خلال كتابيه الأساسين:" تثبيت الاعتقاد" (The Fixation of Belief) "وكيف نجعل أفكارنا واضحة" (How to Make Our Ideas Clair ?) [43].

يجيب علي مثل هذا السؤال الأخير **"أن كل معرفة إنما تعني أولا، ومن جهة، المعرفة للطبيعة، أو الواقع، الذي يعني المناقض للوهم (L'illusion) والقابل للمعرفة، وإن ظل بالرغم من ذلك مستقلا عن معرفتنا هذه له"** [45].

كما تعني المعرفة أيضا، المعرفة للذات كذلك وفي الوقت نفسه، وهي المعرفة، التي لا تتم إلا استنادا إلي معرفة سابقة ، وليس إلي الفراغ، كما ذهب "ديكارت" عن طريق الوعي والإدراك، المختلف في معناه عن المعني الهوسرلي، (نسبة إلي هوسرل (Ed. Husserl) (1859ــ1938)والتي لا تكون، وكما سبق "لكانط" أن أكد ذلك، معرفة لجوهر هذا الواقع أو الطبيعة، (Noumène) بل لظواهرها فقط،

---

[43]ــ حيرش سمية: الحقيقة البراغماتية بين العقل والتصوف، مجلة اوغوس، العدد الأول، تلمسان، 2011.

[45]_ Ludwig Marcuse : La philosophie américaine, Gallimard, Paris, 1967, PP, 61_64.

[46] _ Ch. S. Peirce : Collected Papers, (C.P), éd Hartshorne, Weiss and Burks, Harvard University Press, USA, 1974, 8 Vols, (8.12)

(Phénomène) [46]، وذلك لأنها معرفة أقرب، فيما يري "بورس"، إلي المعرفة العلمية، (التي لا تتوقف إلا عند ظواهر مواضيعها دون اهتمام كبير بجوهرها)، منها إلي المعرفة الفلسفية الميتافيزيقية، التي تحاول يائسة الوصول إلي مثل تلك الجواهر المفترضة للأشياء. وذلك يعني، وكما يلخص "بورس"، إلي أن المعرفة ليست مجرد تأمل ونظر، بل إنها قبل كل شيء نشاط وعمل.

وتتم هذه المعرفة، (المتولدة، وكما سبق أن أشرنا)، لا من الفراغ كما ذهب "ديكارت"، بل استنادا إلي معرفة سابقة [47]، وهادفة أساسا إلي تكييف سلوكنا باستمرار مع الواقع المعاش، أولا، وكما يؤكد "بورس"، عن طريق نفسه، وهو يحاول الإمساك بمعني تلك المعطيات، متوترا بين حالتين أساسيتين اثنتين وهما : الشك (Doubt)، أي التردد والتوتر والقلق [48] ، أمام المعني الصحيح الذي يجب أن يعطيه الإنسان للمدرك (Percept) [49] عمليات أثبتت التجربة فاعليتها، إلي تكوين عادة (Habit) واستعداد للفعل [50].

إن هذا الفعل وحده القادر علي وضع حد لمثل ذلك التوتر وعلي إعادة الهدوء والتوازن النفسي للوعي، وذلك بالتمكين لصاحبه، فيما يري "بيرس" من خلال الانتباه (L'attention) [51]، والجهد الذي يتطلبه (L'effort)، من التكيف الإيجابي

---

(47) _ Ch. S. Peirce : Collected papers,(5.263).
(48) - Ibid: (5.265), (5.372).
(49) - Ibid: (5.180), (5.181).
(50) _ Ibid :(5.400).
(51) _ Ibid :(5.997).

والمستمر مع البيئة، من خلال جدلية مثل ذلك الشك والاعتقاد المتجددين، ومن خلال الحقيقة أو المعني المتولدين عنهما، والذي يعرفها "بورس"بأنها مجموع الآثار (Effect) المادية، أو المعنوية المستخلصة من أي فكرة أو شيء، وذلك مثل الصلابة بالنسبة للماس والليونة بالنسبة للعجينة، وهي الصفات التي لا وجود لها إلا من خلال إدراكنا لها ولمعناها [52].

نلاحظ هنا أن مثل هذا المفهوم للمعني (Le sens)، هو الذي مكن "بورس" من تأسيس "علم الدلالة" أو "السيميوطيقا" (La sémiotique)[*].

كما نلاحظ كذلك أن هذا المفهوم للمعني هو الذي كان كذلك وراء مفهومه الآخر والجديد للغة، باعتبارها أولا ألفاظا دالة علي أشياء موجودة كما أنه هو الذي جعله يؤكد كذلك وبالتالي "أن عبارتين مختلفتين لفظا ومتحدتين آثارا هما عبارة واحدة، كما أن عبارتين متحدتان لفظا ومختلفتين آثارا هما عبارتين مختلفتين تماما".[53]

[52] _Ibid: (5.402), (5.403).

[*] _ أنظر هامش،ص79، 144من هذه الرسالة

[53] _Ibid : (5.402).

نلاحظ أخيرا أن هذا المعيار للحقيقة لصحة الكلام ولجدواه هو الذي دعم الديمقراطية الأمريكية وحرية الرأي والعمل في أمريكا المتعدد الأجناس والثقافات والأديان، كما أنه هو الذي حماها في الوقت نفسه من الفوضى ومن الكلام الفاقد لأي مصداقية أو مضمون...

نعود إلي مفهوم "بورس" للحقيقة لنقول أنه يري أنها وليدة البحث (Inquiry)[54] وللسلوك والعمل وأن من الشك ومن الاعتقاد والحقيقة المتولدة عنهما مفاهيم ذاتية، وذلك لسبب بسيط وهو أن الشك الذي يعنيه ليس شكا سوفسوطائيا من أجل الشك، ليس شكا مفتعلا، أو كاذبا، مثل شك ديكارت (doute factice)[55]، بحيث أنه يستحيل وكما سبق أن أشرنا، أن نبدأ تفكيرنا بالشك في كل شيء كما قال، بل إنه شك سيكولوجي، حي، (doute vivant) يولد عند إدراكنا لمعطي من معطيات الواقع فيولد لدينا قلقا وتوترا وطلبا للتفسير (L'explication) يدفعنا بالتالي إلي العمل علي الخروج منهم من خلال الاعتقاد في معني ما، أو فرضية، لا نلبث أن نضفيها، (بعد العديد من المحاولات ومن الأخطاء ومن الاستدلال كذلك (L'inférence)، علي ذلك المعطي وهو المعني الذي إذا توافق مع سلوكنا العملي ولد تجاهه لدينا معرفة وعلما جديدين، وإن لم يتطابق فإنه يدفعنا إلي البحث عن معني آخر له، حتى يتحقق مثل ذلك التوافق المنشود، بين النتائج المتوقعة والنتائج المتحققة لسلوكنا إزاء المدرك (الواقع).

وهكذا دواليك عند كل إدراك جديد لمعطيات الواقع. هكذا يولد العلم ويتقدم باستمرار.

---

(54) _Ibid :(5.423).
(55) _Ibid : (5.372).

إن مثل هذا الطابع السيكولوجي والحي للشك إذا كان يضفي علي الاعتقاد وعلي الحقيقة المتولد عنه طابعهما الايجابي والذاتي ويرتفع ديناميا بهما من حالة السلبية إلي حالة الإيجاب، فإنه هو ذاته الذي يحول كذلك وبالتالي، إلي حقيقة أو المعرفة العلمية المتولدة عنها لا إلي معرفة موضوعية مطلقة. بل يجمعه، مثل الشك المتولد عنها. من هنا طابعهما الحدسي (Intuitif) عند "بورس"، وهذا بالرغم من منطلقاتها الحسية والتجريبية بل والعقلانية.

ومن هنا كذلك، وبالتالي، فإن السؤال الذي وجد "بورس" نفسه أمامه هو : **كيف أصل إلي الاعتقاد؟ وكيف أتأكد، من مثل هذه الحالة، أن ما عرفته، بمثل هذه الطريقة، من حقيقة عن الواقع صحيح؟ أنا الذي أجهل هذا الواقع، والذي قد أعتقد في وجود أشياء فيه لا وجود فعلي لها؟**

للإجابة علي مثل هذه التساؤلات فإن "بورس" يلجأ، مؤقتا، ومثلما فعل " كانط" من قبله، بالرغم سعيه نحو "علمنة" الفلسفة، والابتعاد بها، عما أسماه "أوغست كونت" " بالفوضى العقلية" ، " الميتافيزيقية"، إلي الحدس الكاتطي، خاصة...

لقد رأي "كانط" أن الإنسان يجد نفسه، في بحثه عن الحقيقة، وسط التعقد الذي يشكل الواقع، مضطرا، إلي أخذ بعض المواقف العملية التي تتطلبها الحياة، استنادا، لا إلي العقل فقط، بل وإلي الحدس كذلك، (تماما مثلما يفعل الطبيب أمام مريض

يجهل تشخيص مرضه)، بعيدا عن أي جدل نظري أو عقلاني، خاصة ذلك الذي يدور حول إمكانية، المعرفة أو عدم المعرفة العقلية، لجوهر أو "كوامن"، الأشياء المكونة للواقع، أو المتولدة معنويا عنه، وذلك مثل أصل الكون وحقيقة العقل والروح ووجود الله وجوهر الروح والجزاء والعقاب الأخريين التي سبقت الإشارة إليها.

أمام هذه الوضعية فإن الإنسان إذا كان يمكنه حل مثل تلك الإشكالات، نظريا، من خلال الاكتفاء بالتوقف عند معرفة ظواهر معطيات الواقع، كما يفعل العلم، فإنه مضطر في مجال العمل إلي حل البعض من تلك الإشكالات، والتي سبقت الإشارة إلي البعض منها... إلي فرضيات أساسها الحدس وليس الحس أو التجربة أو العقل.

يمثل هذا الاستلهام للحدس" الكانطي" عمل "بورس"، بالتالي، و بدوره علي الخروج بالإنسان وبوعيه من حالة الشك و "اللايقين" (L'incertitude)، للوصول به إلي الاعتقاد، الذي لا تصور لأي نشاط عملي للإنسان حياته بدونه، حيث أن الاعتقاد "البورسوي" لا يمكن أن ينفصل عن العمل. " **أن تعتقد هو أن تعمل وفقا لاعتقادك**، كما يؤكد "الكسندر بين" الذي تأثر به "بورس" من بين من تأثر، وكما سبق أن أشرنا ذلك...

إن مثل هذا المفهوم المزدوج، الحسي والحدسي، والعقلي والروحي، الواقعي والمثالي، النظري والتجريبي للاعتقاد وللحقيقة المتولدة عنهما الذي وصل "بورس" إليه بدوره، مثلما وصل إليه من قبله "كانط" في محاولته "إقامة أخلاق الواجب"، ونقده لكل من العقل الخالص (La raison pure) ومن العقل العملي (La raison pratique) [56] هما اللذان يضع حدا لشكنا ويجعلاننا نشعر، حسب "بورس"، بالارتياح (La satisfaction)، سواء أكانا صادقين أم كاذبين[57]، هما اللذان كانا وراء عودة "بورس" إلي الميتافيزيقا، مثلما عاد "كانط" من قبله، بعد أن هاجماها مثل هذا الأخير وحاولا كذلك إبعادها كلية من مجال أي تفكير جاد...

إذا كانت المعرفة عبارة عن آ راء و أفكار نكونها ، أو نستخلصها ، انطلاقا ، من وعينا بذاتنا أولا ، و بالواقع المتواجدين فيه ...بعد ذلك ، و ذلك عن طريق كل من الحس (Le sens) والإحساس (La sensation) و الحس المشترك (Commun sens) فإنها ... أولا و قبل كل شيء أفكار هادفة إلي التعامل العملي مع ذلك الواقع.

و لأن الواقع بالنسبة لبيرس "هو كل ما يتفق الناس علي أنه كذلك" ، فإن مثل ذلك الإدراك له... و من خلال شيء .. أو أشياء مكونة له...، لا يلبث، و باعتباره إدراكا استقرائيا (Inductive) أن يدفعنا بالتالي إلي إصدار حكم، أورأي

(56) _ Kant (E): Critique de la raison pure, P,93_97.

(57) _ Ibid : (6.486).

(Opinion) حول صحة ، أو عدم صحة ذلك الاعتقاد ، أو الفكرة الأولية الافتراضية التي كوناها عن ذلك الشيء أو الأشياء... المكونة.... أو المجسدة له

و النتيجة الطبيعية للاعتقاد، المتولد عن الحقيقة الذاتية و الموضوعية علي حد سواء هي اليقين (La Certitude)، الذي يمثل الحل الوحيد للشك و لانعدام التوازن النفسي و العقلي المتولد عنه. بذلك يتبين ارتباط كل من الشك و من الاعتقاد، بكل من الحقيقة و من اليقين اللذان يعدان الشرطان الأساسيان لكل معرفة عامة و لكل معرفة فلسفية بصورة خاصة.

ولأن الشك كذلك فإن حله الحقيقي و الموضوعي لا يكون في البداية عن طريق الاعتقاد (Croyance / Belief)، الذي يعني "التسليم المبدئي باقتناع العقل بصحة الأشياء كما يتصورها، بل عن طريق الحقيقة المؤدية إلى كل اعتقاد، وذلك لسبب بسيط وهو أنه ليس صحيحا أن كل ما نعتقد ه هو حقيقي، فقد نعتقد فيما هو خطأ كما قد نعتقد فيما هو صواب ، و ذلك ما تؤكده بعض الاعتقادات الخاطئة".

و لأن الشك كذلك أيضا فإنه نقيض اليقين الذي هو حال العقل المؤمن بامتلاك الحقيقة المطابقة للواقع. فاليقين (La Certitude)هو بالتالي وفي النهاية قبول الفكر لقضية يعتقد أنها صحيحة إنه حالة الفكر الذي يعطي موافقته، أو اقتناعه، بقضية أو فكرة، دون خوف في الوقوع في الخطأ.

لذلك يعرف بيرس الشك بأنه حالة من عدم الارتياح النفسي... والجسدي، والاضطراب الفكري.. يجعل صاحبها يطالب بالتفسير (L'explication) القادر

وحده علي إخراجه من شكه هذا، في أسرع وقت، و ذلك من خلال الوصول به إلي اعتقاد أكثر صحة حول تفسير ذلك المدرك.. و هو الاعتقاد الذي يعد الشرط الأول لا لكل يقين أو اعتقاد فحسب بل و لكل معرفة.. كذلك و قبل كل شيء.

و هذا الاعتقاد الجديد و الصحيح حول تفسير المدرك، إنما هو كذلك،لأنه يدفعني إلي السلوك العملي وفقه وصولا بالتالي إلي تأكيد صحة ذلك ... لأن الفكر هو السلوك و مهمته هي توليد هذا الأخير.

بذلك يخلص بيرس إلي أن الشك الحقيقي .. لا يمكن أن يولد إلا من اعتقاد أو اعتقادات أولية سابقة عليه هي أقرب في نظره إلي الزعم (L'assertion) الضروري و لكن غير كافي للمعرفة ، تماما مثل المعرفة الجديدة التي لا يمكنها أن تولد بدورها، و بالتالي إلا من معرفة أو معارف سابقة عليها .

نعود إلي الشك و إلي الاعتقاد لنقول أنه إذا كان كل من الاعتقاد و من الشك واحد و هو الحقيقة أو المعني و المعرفة الموضوعية و الحركية، معنوية كانت أو مادية، فإن الاعتقاد يظل مثل اليقين (La certitude)، فرديا في حين أن المعرفة موضوعية.فأنا حين أعتقد...و أتيقن من شيء ما .. أو من فكرة ما ، فإنه ليس من المؤكد أن يشاركني الآخرون في مثل ذلك الاعتقاد أو اليقين ، في حين أنني حينما أعرف شيئا ما فإنه بإمكان كل الناس مشاركين موضوعيا في مثل تلك المعرفة.

.يمثل هذه المعرفة يخرج الاعتقاد من مجال الفردية الضيقة و الجزئية إلي آفاق الموضوعية... و يتحول إلي عادة سلوكية...تحول بدورها الوضوح و التميز إلي ظواهر مألوفة و حيوية (Phénomènes vivants, familiers) مثل الظواهر التي يدرسها العلماء.و ذلك يؤكد ، كما يضيف "بيرس" أن الواقع يخضع لنفس القوانين التي يخضع لها الفكر.

و لأن الإنسان لا يمكنه، أمام معطيات واقعه المتعددة و المتجددة، أن يكتفي... باعتقاد... أو اعتقادات...محددة محدودية الحقائق المتولدة عنها ، فإن كل معرفة...نحصل عليها، لا يمكن أن تكون مطلقة...أو نهائية... بل يقوده إلي طلب معارف و اعتقادات أخري .

لذلك فإن كل معرفة جديدة لا تلبث، أن تحيله نتيجة لفقدانها لصدقها بعد حين، قد تقصر أو يطول، إلي طلب معرفة أو معارف جديدة....للتعامل الفعال مع واقعه، و هي المعرفة أو المعارف التي لا تلبث أن تولد لديه، و بدورها شكا يدفعه إلي البحث عن اعتقاد و عن معرفة جديدين، لا تلبثان أن تولدا، شكا جديد... ومعارف جديدة... فشك جديد... و هكذا دواليك.

إن هذه العملية التي تضفي علي كل معرفة و من الواقع طابعا دينميا هي التي يسميها بيرس بالبحث (L’enquête). التي يتحول بموجبها الشك باستمرار إلي مجدد للاعتقاد و للمعرفة... بقدر ما يتحول هذين الأخيرين و بدورهما، إلي مغذيين متجددين للشك.

كما أن هذه العملية... تعني أن الشك وليد أسباب موضوعية و ليست ذاتية تماما مثل هدفه الذي ليس مجرد الراحة و الطمأنينة بل معرفة جديدة للواقع... و مجددة له، معرفة ليس مصدرها الأساسي الحدس (Intuition) كما ذهب"ديكارت" فالحدس لا يمكن لنا معرفته إلا عن طريق الحدس...و هذا الأخير عن طريق الحدس ...و هكذا بل المعني الموضوعي الذي تؤكده التجربة (L'expérience) العملية اتجاه ذلك الواقع .

و أخيرا ، فإن هذه العملية تؤكد كذلك أن الشك البيرسي ليس نقطة النهاية، كما هو الحال عند أصحاب الشك المطلق(Le doute Hyperbolique) ، تماما كما أنه ليس نقطة البداية ، كما هو الحال عند " ديكارت" ، بل إنه وسيلة... أو نقطة مرور متجدد من اعتقاد...إلي آخر أكثر صدقا و جدة... و عملية.

بذلك يمثل الشك (البيرسوي) واسطة منطقية و متجددة بين الإحساس ، أو الإحساسات الأولية ، و بين المعرفة الموضوعية ، و ذلك من خلال انتقاله بالوعي ...من الوعي بذاته ...إلي الوعي بواقعه ...وصولا إلي تحويل إحساساته الأولية ...الغامضة و البسيطة (Priméité) و هي حالة الأولانية مع الواقع إلي وسيلة لبداية التفاعل الفردي مع أشياء ذلك الواقع و هي الثانوية (Secondéité) وصولا إلي التصور لتلك الأشياء وهو التصور الذي يمكننا من المعرفة و من المقاربة بين

الأشياء المختلفة ...مثلما يفعل القانون العلمي و القوانين التي تنظمه و تحكمه و هذه هي الثلاثية (Tiercéité) .

و بذلك أيضا يتجاوز الشك البيرسي بصاحبه و من خلال الاعتقاد حدود المعايشة السلبية له (كما حدث للإمام أبو حامد الغزالي) نحو اليقين المتولد أو المستخلص من التجربة ، معنوية كانت أو مادية و المؤدي إلي المعني (Le sens) الذي يعد معيار كل معرفة و دليل صدقها ...و حركيتها وهو المعني الذي علينا تحديده ... و ليس إضفاءه علي الواقع .. و معطياته المتواجدة سلفا.

ضمن هذا المنظور يري "بيرس" ، و غيره من رواد البراغماتية أن فكرة مجردة مثل فكرة الله و الإيمان به ...تتحول إلي فكرة ذات معني عملي ، إذا كان التمسك بها يؤدي إلي نتائج عملية ايجابية و جديدة في سلوكي .

ـــ ازدواجية المنهج أو الطريق إلي الحقيقة عند بورس:

إن هذه الطروحات "البورسوية" حول الطابع المزدوج للحقيقة وللشك والاعتقاد لطرقهم أو مناهجهم، هي التي تجعلنا نسأل "بورس" علي مثل هذا التساؤل بأن ذلك لا يتم عن طريق "الانسجام"، مثلما ذهبت الفلسفة المثالية، كما أنه لا يتم كذلك عن طريق القياس العقلي المنطقي، الذي لا يفيد جديدا، بل عن طريق مناهج

ثلاثة، وهي **منهج الدأب، أو الوثوق(La méthode de ténacité)** [58] أي التمسك بفكرة، نقتنع بها، والدفاع عنها باستمرار، **ومنهج النفوذ** (**La méthode d'autorité**)[59] أي استبدال سلطة الفرد بسلطة الدولة حماية للمصالح الوطنية، **والمنهج العلمي** (**La méthode scientifique**)، في معناه العام والتعارف عليه، الذي يوصل صاحبه إلي حقائق مستقلة تماما عن أفكارنا وعواطفنا، والذي يعتبره "بورس" أفضل كل تلك المناهج، حيث أن العلم، وكما يضيف، يمثل الوسيلة الأكثر مصداقية لمقاربة الواقع، لأن قوانينه، التي يعترف بأنها، وإن كانت ليست صادقة دوما أو ثابتة تظل مع ذلك أفضل من يعبر عما هو حاضر وليس عما مضي.

فالمنهج العلمي، الذي تختلط فيه الحاجة والوسيلة، هو المنهج الوحيد، حسب "بورس"، الذي يؤكد، موضوعيا، ومن خلال قوانينه، وجود وقائع ذات خاصيات مستقلة تماما عن الأفكار التي يمكن أن نكونها عنها... وهي الخاصيات التي تشكل بالنسبة لنا، ووفقا لتلك القوانين المحددة، معني لمعطي ما، فإنه يظل يؤكد مع ذلك أن أيا من هذه المناهج لا يمكن أن يوصل إلي الحقيقة المطلقة أو النهائية كما أشرنا... و لأن الشك البيرسوي ، يجعل بالتالي من الاعتقاد و من الحقيقة ... و المعرفة المتولدين عنه ...ظواهر غير ثابتة أو مطلقة ، بل مؤقتة... ونسبية، فإن المنهج الكفيل بتثبيت الاعتقاد... وحقائقه... أطول مدة ممكنة، و هو المنهج العلمي

[58] _(5.372).
[59] _(5.382).

في معناه المتعارف عليه لدي العلماء في مخابرهم و هو المعني الذي لا يجيب خلطه بالتالي مع المنهج الجدلي الهيغلي خاصة.

فالمنهج العلمي ، عكس كل من منهج الإصرار و ما يتضمنه من أنا وحدية (Solipsisme) حيث يعتقد المرء فيما يريد أن يعتقد فيه طالما لا يوجد ما يثبت خطأ أو صدق ما يعتقد فيه غير خبرته ونجاحه في الوصول إلى هدفه. فمادة الاعتقاد وموضوعه هما خبرات حسية ذاتية ننتقيها. ومعيار الصدق هو نجاح الاعتقاد.

و منهج السلطة الذي و إن كان يبعدنا عن الآراء الاعتباطية فإن استبداله المعرفة بالحرص علي النظام من طرف الدولة و ما يتضمنه من نتيجة لمحاولتها المستمر بفرض أراء ... غير مقنعة في بعض الأحيان ، علي شعبها ، تجعله لا تتميز في سلبيته عن المنهج الأول ، ينفرد هذا المنهج العلمي إذن بتأكيد مسلماته علي وجود حقائق مستقلة عن الأفكار التي قد نكونها عنها .

كما يتميز المنهج العلمي كذلك عن الحس المشترك ، أي مجموعة الآراء السائدة، في فترة زمنية ما ، لأن الأفكار المتضمنة لها غامضة من جهة ، و لا ينطبق عليها مبدأ عدم التناقض إلا جزئيا، من جهة أخري ... كما أنها لا بد أن تندثر، و مهما طالت، بمجرد ظهور ما يناقضها.

غير أن المعرفة التجريبية التي يوصل إليها هذا المنهج العلمي تظل مع ذلك غير مطلقة... و غير ثابتة أو سكونية و ذلك يعني أن الحقيقة التي يؤدي إليها هذا المنهج تظل ...متصفة دوما **باللاوثوق**، أي أنها حقائق تظل قابلية لأن تنفي من طرف حقيقة جديدة .

و في ذلك تقيم البراغماتية حاجزا متجددا بين حقائقها ... و بين **الدوغمائية** من جهة ... و بين **ادعاء اليقين و الدقة و الكونية المطلقة** و هي الصفات التي يعترف "بيرس" أنه يستحيل علي العقل ادعاء الوصول إليها . علي أن الفلسفة ، يمكنها مع ذلك ، و بإتباعها لمثل هذا المنهج العلمي أن تتخلص، فيما يري "بيرس" من الكثير من لغو الكلام ... و أن تمكن صاحبها من التفريق بين معني الفكرة الصحيحة و الفكرة غير الصحيحة وصولا إلي تمكين الإنسان من تحديد معاني الأسماء و العبارات و الأشياء التي يستخدمها ليتحول تعامله معها ، و مع الواقع المجسدة له إلي تعامل ايجابي و فعال .

من هنا خطأ، ما اعتبره البعض تجاوزا، نهائيا، للفكر البورسوي من خلال المنهج العلمي **"للحدس الكانطي"** برفضه، في النهاية، لحتمية العلمية المطلقة، معنوية كانت أو مادية، علي حد سواء.

ومن هنا كذلك لجوء "بورس" نتيجة لأخذه بهذا المنهج، للحدس الكانطي إلي ما أسماه " **بالاحتمالية الحقيقية**" (**Faillibilisme**) [60] ، وهو الذي يعني به أن كل الأحكام العلمية افتراضية، وليست بالضرورة صائبة أو صادقة من هنا فإن كل معارفنا تسبح، وكما يضيف، في "**اللاوثوق" والغموض**[61].

---

[60] ــ د. نمير العاني: حول مفهوم الحقيقة في الفلسفة البراغماتية ، مجلة الطريق، بيروت، العدد السادس، 1980.

[61] _ Ch. S. Peirce : Chance, Love and Logic, (divers editions), p,381.

[62] _ Ch. S. Peirce : Collected papers,(1.171).

ومن هنا أخيرا وليس آخرا، الطبع، أو البعد الصوفي، بل والديني، للحقيقة عند "بورس" إلي جانب بعدها الحسي والتجريبي، بل والعقلاني عنده، وهو الأمر الذي جعله يقول:" **إن التشبث بالوثوق في موضوع ما يعني أننا لا نترك مكانا للدين**" [(62)].

هكذا جاءت البراغماتية البيرسوية بتلك الازدواجية، العقلانية والصوفية، التجريبية والروحية، الواقعية والمثالية، وهي الازدواجية التي كان "بورس" أول من أكد ضرورتها حين قال:" **إن لم نتحول إلي زهاد... فكيف نرسخ الاعتقاد، لدي فرد واحد، فضلا عن كل المجتمع**" [(63)] وذلك ما يبدو أن البعض من الدارسين للبراغماتية عامة، وللبراغماتية الورسوية خاصة، الذين اختصروا هذه الأخيرة لديه في الفاعلية وفي الأثر أو الأثار، خاصة المادية منها، ولم ينتبهوا، أو لم يعيروا اهتماما يذكر، لبعض الحقائق التي كان " بورس" أول من أكد، مرارا، أنها تشكل المكونات الأساسية لفلسفته، أو بالأحرى لمنهجه الفلسفي هذا، وهي الحقائق التي نورد، فيما يلي البعض من نماذجها:

1 ــ أن الحقيقة، أيا كان موضوعها، بما فيها تلك التي يتوصل إليها عن طريق المنهج العلمي، لا وجود لها إلا بالإنسان، (المكون من العقل ومن العاطفة)، ومن أجله، وهي ليست بالتالي مطلقة أو نهائية أو، وذلك لسبب بسيط، وهي أنها

(63) _ Ch. S. Peirce: Values in Universe of chance, New York, 1905, p, 400.

متولدة، وكما سبق أن رأينا عن شك ومن اعتقاد ذاتيين ومرتبطين بتلبية حاجاتنا، الفردية، قبل كل شيء، وهي الحاجات التي تضيف أنها تعمل علي إشباعها بشكل صدفي وعشوائي.

2 ــ إن مثل هذه الخاصية الذاتية، وغير الموضوعية للحقيقة ولوسائلها هي التي تجعلنا نأخذ بعين الاعتبار، لا فحسب، دور المنهج العلمي في الوصول إلي الحقيقة، بل ودور الصدفة والاحتمال ، في الوصول إلي الحقيقة التي يقول عنها أنها تتلخص في المنفعة المستقبلية لأهدافنا [64].

3 ــ من هنا تأكيد "بورس" علي أن أي قانون و"أية حقيقة" إنما هو وليد الصدفة والعشوائية"

هكذا عاد "بورس"، من جديد، ومثل "كانط"، إلي الميتافيزيقا فحسب، لا ليقول، أنها "لغو"، بل ليؤكد " أنها هي التي تساعد علي فهم الكون والفيزياء، وهذا بعد أن كان قد رفضها بدوره جملة وتفصيلا، بل وعاد "بورس" إلي الدين وإلي التصوف،**"فالإيمان بالله، الواحد، الفرد الصمد، وليد تجربة روحية مباشرة"، وهي التجربة التي تدفعك إلي إغماض عينيك لتري الله، كما يضيف أن الغريزة [65] هي الضامنة، فيما يري، لوجود الحياة اللأخروية تماما كما أن الزهد**

[64] _ Ch. S. Peirce: Collected papers, (235),Vol.V.
[65] _ Pierre Gauchotte ; Le pragmatisme, Que Sais- Je , PUF, Paris, 1992, P ,28.

هو الذي يؤدي بنا إلي الاعتقاد و إلي ترسيخ الإيمان والعمل، لا داخلنا فحسب، بل وداخل كل المجتمع كذلك".

بذلك كانت البراغماتية، خاصة، و البراغماتية البورساوية عامة، ومن خلال امتدادها الفلسفية والنفسية والتربوية والروحية والسياسية الخ، الفلسفة الأمريكية الأولي والوحيدة التي نجحت في التوفيق، أو في المزاوجة بين النزعات المادية، ممثلة أساسا في التطورية (L'évolutionnisme) وفي الرأسمالية (Le capitalisme) من جهة، وبين التصور الديني البروتستانتي (Le protestantisme) للعالم وللكون، من جهة أخري... وبذلك كانت أحد العوامل التي جعلت الشعب الأمريكي شعبا متدينا بالرغم من الطابع المادي، المسرف بعض الشيء لحضارته ولثقافته...

6 ــ نقد البراغماتية البيرساوية:

بالرغم من العديد من الإيجابيات التي تميزت بها الفلسفة البراغماتية... عامة، والبراغماتية البورساوية خاصة، وذلك مثل عدم فصلها بين النظر والعمل ونظريتها المتفائلة للإنسان ولمستقبله... الذي يضل متوقفا علي فعله، ومثل تركزها علي الحرية وعلي العقلانية إلي حد ما، وارتباطها بحرية الرأي والفعل وبالديمقراطية الخ.

فإنها قد تعرضت، بالرغم من كل هذه الايجابيات التي جعلت منها فلسفة أمريكا والمعبرة عن روحها، كما سبق أن أشرنا، للعديد من النقد، بل من التشهير، خاصة

علي يد فلاسفة كبار من أمثال "برانتد راسل"(Bertrand Russel)(ت1970)الذي لم ير فيها سوي فلسفة التجارة (La philosophie du commercialisme)[73]

ولأننا لا نستطيع التوقف عند كل جوانب هذا النقد فإننا سنكتفي هنا بالتوقف عند الأهم منه.

أ ـــ إنها فلسفة سوفسوطائية، "وأنا وحدية" (Solipsiste) [74]... تحصر الحقيقة لا في الموضوعية، بل في الذاتية وفي الرغبة الفردية... التي لا تشكل معيارا أو طريقا لكل الناس... نحوها.[75]

ب ـــ إنها كفلسفة ثورة، منطقها عصا وجوهرها عطلة أخلاقية.

ج ـــإن منهجها المعرفي، يلغي المعطيات التركيبية للمعرفة إضافة إلي أنه يطمح ليكون المنهج الوحيد القادر علي حسم المشكلات الفلسفية.

د ـــ إن مقولتها بأن الاعتقاد في فكر أو في شيء يدفع إلي العمل غير صحيح... فنحن نعتقد في الموت... ولكننا نعمل حتى آخر لحظة من حياتنا عكس هذا الاعتقاد.

---

[73] Cf. Bertrand Russel , in Marcuse, la philosophie Américaine.

[74]ـــ أنظر نمير العاني: حول مفهوم الحقيقة في الفلسفة البراغماتية ، مجلة الطريق.

[75]ـــ أنظر نفس المرجع.

إن نفس الحقيقة تصدق علي المدمنين علي الكحول والمخدرات والإجرام...الخ هـــ إنها تقر بالعلم وبخصوصيته وبموضوعيته ولكنها تناقضه ومن خلال قولها بعدم يقينيته (L'incertitude) و ليس باحتماليته (Le probabilisme) في النهاية، وكما سبق أن رأينا.

و ـــ إن الأثر أو النجاح ليس دوما دليلا علي صحة الفكرة...كما يلاحظ"مالك بنبي"... فالفكرة صحيحة أو خاطئة تأتي إلي العالم... وحين تكون صحيحة فإنها تحتفظ بصحتها تلك، إلي الأبد"

كما أن الفكرة، قد تكون صحيحة، ولكنها فاقدة لمثل ذلك الأثر أو الصحة، في الوقت الحاضر، لنعود إلي صحتها... تلك، بعد ذلك... كما هو الحال في العديد من النظريات العلمية، التي سبقت زمانها.

وفي المقابل فإن فكرة قد تبدو صحيحة... في الوقت الحاضر... لكن الزمن يكشف بعد ذلك عن خطئها وعدم صحتها.[76]

ونقل تطور البحوث الفلسفية، وتفرعاتها من خلال العديد من المدارس(فلسفة اللغة، الوضعية المنطقية، البنيوية، و الإبستيمولوجية، والسميائية...الخ)

[76] _ M. Bennabi : Le problème des idées dans le monde musulman édit El-Bayane, Alger, 1990,P,88.

الذي لم يزد هذه الانتقادات إلا حضورا هو الذي كان وراء انصراف الجيل الجديد من البراغماتيين من أمثال "سعد زغلول" و "شارل موريس " (Charles William Morris)(ت1979) و"كواين" (Willard Van Orman Quine) (1908ـــ؟) و سيلار (Sellars) وورورتي (Richard Rorty) (1931ـــ2007) إلي مثل هذه الفروع أو المجالات الفلسفية الجديدة.

بين الليبرالية والبراغماتية:

لا نود إنهاء هذا الفصل دون القيام بمقارنة سريعة بين نقاط الالتقاء الايجابية والسلبية بين كل من الليبرالية وبين البراغماتية وهي النقاط عامة، و البراغماتية البورساوية خاصة التي نحن أول من يلاحظ، أنها لا تلقي مع ذلك العديد من نقاط التباعد والاختلاف بينهما.

أ) الإيجابيات المشتركة:

1. إن الليبرالية و البراغماتية تلتقيان أولا في تركيزهما علي الفرد... كمصدر للمعرفة... وللفعل.

2. كما أن كلا من الليبرالية ومن البراغماتية تؤمنان بحرية هذا الفرد بالربح وبالحرية التي تعطيها لليبرالية إنما هي، وكما سبق أن أشرنا، حرية شكلية...أمام طغيان الربح وأصحابه.

3. أن كلا من الليبرالية و البراغماتية قد لقيا دورا هاما في تدعيم الديمقراطية خاصة السياسية منها...في العالم الغربي وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية، دون غيره.

4. أن كلا منها لا تفصلان بين النظر والعمل، بين الرغبة وبين الحقيقة، أو ما تري أنه كذلك.
5. أن كلا منهما لا تنفيان الدين، أو تضاده كما أنها لا تلتزمان به كثيرا... وهذا طبيعي لأن الدين عند كل من الليبرالية و البراغماتية قضية فردية... بالنسبة لفرد حر... لا تحد حريته سوي حرية الآخر...أو ضميره بعد ذلك، إن تحرك مثل هذا الضمير.

ب ــ **السلبيات**: يعاب علي كل من الليبرالية و البراغماتية مايلي:

1. مناوئة الأولي، شبه المرضية للدولة، ولقبول المفرط وعلي العكس، من طرف البراغماتية لها إلي درجة الدعوة لها باسم حماية وحدة الشعب (أنظر منهج النفوذ وهدفه عندها)

2. مغالاتها في التركيز علي الفرد و الفردانية، وهو التركيز الذي يتحول الاهتمام بالمجتمع و طرفها إلي اهتمام قانوني في النهاية.

3. غياب الأخلاق، بصورة متفاوتة لدي كل من الليبرالية ومن البراغماتية، وهذا بالرغم من ادعاء كليهما لا تعارضاها.

لذلك فإننا سنركز نقدنا ... لبيرس علي شكه بصورة خاصة و علي الاعتقاد و الحقيقة و المعرفة المولدة لهم .

و لعل أول هذا النقد هو ذلك الذي يقول أن الشك الذي يقدم عنده من جهة و مثل الاعتقاد ، علي أسس ذاتية نفسية و حيوية و تيولوجية ، و علي أسس حدسية كذلك يظل في النهاية شكا ذاتيا ...مفرغا ، مثل الاعتقاد و الحقيقة المؤدي إليها ...من أي موضوعية [77].

و هذا ما جعل (بيرس) يعود ، بالنسبة لموضوع المعرفة عامة و المعرفة الفلسفية خاصة، إلي نفس الفوضى العقلية التي قال مثل "أوغست كونت" أنه يجب إخراج الفلسفة منها في أسرع وقت

إن الوعي في انتقاله من مثل هذا الشك (البيرسي) من توتر ...لا يفعل الاعتقاد سوي إعادة توليده من جديد ...و باستمرار، يلغي بالتالي العديد من المجالات الفكرية و المعرفية، التي لا تقوم بالضرورة إلا علي التوتر المستمر بين الشك و التوازن النفسي... أو الاعتقاد .فمثل هذا الشك لا يفعل سوي نقل الإنسان من حالة نفسية إلي حالة أخري مماثلة ...دون إمكانية له من الرسو علي معرفة حقيقية و معارف للعلم [78].

---

[77]ـــ أنظر نمير العاني: حول مفهوم الحقيقة في الفلسفة البراغماتية ، مجلة الطريق.

[78] _Cf. Peirce (Ch.S) : Comment rendre nos idées claires , trad. Claudine Tiercelin et Pierre Thibaud, Ed du Cerf , France,2002.

إن بيرس يناقض نفسه حينما يقول من جهة أن الاعتقاد هو المؤدي إلي المعرفة المقبولة و هي تلك المتولدة من المنهج العلمي ، و حينما يلغي عمليا مضمون و دور مثل هذا المنهج حينما يقول أن كل معارفنا تسبح في اللا وثوق .

إن ربط بيرس للحقيقة المتولدة عن الشك و عن الاعتقاد بالفاعلية ...و الأثر بالعملي الذي نولده من خلال السلوك يجعل من الفاعلية و الأثر بدلا للحقيقة و يحول بالتالي هذه الأخير .. إلي أداة و مفسرة (للفاعلية)..و هذا يؤدي بالتالي إلي إلغاء البراغماتية ذاتها ... لأنها لكي تكون مقبولة يجب أن تؤكد أولا و عمليا مثل تلك الفاعلية ...و الأثر ... اللتين نعلم أنها لا تكتسبها .

إن حصر "بيرس" للحقيقة المتولدة عن شكه ذاك و عن الاعتقاد ... المتولد عنه، في التجربة يتجاهل أن الحقيقة و المعرفة أوسع من هذه التجربة ، فهناك حقائق روحية ...و دينية ..الخ.

إن ربطه لصحة الحقيقة بأثرها العملي و الآني لا يمكن أن يعد معيار لمثل تلك الصحة ، بدليل أن هناك حقائق اعتبرت أنها صحيحة لأنه كان لها أثر في وقتها ... ثم أثبت العكس ... و اندثرت (الكثير من المعتقدات و الممارسات) و علي العكس فإن الكثير من الحقائق التي لم تثبت صحتها في وقتها ... و لم يكن لها آثار

و في مقدمتها بعض الحقائق العلمية ، قد تأكد بعد ذلك أنها صحيحة مثل تلك الآثار (قضية كروية و دوران الأرض).

لذلك فإن ربطه للحقيقة المتولدة عن الشك ، بالآثار ... و بالفائدة يقودنا إلي القول بأن الكذب قد يكون مفيدا ... وذا أثر إيجابي بالنسبة لصاحبه و لكن ذلك لا يحوله إلي حقيقته ...فضلا أن يضفي عليه بعدا أخلاقيا .

إن مثل هذه الملاحظات و غيرها، خاصة تلك التي أوردناها ،حول الشك البيرسي و الاعتقاد ... و الحقيقة هي التي جعلت البعض من الباحثين يقولون أن فلسفته غير منسجمة و أن شكه ليس تفسيرا للحقيقة ...أو حتى مجرد وصف لها.

كما أنه هو الذي جعل آخرين يصفون البراغماتية عامة ، و براغماتية بيرس خاصة، بأنها فلسفة للقوة منطقها عصا.... و جوهرها عطلة أخلاقية.
ثم ماذا يقول عن حقائق التاريخ القديمة ...و التي لا نستطيع تحديد آثارها ، للحكم علي صحتها أو خطئها ثم ماذا نقول عن الحقائق المقبلة ...و هي موجودة و إن كنا لم نتوصل إليها بعد مثل العديد من الحقائق التي عرفناها في النهاية.

و ذلك ما فعله بيرس ...كذلك حين طابق بين الفكر و بين العلم ...و جعل قوانين الفكر هو ذاته قوانين العالم أو الواقع...متناسيا أن الواقع لا يعرف كما قال لا يعرف إلا بالمعتقد من جهة ، و قوله من جهة أخري ، إن صحة معتقداتنا ...إنما

تتم من خلال مقارنتها بالواقع ؟ فكيف نقارن صحة معتقداتنا بواقع نحن لم نعرفه بعد ؟

فلا يجوز أن نتخذه بالتالي معيارا للمعرفة، و إن كنا نعرف ذلك الواقع سلفا ، فما الفائدة من التأكد من معتقداتنا حوله ؟

إن مفهوم الحقيقة في نظر "بيرس" هي تلك الحقيقة التي تتجسد من خلال حقائق مجزأة في كل لحظة نقوم بالكشف عنها و ذلك عن طريق المعرفة المتجددة و الدائمة و ذلك نظرا للاستحالة المنطقية أن تكون معطاة سلفا و مطلقة و نهائية مثلما ظن "ديكارت" بذلك تصبح كل معرفة و كل تفكير لا يمتد و لا يستقر إلي شكل من أشكال الحدس ، و معني ذلك أنه لا معرفة أيا كان شكلها حدسية نعتقد و نظن أنها موجودة .

نخلص مما تقدم إلي أنه لا معرفة حدسية يقينية و مطلقة بالنسبة "لبيرس" كما ذهب ديكارت لأنه إذا كانت المعرفة تقوم علي أسس حدسية فذلك يعني أن الحدس لا يقوم إلا علي مجرد اعتقاد ناتج عن حالات نفسية معينة و هكذا دواليك فلا معرفة و لا اعتقاد إذن ، إلا ما هو متولد عن اعتقادات و عن معارف سابقة .

أخيرا و ليس آخرا ، فإن معيار الحقيقة عند بيرس هو الفاعلية و ليس مجرد الوضوح... و التميز كما أنها تؤدي لدي بيرس إلي فلسفة للمعني[79] ...

[79]ـ يعتبر بيرس رائدا لعلم السيمياء و ذلك انطلاقا من دراسة للعلامة (La sémiotique) التي اعتبرها أساسا للعالم كله و لفلسفته ، بالتالي ، المعبرة بطريقتها عن هذا الأخير فالإنسان ذاته علامة و الكون كذلك ليس إلا علامة هائلة . فالعلامة بداية التعريف لأي شيء، و المبدأ الذي يفسر المعطيات المجردة، أو المجسدة.

و قد أقام بيرس مشروعه السيميائي هذا علي نظرية في العلامة تشمل كلا من اللغة ... وغيرها من العلامات غير اللغوية الأخرى....باعتبارها نوعا من اللغة ... التي يحكمها أيضا المنطق الذي يعد ، الوجه الآخر للسيميائية .

فالعلامة التي يعرفها (بيرس) بأنها شيء يقوم لدي الإنسان مقام شيء آخر انطلاقا من علاقته أو صفة ما في مفهوم بيرس ،تضفي علي الأشياء... تواجد أكثر كثافة ...تجعلها أكثر قابلية للتصور (La représentation) و للتأويل (L'interprétation) .

إن العلامة عند بيرس إحالة من شيء إلي شيء آخر ضمن تصور و موضوع محددين. و لذلك فإن المعني هو نتاج ترجمة علامة إلي علامة أخري قد تكون متشابهة ...أو مختلفة (cf Charles Sanders Peirce ;Collected papers (C P) ,5.253_5.257_5.265_5.289)

و العلامة من جهة أخري مرتبة بأشكال عدة منها الترتيب الثلاثي : الرمز (Le symbole) ،و المؤشر (L'index) ،هو دليل علاقة بين علامة و شيء(الدخان علامة النار) ،و الصورة (Image) أو الأقنوم (Icône) ...هو دال علي العلاقة بين العلامة و المؤول (L'interprétant) (تخطيط غرفة فوق الورق ،و عدم شرط تواجدها فعلا لفهمها علي أنها كذلك).

أما الرمز (Le symbole) ...فإنه مثل تلك العلاقة بين العلامة و الشيء و التي تقوم علي مجرد اتفاق بين الناس (العلم الأحمر في البحر يعني خطر السباحة فيه)(أنظر محمد قاري ، سيميائية المعرفة المنطقية)

الفصل الثالث

الليبرالية و البراغماتية بين
الفردانية والديمقراطية والدولة (المصالحة الصعبة)

I. عن خصائص المجتمع الليبرالي المعاصر:

لعل من بين ما يميز المجتمع المعاصر، ومن قبله الحديث، بالنسبة للمجتمعات التي سبقتهما، أي المجتمعات التقليدية، الشرقية منها والغربية علي حد سواء، هما الحرية...و الفردانية [1].

وهكذا فإن أول ميزة للمجتمع الإنساني الحديث والمعاصر خاصة في الغرب الرأسمالي هي تلك المتمثلة في قيامه علي الحرية وعلي المساواة، من جهة، وعلي تراتبية (La hiérarchie) مكوناته من جهة أخري.

من هنا حركية وتطور مثل هذه المجتمعات بالنسبة للمجتمعات التقليدية التي سبقتها. ومن هنا كذلك تقدمها المتواصل علي مختلف الأصعدة خاصة الفكرية والسياسية والاجتماعية والعلمية والتقنية.

أما ثاني ميزة للمجتمع الحديث والمعاصر فهي تلك المتمثلة في قيامه، لا علي الدين (La religion) أو علي الفئوية (Les castes) بل علي الفردانية (L'individualisme)، التي تحولت، عكس ما كان الحال بالنسبة للمجتمعات التقليدية، إلي المحور الأساسي الأول، الذي يدور حوله نشاط المجتمع.

---

[1] _ Louis Dumont : Essais sur l'individualisme, Seuil, Paris, 1991, Introduction.

من هنا تحول الفرد وحقوقه، ممثلة بصورة خاصة، في الحرية...السياسية منها والدينية، الاقتصادية منها والأخلاقية إلي العوامل المحركة لكل نشاط في هذه المجتمعات الحديثة والمعاصرة و إلي أهداف نهائية لمثل ذلك النشاط.

ومن هنا أخيرا، اختلاف المقاربات لمثل تلك الفردانية و لتلك الحرية، وغيرها من الحقوق التي أصبحت مرتبطة بها، في مثل هذا المجتمع الليبرالي الحديث عامة، والمعاصر خاصة عن المقاربات التقليدية لها.

1. الفردانية:

أ.المصطلح والمعني :

تعني الفردانية، لغة:" الوتر، و الجمع أفراد و فرادى، و الفرد نصف الزوج ولا نظير له، أي أنه منقطع القرين، لا مثل له. و تأتي كلمة تفرد بمعني انعزل و تميز عن غيره [2]. و الفرد هو المتفرد المتميز عن القطيع أو الجماعة، فنقول أفرد زيد بالأمر تفرد به، و تفرد بالأمر أي كان فيه فردا لا نظير له" [3]

فالفرد يعني الاختلاف عن الآخرين، ويتضمن التميز والخصوصية، وهذه هي البداية التي ننطلق منها [4]. كما تعني المضادة للحشد (Troupe).

---

[2] ــ ابن منظور: لسان العرب: طبعة جديدة، دار المعارف بمصر، الجزء الخامس، مادة "فرد"، ص3373.

[3] ــ الشيخ عبد الله البستاني: الوافي، معجم وسيط اللغة العربية، مكتبة بيروت، طبعة جديدة، 1990، باب الفاء، ص461ــ 462.

[4]ــ محمد الكحلاني: الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، مكتبة مذبولي، القاهرة، 2004، ص 18 ــ21.

" و الفرد Individual في الاصطلاح هو إنسان أحادي متفرد، ويحوي هذا المفهوم معني آخر هو الكلية التي لا يمكن تجزئتها إلي مكونات أصغر. فمصطلح " الفرد" باللاتينية Individum مثل مصطلح ذرة اليوناني Atome الذي يعني عدم القابلية للتجزئة، ثم إن مفهوم الفرد ينطبق علي الإنسان فقط. أما غير الأحياء أو ما يصنعه الإنسان فيستعمل المفهوم اللاتيني (Exemplum) بمعني عينة، أو شيء"[5].

" فكلمة الفرد تعني اشتقاقا الشيء الذي لا ينقسم ماديا،... والأفراد لا توجد إلا في الدرجات العليا الثلاث للوجود، وهي : العضوية و الحياة والتفكير، أما الطبيعية الجامدة فلا وجود فيها لغير " العينات". وتمثل العضوية و الحياة و التفكير المشروط عامة للفردية أو الحدود التي لا يمكن أن يقوم خارجها أي وجود فردي.[6]

يقول ابن سينا " الوحدة ما بها يقال لكل شيء أنه واحد، وهو معني كون الشيء غير ذي قسمة بالعقل، والعدد جماعة مركبة من الآحاد، والعدد الفرد هو الذي لا ينقسم بمتساويين" [7].

والفرد في علم النفس مرادف للشخص الطبيعي من جهة ما هو متميز عن الآخرين بهويته ووحدته، أو من جهة ماهو ذو صفات خاصة مختلفة عن الصفات

---

[5] ــ ف.ب. توغارينوف: الطبيعة والحضارة والإنسان، ترجمة رضوان القضماني، ونجم خريط، دار الفارابي، بيروت، 1987، ص173.

[6]ــ فؤاد كامل: الفرد في فلسفة شوبنهور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1991، ص 5ــ6.

[7]ــ ابن سينا: الشفاء، الفن الأول من جملة العلم الرياضي، أصول الهندسة، مراجعة ابراهيم بيومي مذكور، تحقيق عبد الحميد صبره، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976، ص211.

المشتركة بينه وبين أبناء جنسه والفرد في علم الاجتماع هو وحدة من الوحدات التي يتألف منها المجتمع كالمواطن في الدولة" [8].

ب.التفرد Individuation:[9]

ومبدأ التفرد individuation اصطلاح انتقل من "ابن سينا" (980ــ1037) إلي فلاسفة القرون الوسطي عبر الترجمات اللاتينية، وهو القول بأن لكل كائن وجودا جزئيا، يتفرد به في الزمان و المكان، أو يتميز به عن غيره من أفراد النوع" [10].

ويؤكد "محي الدين بن عربي" (1165ــ1240) التفرد لدي الإنسان من حيث إن كل فرد لا يمكن أن تتكرر صفاته في الآخرين" [11]. ويري "ابن عربي" أن خواطر الإنسان وحالاته النفسية متجسدة دائما لا تنقطع، سواء كان ذلك في حالة اليقظة أو في حالة النوم، فالإنسان سريع الحركة والتغير في باطنة كثير الخواطر، ينقلب في باطنه كل لحظة تقلبات مختلفة" [12].

فالإنسان المتفرد المتميز لا يمكن أن تتكرر صفاته في غيره،لأنه دائم التحول نفسيا ووجدانيا.

---

[8] ــ جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، 1982،ص138.

[9] ــ الكحلاني: الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص22.

[10] ــ جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ص138.

[11] ــ محمود قاسم: فكرة الإنسان في مذهب محي الدين بن عربي، دراسات فلسفية بإشراف عثمان أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974، ص151.

[12] ــ المرجع السابق، ص150.

والتفرد عملية أساسية عند "يونغ" (Yung) (1875ـ1961)، وهو الإمكانية الفطرية الموجودة في كل فرد والتي بها تتمكن النفس الفردية من تحقيق تمام نموها وارتقائها [13].

يقول "يونغ": " ودرب التفرد يعني الميل لأن يصبح الكائن فرديا بحق، وحيث إننا نعني بالفردية شكل وحدانيتها الأكثر حميمية، وحدانيتنا النهائية والمحسوسة، فالمقصود هو تحقيق الذات بأكثر ما فيها من شخصي وعصي عن كل مقارنة، يمكننا إذن ترجمة كلمة "التفرد" بتحقيق الفرد لذاته"[14].

ج.أشكال الفردانية:

نخلص مما تقدم إلي ضرورة التمييز بين نوعين من الفردانية:

الفردانية المعبرة عن الفرد (L'individu):

باعتباره العينة المثلي (échantillon) للنوع الإنساني...و باعتبارها (أي الفردانية) موجودة بالتالي، وإن بأشكال مختلفة في كل مجتمع إنساني.

إنها المناقضة للفيضية أو الشمولية (Le holisme)، وللحشد والمرتبطة بالأنا (Ego) وبالذات (Sujet)، وبالفردية (L'individualité) أي مميزات الفرد وبالشخصية (La personnalité) الفردانية الأخلاقية: أي المعبرة عن الفرد

---

[13]ـ مراد وهبة: المعجم الفلسفي، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ط3، 1979، ص161.

[14]ـ يونغ. ك.غ: جدلية الأنا و اللاوعي، ترجمة نبيل محسن، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط1،1997، ص89، نقلا عن الكحلاني.

ككائن أخلاقي، مستقل، وحر، بقطع النظر عن تواجده، أو عدم تواجده في المجتمع[15].

د. كما نخلص كذلك، إلي أن الفردانية: تظل، بالرغم من مثل هذه المقاربات الدينية والفلسفية والسياسية والاجتماعية لها، يعني خاصة علي المستوي الفلسفي النظرية، أو الاتجاه (Tendance) الذي يري في الفرد، أو في الفردي (Individuel)، الشكل الأكثر رقيا والأكثر تعبيرا عن الواقع، الإنساني والاجتماعي، تارة، أو القيمة (La valeur) الأكثر سموا...لهذه الأخيرة[16].

كما تعني كذلك كل مذهب (Doctrine) يعتبر الفرد القيمة العليا (La valeur suprême) والمصدر الأول لكل الحقوق ولكل نشاط أو عمل...[17].

2. التطور التاريخي للفردانية:

بالرغم من أننا لن نقدم هنا صورة تفصيلية لتطور الفردانية فإننا نشير مع ذلك إلي أهم المراحل التي عرفها هذا التطور عبر التاريخ.

أ.الفردانية في العصور القديمة:

بالرغم من ملازمة الفردية خاصة كنزعة، منذ وجود الإنسان فوق الأرض، إلا أنها لم تتجلي كحقيقة " وجودية اجتماعية " وأخلاقية سياسية، الممكن تجاوزها خاصة

(15) _ L. Dumont : Le concept moderne de l'individu, Revue Esprit, Paris, Février, 1978.
(16) _A. Lalande : Vocabulaire Technique et critique de la philosophie.
(17) _ C .Godin : Dictionnaire de la philosophie.

في تلك العصور الإقطاعية، وبالتالي فإنه لم يكن إلا منذ العصور الحديثة والمعاصرة، كما سبق أن أشرنا.

ب. اليونان والفردية:

فالفردانية في الفكر اليوناني إنما بدأت علي يد "سقراط" الذي يؤكد "أفلاطون" أنه أول من وضع أسس الفردانية، خاصة السياسية، وما ترتبط بها من كرامة ومن ديمقراطية حقيقتين ...أما قبل ذلك فإن دور الفردانية كان الخضوع للمدينة.

أما "أفلاطون" فقد نفي في النهاية، ومن خلال أهم ما يميز فكره الفلسفي [18] الفردانية، خاصة بالمعني المتعارف عليه...لا عند "سقراط"...بل وعند المفكرين المحدثين والمعاصرين.

وإذا كان "أفلاطون" قد اعترف بنوع محدد من الفردانية، فإن مثل تلك الفردانية لا تشترك مع المفهوم المتعارف عليه...اليوم، في أي شيء باستثناء الاستبداد(La tyrannie).

وكان يجب انتظار "السوفسطائيين" (Les Sophistes) لنعود للفردانية بعض المضامين المتعارف عليها لها اليوم.

إن نفس الموقف من الفردانية وقفه، تقريبا، الرومان.

ج. المسيحية و الفردانية: [19]

لقد تأثرت المسيحية ممثلة بصورة خاصة في كبار رموزها وذلك من أمثال "توماس الأكويني"(St. Th. d'Aquin) و "جيوم أوكام" (G. Occam) (1285ـ1349)،

[18] _Cf. Platon : La République, (devers éditions).
[19] _ L. Dumont : Revue, Esprit Paris, mars, 1975.

علي مثل هذا المفهوم اليوناني للفردانية ، ولكن لكي تؤكد فردانية دينية لم تلبث أن وضعتها تحت سلطتها المباشرة، التي أفقدت تلك الفردانية في النهاية كل جوهر ...لمثل تلك الفردانية.

إن هذا الموقف هو الذي ظل قائما ...حتى بداية العصور الحديثة التي نعلم جميعا أنها بدأت من خلال العديد من محاولات الإصلاح الديني (La réforme) ومن الثورات الدينية أو العلمية علي الكنيسة لوثر (Luther)...وكالفن (Calvin) وغاليلي (Galilée) وكوبرنيك (Copernic).

د. الإسلام و الفردانية:

إذا كانت الفردية قد ذابت لدي العرب الجاهلية، في القبيلة، فإن الإسلام جاء مؤكدا، بشكل أكثر...عمليا، الفردانية وحريتها و حقوقها و مسؤوليتها أمام الله أولا ،ــ وأمام المجتمع ، ثانيا، فإنه قد ربطها ...وربط نشاطها ...في النهاية بالمجتمع....ممثلا في الأمة ...التي اعتبر إجماعها ..نهجا، علي كل فرد مسلم الخضوع له وإتباعه.

وهكذا فإن المسؤولية عن أي فعل ، إذا كانت فردية أساسا، في الإسلام، فإن ذلك الفعل يجب أن يستهدف خدمة المجتمع في النهاية.

و لم تفعل المذاهب الفقهية والكلامية، خاصة الشافعية المنعزلة..سوي تأكيد هذه الفردانية...والتركيز علي حريتها في الاعتقاد وفي الفعل...وهي الحرية التي أكدها، بشكل مجمل، القرآن الكريم [20].

ه.الفردانية في العصور الحديثة:

يري البعض من الباحثين أن الفردانية، خاصة الفلسفية منها تبدأ بديكارت[21]...والكوجيتو (Le Cogito) و"كانط" وأخلاقه الفردانية [22] و"هيغل" الوعي الهادف إلي الخروج من ذاته وللتفاعل مع العالم [23] .

أما خصائصها المتمثلة أساسا في الحق في الحرية..، بمعناها السياسي والديمقراطية، والاقتصادي، الحق في التملك، أو الملكية الخاصة، إضافة إلي تحديد علاقاتها التعاقدية خاصة...بالدولة (L'Etat) التعاقدية انطلاقا من الإقرار بمثل تلك الحقوق، فإن من بين الأوائل الذين حاولوا تحديدها وتقنينها، "آدام سميث" و"بنتام" و"جيمس مل" (James Mill) (1773ـــ1836) و"جان جاك روسو" [24] (J.J. Rousseau) (1712ـــ1778) وغيرهم من رواد البراغماتية.

---

[20]ـــ سورة الكهف، آية 29.

[21] _Cf. R. Descartes : discours de la méthode, (divers éditions).

[22] _ E. Kant : Les fondements de la métaphysique des mœurs, 1758, (divers éditions).

[23] _Hegel : Phénoménologie de l'esprit.

[24] _J.J. Rousseau : Contrat Social, (divers éditions).

[25] _ Audard (C): Qu'est-ce que le libéralisme ? Ethique, politique, société, Gallimard, Paris, 2009,P, 269_290.

بذلك توطدت الفردانية التي لا تنفصل عن الليبرالية بتوطد هذا الأخير قي العديد من البلدان الأوروبية وتطورت من الرأسمالية لتأخذ في انجلترا طابعا أخلاقيا [25] (Libéralisme éthique) و في فرنسا طابعها جمهوريا (Libéralisme républicain) وفي الولايات المتحدة الأمريكية طابعا تقدميا [25] (Libéralisme progressiste).

إن مثل هذا الارتباط العضوي بين الليبرالية وبين الفردانية هو الذي كان وراء تطابق العديد من خصائص هذه الإيديولوجيا مع خصائص الفردانية...خاصة...علي مستوي الحرية (السياسية والاقتصادية والفردية كما سبق أن أشرنا)، وعلي مستوي علاقة هذه الفردانية بالدولة، وهي الخصائص التي تهمنا هنا...أكثر من غيرها.

II. متطلبات الفردانية:

1. الحرية و الفردانية:

إذا كانت الفردانية تشكل واحدة من الأسس الكبرى لكل من الليبرالية ومن البراغماتية، فإن النتائج، المفتوحة...لمثل هذه الفردانية هي الحرية..والديمقراطية...في معناهما السياسي أولا... والاقتصادي...والديني والأخلاقي بعد ذلك.

والحديث عن الحرية الفردية، أو الفردانية، يقودنا إلي جذور هذه الحرية، السياسية، وهي الجذور التي نشير فقط، إلي أنها تبدأ بالقطيعة مع الكنيسة، وذلك مما قد يعرف

بالإصلاح (La réforme)...وتنتهي بالنظريات الفلسفية...التي توالت بعد هذا الإصلاح ..ولا تزال ...تتوالي إلي اليوم، التي يمكن تلخيص محاورها في محورين: نظرية الحق القانوني أو السياسي الذي مثله "توماس هوبز" (Thomas Hobbes) (1588ـ1679)، وتسمي كذلك بالنظرية (Genassenschaft)[26] وذلك من خلال مقولته الأشهر "اللوفياتان" (Léviathan) و نظرية الحق الطبيعي (Le droit naturel) أو نظرية المونوقراطية (La théorie monocratique) (فرويد و جون جاك روسو) أي النظرية الجماعية الديمقراطية ...وذلك من خلال مؤلفه المعروف " العقد الاجتماعي" (Le contrat social).

وإن كانت نظرية الحق القانوني، أو السياسي، توصف بأنها نظرية استبدادية لأنها لا تري للفرد، أو للفردانية، من تقدم اجتماعي أو سياسي، إلا من خلال تقدم أو انبعاث الدولة و خضوعه (herrschaft) لها...أولا...لتشكيل حياته السياسية ولضمان أمنه، فإن نظرية العقد الاجتماعي، حول الفردانية ...وحول السلطة السياسية، أو الدولة، والعقد، أو التعاقد المولد لها، من خلال ما أسماه "روسو" بالإرادة العامة (La volonté générale) توصف بدورها بأنها إرادة مجردة، مثل مفاهيمها هذه، حيث أن الإنسان يولد عبر التاريخ، ومن خلال المجتمع المتواجد فيه، وليس عن طريق عقد...يسبق المجتمع..." لذلك فإن نظرية العقد هذه، لم تفرق، وكما يضيف البعض من نقادها، بين المجتمع وبين الدولة" [27].

نلاحظ أن مثل هذه الانتقادات للعديد من النظريات، الفلسفية خاصة للفردانية، وهي الانتقادات التي بدأها "جون لوك"، وواصلها "دوركايم"

(26) _L. Dumont : Revue Esprit, Essais sur L'individualisme, PP, 126_128.
(27) _E. Barker : Social Contract, London, Oxford University Press, 1947.

(Durkheim) (1858ـ1917) ، و يمثلها اليوم "جون راولز" (J.Rawls) (1921ـ2002)، وغيره هي التي ستكون وراء مولد حقوق الإنسان (Les droits de l'homme) من خلال الثورة الأمريكية، والثورة الفرنسية...ومن خلال الإعلان العالمي لحقوق الإنسان (1948)...وما شهدته، وتشهده هذه الحقوق من توسع وتطور.

إن النتيجة الأولي التي نخرج منها من مثل هذه المفاهيم المتعارضة، الفلسفية، والسياسية للفردانية، وللحرية الفردية...وللديمقراطية في مفهومها الليبرالي، و الليبرالي الجديد، السياسي منه والاقتصادي القانوني "أو السياسي"..، تفتح الباب علي مصراعيه أمام الطغيان...أو الاستبداد، السياسي منه والاقتصادي، الديني والأخلاقي، فإن نظرية "**الإرادة العامة"، أو "العقد الاجتماعي**" هي التي لاقت قبولا من طرف الليبرالية والليبراليين...، لا علي مستوي مقتضيات تلك الفردانية فحسب، وهي المقتضيات المتمثلة خاصة في الحرية...وفي الحق في الملكية الفردية، بل وعلي مستوي الدولة (L'état) كذلك التي لا تصور لحديث عن أي حرية في غيابها، نظرا لأنها هي المحددة أو المنظمة، كما نعلم، لمثل تلك الحريات بين الأفراد...وداخل المجتمع...والحامية مبدئيا لها كذلك.

2. الفردانية والدولة:

لأن الليبرالية....ذات مضمون براغماتي، كما سنري، أو عملي، فإنها لم تتوقف وكما يلاحظ بعض الباحثين [28] عند مجرد التنظير لمذهبها الاقتصادي والسياسي و الاجتماعي والأخلاقي، بل عملت، منذ بداياتها علي التجسد من خلال نظام

[28] _ G. Burdeau: L'état, PP, 121_122.

سياسي واجتماعي...كانت الدولة الليبرالية أبرز صورة له (État liberal) خاصة داخل أوروبا الغربية... وفي الولايات المتحدة الأمريكية.

وإذا كان أحد لا يجادل في مدي التأثير الذي أحدثته الليبرالية ودولتها هذه، خاصة منذ القرن التاسع عشر وإلي اليوم، فإنه لا أحد يجادل كذلك أن التقدم السياسي أو العلمي...والتقني و الاقتصادي و الاجتماعي الذي أحدثته الليبرالية ودولتها داخل المجتمعات الأوروبية العربية، ومن ضمنها المجتمع الأمريكي الشمالي، كانت له أيضا، أثاره الكبيرة علي التحولات التي شهدها الإنسانية... كلها.

وإذا كنا لن نتوقف كثيرا، عند مراحل تطور الليبرالية، وهي المراحل التي سبق لنا أشرنا إليها في الفصول السابقة من هذه الرسالة، فإننا نشير فقط إلي أن ذلك التطور قد تمحور أولا حول استعادة أو إفتكاك الحرية بمفهومها الليبرالي من الدولة، وهذا قبل أن تدخل بعد ذلك اليوم في مرحلة استغلال مثل تلك الحرية ضد نفس الدولة.

وهكذا فإن مرحلة استعادة، أو إفتكاك، الحرية إذا كانت قد وحدت الليبراليين حولها...وحول طروحات الليبرالية...فإن المرحلة الثانية قد تميزت بالاستغلال غير الموضوعي، بل وغير الإنساني لمثل هذه الحرية المستفادة، وبطغيان الأنانية (L'égoïsme)، والاستغلال (L'exploitation) للغير، وطغيان المادة...والسوق...

وقوانينه (La loi du marché)...كما تميزت كذلك بالمحافظة...وبالجمود القانوني والإنساني [29].

بذلك ولدت تحت ظلال الدولة الليبرالية وحريتها هذه حضارة العقد (La civilisation du contrat) و تفاقم الاستهلاك من أجل الاستهلاك... ودخلت الجماهير العربية في دوامة المديونية و الاضطرابات والبطالة...و انعدام الغطاء الصحي...إلخ، واستبدال منطق القانون بمنطق الإكراه (La contrainte) للفرد وللمجتمع علي حد سواء [29] هي الظواهر التي لم تزدها الأزمات المالية و الطاقوية العالمية، و مجموعات الضغط (Les groupes de pression) سوي حدة.

وبذلك فقدت تلك الجماهير كل معني لوجودها وغرقت في متاهات العدمية والعبثية والبأس ...و الانتحار...إلخ. وهي المأزق التي تحاول اليوم الخروج منها بالعودة إلي الدين [30].

من هنا...ذلك الرفض المتصاعد لليبرالية ولدولتها، لا من طرف الليبراليين...الذين لم تدفعهم هذه المآسي سوى إلي طلب المزيد من ابتعاد الدولة عن شؤون الاقتصاد والمجتمع، وإطلاق الحريات بصورة أكبر...، بل ومن طرف

(29) _Ibid.PP,136 _140.
(29) _ G. Burdeau : Le libéralisme, PP,146_157.
(30) _ Les religions, sujet d'avenir, journal le monde, Paris, 5 Mai2006.

الجماهير...التي لم تعد تري في الدولة الليبرالية حاميتها بل...المضادة لها ولمصالحها...الحيوية بوجودها ذاته.

3. محاولات التصحيح الاجتماعي والسياسي للفردانية ولمتطلباتها:

سبق أن أشرنا في الفصل الأول والثاني، من هذه الرسالة إلي النتائج الاجتماعية والسياسية...التي أفرزتها معاداة الليبراليين المستمرة لتدخل الدولة، خاصة في الشؤون الاقتصادية، وهي المعاداة التي تشترك لا شكليا منها مع الاشتراكية والماركسية (Le socialisme_ le marxisme) والتي أدت، إلي طغيان منطق السوق...وإلي اهتزاز الدولة...والشعب الممثلة لها اهتزازا، جعل أكبر دعاة الليبرالية، وذلك من أمثال "كيتر" (Keynes)...وغيره [31] يتخلون منذ بدايات القرن الماضي، العشرين عن العديد من المبادئ الأساسية، وفي مقدمتها المبدأ الرأسمالي المعروف "**دعه يمر...دعه يفعل**" (Laisser passer, laisser faire) (1924) وهو الموقف الذي لم تزده الأزمات الاقتصادية التي عرفها العالم بعد ذلك، من خلال أزمة 1929...وأزمة 2008 (الأسيوية) وغيرها من الأزمات الأخرى، إلا تبريرا وتصاعدا..

بذلك جاءت ردود الأفعال من طرف المفكرين، والفلاسفة خاصة ضد هذه الحرية الفردية، وضد هذه الديمقراطية المزيفة...والمفرغة من كل مضمون اجتماعي واقتصادي و سياسي.

---

[31] _ Catherine Audard : Le libéralisme,P,326.

وبذلك تحولت الليبرالية، من مصدر للسعادة، فيما اعتقد روادها الأوائل، وفي مقدمتهم "بنتام"...إلي مصدر للشقاء وللطغيان.

من هنا مطالبة العديد من أولئك المفكرين و الفلاسفة بإعادة بناء التضامن الوطني والإنساني (La solidarité) علي حد سواء، وذلك من خلال البحث عن شكل أو أشكال أكثر عدلا وإنسانية...وتعددية وأكثر تمثيلا للجماهير واحتراما لتنوعها الثقافي...وذلك من خلال إعادة النظر في الليبرالية ذاتها ممثلة في "يورغين هابرماس" و"جون راولز" و " ماشفيرون" (C.B Macpherson)، الديمقراطية التساهمية (La démocratie participative) للقضاء علي جنوحها الاقتصادي، والديمقراطية التشاورية (La démocratie deliberative) [32] ...للقضاء علي انحرافها السياسي.

إن مثل هذه الإعادة لبناء الليبرالية علي أسس أكثر إنسانية وأكبر ديمقراطية ...وحرية ومساواة...تمكن فضلا عن كنه ضروري، ذلك أن الليبرالية فيما يؤكد العديد من الباحثين التي عرفت دوما كيف تجدد نفسها وكيف تتكيف مع التحولات الاجتماعية...والسياسية سوف تعجز عن مثل هذه التعديلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية لها و لطروحاتها ...وصولا إلي تجسيد مثل تلك التعددية المتنوعة...التي شكلت دوما جوهرها...وهدفها [33].

[32] _Dictionnaire: le marxisme, (Lénine et l'Etat).

[33] _Ibid. PP, 674_696_717.

III. البراغماتية بين الفردانية والديمقراطية والدولة:

لأن البراغماتية تلتقي في أكثر من أطروحة مع الليبرالية خاصة الفردانية...والحرية، والديمقراطية، فإننا لن نطيل التوقف كثيرا عند مقاربتها لهذه الطروحات...

البراغماتية فلسفة، أو منهج فلسفي، تقوم علي الفردانية والحرية لأن البراغماتية ككل فلسفة، تقوم علي التساؤل...للواقع (Le questionnement) والتساؤل... عملية فردية...بقدر ماهي عملية تقوم علي الحرية في الشكل ومضمون مثل ذلك التساؤل حول الواقع [34].

ولأن البراغماتية فلسفة أمريكية، أساسا، وكما سبق أن أشرنا...في فصول هذه الرسالة، فإن طروحاتها حول الحقيقة والواقع المعبرة عنه، لدي من يتساءل حول ذلك الواقع، تربط بالتالي بالعديد من خصائص المجتمع الأمريكي خاصة تلك المتمثلة...في الفردانية والحرية، والديمقراطية .[35]

1. الفردانية والتعددية الفوضوية:

وإذا كانت مثل هذه الفردانية التي تميز المجتمع و العقلية الأمريكية طبيعية، فيما يري البعض من الباحثين، " حيث لا وجود لفواصل في أمريكا بين الطبقات ...تماما كما أن مكانة الفرد في المجتمع الأمريكي، لا يحددها ما قد هبط إليه من أسلافه من ثروة

(34) _ Catherine Audard : Le libéralisme, P, 735.
(35) _ Gérard Deledalle : La Philosophie Américaine, P, 13_16.

أو جاه، لأن المقياس الذي يعلو به الفرد، الأمريكي، أو يهبط، هو العمل...و ما أنتجه" [36].

وأن هذه الفردانية لتزداد تأكدا في هذه الفلسفة، أو المنهج البراغماتي، حينما نتذكر...أن المعرفة والحقيقة بالنسبة إليها، ذاتية ونسبية لأنها فردية...[37].

كذلك فإن هذه المعرفة والحقيقة، أو الحقائق، المفضية إليها، تدور حول محورين أساسيين، يلتقيان في النهاية عند نقطة واحدة، وهما مشكلة المعني و مشكلة الاعتقاد و ما يثيرانه من قضايا مرتبطة بهاذين المحور...وذلك الذي يمثل، خاصة لدي "بورس" (Peirce) معيار صحة الحقيقة، والعادة (Habitude) والقلق...إلخ. وكل هذه ظواهر فردية، أو فردانية.

وأخيرا فإن الحقيقة بالنسبة للبراغماتية يتضح طابعها الفردي في تأكيدها.. علي أنها هي ما ينجح أو علي أنها ما له أثر بالنسبة للباحث عنها.

وإذا كانت البراغماتية، خاصة براغماتية "بورس" قد هوجمت بشدة بدعوي أنها تنكر الحقيقة الموضوعية، تارة، وبأنها منهج فلسفي يدعي العلمية، ومناهضة الميتافيزيقا، ولكنه في النهاية منهج أو فلسفة ضد العلم، وفلسفة تصفي الحقيقة

---

[36] _Ibid.

[37]ــ زكي نجيب محمود: حياة الفكر في العالم الجديد،ص136ــ150.

لتنتهي إلي "الأنا وحدية"، فإن ذلك لا يغير من طروحاتها هذه حول الفردية أو الفردانية وحول متطلباتها...المتمثلة بصورة خاصة في الحرية والديمقراطية.

إن التعددية المتطرفة، تطرح أمام الأنانية (égoïsme) بالمعني الأنا وحدية، مذهب يرى، أن الكائنات التي تشكل العالم كائنات متعددة فردية حرة. ولا يجب اعتبارها وكأنها مجرد أنماط أو ظواهر لحقيقة وحيدة (monisme) أو مطلقة.

لقد طرح "توماس غرين" (Thomas Hill Green) (ت 1882) أفكار "جون ستوارت ميل" (John Stuart Mill) (1806ـ1873). ولكنه ذهب أكثر من ذلك، خاصة في إدانة لحرية التعاقدات والحرية الاقتصادية. كما أن أطروحاته حول الطبيعة الاجتماعية، التي تشمل حقوق الفرد (Droits individuels et collectivité) قريبة جدا، من أطروحات "دوركايم" الليبرالية التي يجب أن ترتبط في تجسيدها، لمجموعة من القيم المشتركة Le libéralisme comme ensemble de valeurs collectives . الذي كان معاصرا "لغرين" والذي اطلع علي "روسو" وأعجب به، مثلما اطلع علي الفلاسفة الألمان من أمثال "كانط" و "هيغل" و "هومبولدز" (Humboldt) (1767ـ1835) وهم الفلاسفة الذين حاولوا المصالحة بينهم وبين الإرث الليبرالي الإنجليزي و الإيكوسي.

فبالنسبة لكانط فإنه يرفض مذهب النفعية، الذي كان المذهب الأخلاقي المفضل لدي الليبرالية. ويؤكد علي العكس أن الرابطة الاجتماعية ، التي لا تتولد لا من عقد كما ذهب "لوك" ،ولا من المنفعة كما ذهب "بنتام" ولكنها تتولد من الاعتراف من

طرف كل واحد لشخصية الآخر (لا اجتماعية الاجتماعية)(L'Insociable sociabilité) باعتبارها، هدف لذاته وباعتبار مصالحها مصالح فردية لكل واحد.

نعود لغرين ولنظرته حول الفردانية التي سادت في القرن السابع عشر، ليستبدلها بنظرة مستوحاة من "ميل"، أي بفردانية تتطور وتتحسسن بفضل الإسهام المستمر للآخرين، الذين يؤسسون بذلك حق الفرد أمام..أو اتجاه المجتمع، الذي عليه أن يساعده في تحقيق أهدافه ومصالحه وذاته تحقيقا يتمثل أساسا في الرفاهية، وفي التقدم بالنسبة للجميع . فبعد "أرسطو" و "هيغل"، يطالب "غرين" ويطرح الخير المشترك الذي، هو عبارة عن تداخل بين المصالح الفردية والمصلحة الجماعية ويحول هذا الخير المشترك أو المصلحة المشتركة إلي أساس في الأخلاق أو الالتزام السياسي.

ولأن "جون راولز" (John Rawls)، يعتبر من بين من أسهم من خلال كتابه الشهير "نظرية العدالة" (Théorie de la Justice) من محاولة توفيقه بين كل من الحرية، العدالة والمساواة. وذلك غرض تليين وتلطيف جموحها بما يتلاءم مع المبادئ الأخلاقية للعدالة والإنصاف (Equité) [38] .

إلا أن "غرين" كان مصدرا للتجديد، في أربع مجالات في برنامجه الليبرالي:

1 ــ إنه يميز بصفة جذرية، بين الحرية السلبية، التي كانت سمة الليبرالية القديمة (Le vieux libéralisme)، وبين الحرية المرتبطة بالحقوق الفردية، من جهة، وبين

(38) ــ محمد هاشمي، في مفهوم العدالة عند "جون راولز"، مجلة مدارات فلسفية، الجمعية الفلسفية المغربية، 2002، العدد، 18.

الحرية الإيجابية لليبرالية الجديدة. ليبرالية الحقوق والوسائل الاجتماعية والاقتصادية، التي يجب علي كل مجتمع أن تمدها، للفرد لتمكنه من تطوير إمكانياته.وهذا عكس "راولز" الذي سعى جاهدا نحو خلق نوع من التوازنات الجديدة بين الحرية والمساواة على قواعد أخلاقية للعدالة كإنصاف (La justice comme équité).

هكذا فتح "غرين" نقاش بين الحرية الايجابية، والحرية السلبية. وهو النقاش الذي أصبح المركزية بالنسبة لليبرالية في القرن العشرين. والذي أدي إلي موقف دفاعي، عن الحرية السلبية من طرف "فريدريك هايك" (Friedrich Hayek) (ت 1992) ليحول بذلك، "روبرت نوزيك" (Robert Nozick) (ولد في 1938ـــ؟) فكرته حول الفردانية، التي ترمي إلي ضرورة التصغير من وظيفة الدولة (La théorie de l'Etat minimal) من جهة التدخل.

2 ـ أنه يلخص الطبيعة الاجتماعية للفرد، الذي يتوقف تطوره علي علاقاته بالآخرين، وبالمجتمع قبل أن ينتقد الليبرالية الاقتصادية، ويستبدلها .بمفهوم أكثر غناءا وتطورا وديناميةللفرد، باعتباره عملية تفاعل بين مختلف عوامل الرفاهية والذي تشكل قيمة مركزية لليبرالية.

لقد طور "مل" مفهوما جديدا للفرد مستوحا كثيرا من مفهوم هيغل .

3 ـ إن التعددية، باعتبارها مذهبا فلسفيا، يحرم أو يمنع البحث عن الوحدة وعن القوانين العالمية أو الكونية. لأنه يري في هذا العالم لا يوجد ،وكما سبق أن أشرنا، إلا كائنات فردية ومتعددة.

وذلك ما أكده قاموس "لالاند" الفلسفي، الذي عرف التعددية، بأنها مذهب يري، أن الكائنات المكونة للعالم، متعددة، فردية، وحرة، ولا يجب اعتبارها بالتالي مجرد أنماط لظواهر تتصل موضوعاتها بحقائق وحيدة ومطلقة.

وهي مذهب ينطلق، من فكرة، مفادها أن الموجودات التي تركب بطبيعتها العالم، هي متعددة (Multiples)، واحدة (Individuels)ومستقلة (Indépendants)، و هي التي لا يمكن اعتبارها كذلك، علي أنها تشكل أنواعا بسيطة أو كظواهر لوقائع واحدة أو متفردة وكلية.

بذلك كانت فلسفة التعددية مضادة لفلسفة الواحدية (Monisme)، لأنها رأت أن الآخرية (L'altérité)، والتعددية، و الاختلاف (La diversité)، والانقطاع(La discontinuité)، تظل عملية، تجسد بمفاهيمها الكلمة الأخيرة في الحياة وفي النظام العلمي وفي الهوية...إلخ.

إن الديمقراطية، هي الاعتقاد في إمكانية التجربة الإنسانية، أن تولد أهداف ومناهج تصبح بفضلها التجارب السابقة، قابلة للتطور وللغناء المنظم. وذلك فإن كل شكل من أشكال الاعتقاد الأخرى، إنما يستند إلي الفكرة التي تقول، أن التجربة يجب أن تكون خاضعة، بطريقة أو بأخرى إلي التحقق الخارجي، أي إلي سلطة يفترض أنها خارج هذه التجربة.

إن الديمقراطية يعتقد أنها العملية التجريبية، أهم من كل النتائج الخاصة التي يمكن أن نصل إليها، والتي ليس لها من قيمة في النهاية، إلا في إطار استعمال تلك النتائج، لإثراء ولتنظيم ولمواصلة هذه العملية عملية الديمقراطية والاعتقاد.

إن الحركة التجريبية، قد ولدت في شيكاغو، بتأثر براغماتيين هم "جون ديوي" "وجورج هربرت ميد" (G.H.Mead) (1863ـــ1931)، الذي كان متأثرا بشدة بوضعية "كونت" وبنظرية "سبنسر" وبالمذهب الإنساني لستوارت ميل.

إن الليبرالية، تشمل ميدانا فلسفيا شاسعا، يمتد من، الليبرالية الكلاسيكية إلي الليبرالية الفوضوية (L'anarcho-_libéralisme)، إنها مضادة للتوليتارية وللدولنة.

إن الليبرالية فردانية تؤكد أولوية الفرد علي المجتمع وسيادته وترفض سيادة الدولة عليه كما تؤكد فاعلية الفردانية باعتبارها تؤكد أحد ركائز الليبرالية المعاصرة.

و تلتقي فردانية البراغماتية، مع المذهب المحافظ ،وهي التي تري، أن الناس محكومين دوما بصورة مبالغ فيها وأن المثل السياسي، يجب أن يكون، تطور المبادرة الخاصة المتعلقة بالأفراد وتقليص وظائف الدولة، وحصرها في مواضيع محددة، وذلك هو موقف "سبنسر" مثلا. إن لم تطالب بحذف هذه الوظائف أصلا.

هكذا تلتقي الفردانية والفوضوية في مضادهما للتقليد، ذلك أنهم يرون أن الواقع هو ما يتم تشكله، من خلال مناقشة الناس وسط المجتمع له و لمؤسساته والممارسات والاعتقادات المختلفة المجسدة له، وليس التقيد بدون نقد بالواقع الموجود.

من هنا فإن **الفردانية، تعني أيضا، نظرية تري أن المجتمع ليس هدفا في حد ذاته، كما أنه، ليس أداة لمثل هذا الهدف الأعلى بالنسبة للأفراد الذين يكونونه، بل إن موضوعه ليس سوي غير هؤلاء الأفراد الذين يشكلون الحقيقة.**

إن معني "الميليوغيزم" (Méliorisme)، أو الأفضلية، في الولايات المتحدة الأمريكية، **الذي يمثل معارضة لكل من التفاؤل ومن التشاؤم ويشكل بالتالي، مذهبا يري أن العالم يمكن أن يكون أفضل مما هو عليه بفضل جهود الإنسان، الذي يستطيع أن يبين أن العالم الذي يتواجد فيه والذي يشكل صورة لمعتقداتنا و عاداتنا، ليس مثالا لا للشر و لا للخير الممكنين بل ظاهرة في طريق التحسن والتكامل .**

ولكي نستعيد فهم جينيالوجيا **الديمقراطية والليبرالية الجديدة والتعددية،** فإنه يجب علينا أن نعود إلي الفلسفة اليونانية الذين كان فلاسفتهم أول من قال بالتعددية هو تساؤل حول طروحات "بارمنيدس" (Parménide) المتعلقة **بعلاقة الواحد والمتعدد (L'un et le multiple)**.

إن التعددية تتمثل أساسا في البحث عن تفسير لكلمة التعددية.

وهنا نجد تفاسير كثيرة قد تطورت حول هذا الموضوع، علي أنها التعددية والتعدديين يظلون يرون أن الديمقراطية هي ما يمكن اعتبارها نظرية المجتمع الأمريكي الأصيل والأول، والتي تري أنه لا توجد حقيقة مطلقة، بل الحقيقة هي تلك التي تتولد عن تفاعل وتضاد المصالح وعن النقاش العقلاني الحر.

في الولايات المتحدة الأمريكية شكلت التعددية السياسية، القائمة علي توزيع السلطة علي إمكانية المجموعات المختلفة للأفراد عن التساؤل عن مشاكل الديمقراطية وعن قضاياها، هذه السياسية تعتبر أن السلطة يمكن أن تكون، لكي تكون ديمقراطية يجب أن تخضع **لتجربة التنافس** بالدرجة الأولي بالمنفعة أو بالمصلحة وهي تجعل الطغاة والمضادين للديمقراطية، بل إن ما يهمها هو أن تكون السلطة خاضعة لتنافس أكبر قدر من المجموعات ذات المصالح المختلفة.

ففي أمريكا إن سيادة الشعب ليست قضية سرية أو غير ذات فائدة، مثلما هو الحال بالنسبة لبعض الأمم والشعوب لأنها معترف بها من طرف الجميع ومؤكدة من طرف القوانين وممتدة لكل مجالات الحياة الأمريكية... ولذلك جعل "ديوي" يقول بعد "انجلز" "أن ترجمة الفلسفة المجردة إلي أثر عملي ملموس أمر ضروري".

إن الليبرالية الجديدة كانت بداية أيضا للتحقيق مشروع جديد في الولايات المتحدة الأمريكية، كما تؤكد ذلك التطبيقات السلمية للبراغماتية وللتجريبية في داخل الثقافة الأمريكية.

فبالنسبة "لبيرس" فإن حقيقة أي مفهوم عن أي شيء إنما يكمن في المصطلح المثالي للبحث الذي هو مشروع نقوم به اتجاه ذلك الشيء.

إن الحقيقة غيبية، ويجب البحث عنها لتبرير الاعتقاد المتولد عنها والأفعال العملية المتولدة عن ذلك الاعتقاد وبدوره.

وذلك يثبت أن النظم أو النسق الفلسفي ليست متطابقة دوما مع الواقع، كما تؤكد ذلك العديد من المعتقدات الفلسفية الفاسدة وغير الصحيحة.

لقد كان البراغماتيون من الأوائل الذين شكلوا أسئلة سياسية في صيغة المجموعات الضاغطة (groupes de Pressions)، مولدين بذلك تكافؤا أو معادلا للتعددية، وللمفاهيم الماركسية للصراعات كذلك.

ويبدو انه يجب أن نلاحظ أن التطبيقات السلمية للبراغماتية و للتجريبية في الثقافة الأمريكية، أو معني هذا الفكر السياسي الأمريكي، بدون فهم الأفكار الفلسفية التي أسست له والتي كانت قائمة علي الفردانية والحرية اللتين تعتبرين النتائج المباشرة لمجتمع ديمقراطي .

فالفردانية تقترح نظرة للمجتمع، مستندة أساسا إلي دور المنفعة و الربح التي قال "هربرت سبنسر" أنه يريد إصلاح نظام المحاسبة ونظام التقدم الإنساني العالمي من خلالها.

إنما يعلمه لنا، تاريخ أمريكا أو الفلسفة الأمريكية يمثل بالنسبة لنا، هذه الحقيقة التي تحتوي أو تتضمن أنماطا قديمة للتفكير والتي ترى أن الحقائق الخاصة المتعلقة

بالأخلاق و بأفكارنا ليست حقائق ثابتة، فالحقيقة بحد ذاتها لا تعرف الخطأ كما يقول "أفلاطون "ولكننا فكرتنا عنها هي التي تتعرض لمثل ذلك الخطأ.

إن الحقيقة تتطور مثل تطور الداروينية، فهي تتطور بتطور الأشياء لأنها متجهة نحو المستقبل .

ومن هنا لسنا في حاجة إلي أن نكون براغماتيين لكي ندعم مبدأ العقل ومبدأ التجربة وإنما يجب أن نكون أبناء زمننا.

إن البراغماتية تقودنا عبر مشكلة الحقيقة وعلاقتها بالواقع، ذلك الواقع الذي لا يمكن أن تتطور بدون أن يؤدي ذلك إلي تطور الحقيقة.

إن الفرد كحقيقة عالمية كونية بالنسبة للفلسفة الأمريكية يجب أن تتخذه كل الفلسفات وكل التيارات الاقتصادية والسياسية كمرجع لها.

إن الأمريكيين قد تفهموا أن يقبلوا كحقيقة لا تقبل المناقشة، تلك الفكرة الديكارتية، التي تقول، أن كل جيل يبني أو يعيد بناء معبد المعارف بالنسبة إليه عن طريق الفردانية وأمريكا واحدة من بلدان العالم التي لا يدرس فيها ديكارت إلا قليلا وإنما تتماشي مع خطوات أفكار البداهة والشك والتميز.

وهذا ما أكده "توماس جيفرسن" (Thomas Jefferson) (1743ـ1826)قائلا:

" إنني أعتقد أن الوقت قد حان بالنسبة لأمريكا لتعلن استقلالها الفلسفي إنها عليها أن تطلب من فلسفتها أن تعكس طبيعتها الأصيلة عليها أن تبحث عن فلسفة أمريكا حقيقية تعكس عبقرية هذا الشعب وواقعه".

لقد كانت البراغماتية، " دارونية" الفكر، والأسلوب، والمترع وقد يفهم تأثير البراغماتية اليوم، أنها نظرية سوسيوداروينية جديدة، و الحقيقة الليبرالية التي حولت البراغماتية إلي رأسمالية فردانية (individualisme) أو مبدأ الكثرة (pluralisme) ضد تعسف سلطة الوحدة أو الشمولية المذهبية (Idée-force) المتطاولة علي حقوق الأفراد في الحريات. .، ومن الجانب الإيديولوجي، فقد نجدها قد استلهمت المبادئ الداروينية في توفيقها بين العلم و الفلسفة و السياسة، لأن الحقيقة تتبع في الفلسفة الأمريكية الاعتقاد الفردي.

تلجأ الليبرالية إلي جعل المجتمع في شكل إنتاج أفراد، لتضع له طرقا وأساليب تلقائية تصل بمصالح الأفراد المكونين لها(Jeu d'intérêts) للسعي وراء تحقيق أكبر قدر من المصالح. فقد كرست جانبا كبيرا للدفاع عن المذهب الاقتصادي الفردي (أي الحر) وللهجوم علي "المصلحين الإنسانيين" الذين رغبوا في وضع حد لمذهب تنازع البقاء " الدروبني" بهدف حماية الضعفاء، و مهضومي الحقوق، في المجتمع. وبالتالي، فإن سلطة الأغلبية قد اتجهت إلي تأكيد موقفها ضد المغالاة في حقوق الملكية الفردية، وأيضا ضد المغالاة في مبدأ "دعه يعمل" (أو مبدأ الحرية الاقتصادية المطلقة)، إلا أن مفهوم الليبرالية، إنما يقوم أساسا علي مبدأي: حماية الفرد "وكذا ملكه الخاص"، ثم تشجيع قيام ذلك المجتمع الذي يعتنق نظام السوق الحرة. إن هذا المفهوم الرائد للديمقراطية التي يمكن تسميتها، في هذه الحالة، باسم: الديمقراطية الحامية أو الواقية.

ولقد رأي "آدام سميث"، بدوره أن الرأسمالية هي طريقة للحياة بنيت علي أساس التزامات تعاقدية من ناحية، وعلي العنصر العقلاني الذي ينطوي عليه مفهوم التعاقد، ومن ثم، رأي واضعو الدستور الأمريكي أن الحرية، ماهي إلا امتداد لطبيعة هذا **المجتمع التعاقدي** وحرية الفرد مكفولة في مجال التعاقد.

يلجأ "جون ستوارت مل" بذلك لدعوته إلي إقامة نوع من الأخلاق النفعية، (Ethique de l'utilité) المستمدة من الطبيعة، تبقي فكرة "مل" حول الحرية تشكل في نظره شيئا إيجابيا، لأنها تبقي في نظره تدفع بالأفراد إلي البحث عن مصالح جديدة ومتغيرة بتغير طرق و أساليب العمل الذي لا يخلو من بذل الجهود الفكرية والعملية في الوصول إليها، بذلك تحصل الأفراد ومن ضمنه المجتمع علي الحرية ليحولها إلي أسلوب جديد في التقدم الخلاق (Le progrès inventif) وبذلك أيضا تتحول الحرية إلي ملكة جديدة في النضج الفردي السياسي والفكري والعلمي والثقافي و التاريخي...إلخ.

و تقوية الفكر كما يقول "جون ستوارت مل" هي عضلاته وفي سلوكه، فهي تقوي مثلما تضعف وتتضاءل، فيما أراد المجتمع العمل علي تقويتها بتمرينها علي التفكير الخلاق الحر، دون أن نشترط عليها أو نضعها تحت ضغط في ما تفعل أو لاتفعل (quoi faire et quoi na pas faire)، فالإنسانية تفرض أن نترك الأفراد وشأنهم أحرارا فيما يقولون و فيما يفكرون، بمقدار ما لم تحمل أفكارهم هذه أضرارا علي استتباب الأمن الداخلي أو التشكيك في نزاهة ما يفكرون به.

فإن تداخل هيمنة الدولة علي تطلعات كل فرد في قيادة السلطة بإرادته وحريته الذي تكون الأجدر بذلك حرة وغير منساقة وراء إرادة الدولة في ممارسة ضغطها وتعسفها ، تبقي سلطة من هم في السلطة كالرأي العام و المجتمع والآخر تبقي هذه السلطة غير شرعية إذا امتدت أياديها حدود سلطة الفرد لتقمع حريته.

بذلك تتجه نظرية "مل" للعمل علي تشجيع المبادرات الفردية، واللجوء نحو الطبيعة التي نستمد من خلالها هذه المبادرات، وهو الإبداع الذي يتجه إلي تجسيد ما يسمي بالديمقراطية التمثيلية (La démocratie représentative)، كأفضل صورة لها في ممارسة هذه السيادة الفعلية، وهي الفكرة التي ظهرت في مؤلفه الشهير نظرة حول السلطة التمثيلية والذي نشرت سنة 1861 .

يقول "بنتام" من أبطال الفردانية الحديثة:"كان "لوك"... ينسي أنه لم يكن راشدا حين أتي إلي العالم، ففي نظره يأتي البشر إلي العالم أسوياء تماما ومسلحين بكل شيء وتبقي أهداف "هوبز" فردية النزعة ودولة "هوبز" تختلف كثيرا عن فكرة الدولة الشمولية فإننا نري أن دولة السلطة المطلقة تبقي تشكل خطرا آنيا ومستقبليا علي الفرد وعلي حريته" [39].

إن المسافة التي تفصل "هوبس" عن "روح 1776" وعن الديمقراطية الليبرالية الحديثة قصيرة جدا. كان "هوبس" يؤمن بالملكية المطلقة، ليس لإيمانه بحق الملوك الإلهي بالحكم، وإنما لأنه كان يعتقد أن الملك يمكن أن يستحوذ علي ما يشبه الرضي الشعبي. وبحسب اعتقاده، لا يتم الحصول علي رضا المحكومين ....فالضعف

[39] Cf. Dumont (L) : Essais sur l’individualisme.

فيما يري "هوبس" يكمن بالمقابل في اتجاه الملوك إلي الانزلاق بمرونة نحو الاستبداد بلا رقابة، ودون أوالية دستورية ، بهذه أصبح من السهل علي "جون لوك" أن يحول نظرية سيادة الملكية بحسب" هوبس" باتجاه السيادة البرلمانية إن الرجوع "للوفياتان" هو هنا أمر مشروع، والرسم الموري للكبرياء لا يجعله، يستسلم في شيء لرغبة السيطرة، لرغبة القوة التي لا نهاية لها، والتي تعرف بحسب "هوبس" **بالكبرياء ، إن الكبرياء، أو عزة النفس، (Orgueil _la Fierté) ملكة وأم كل الشرور.**

و"هوبس" كما أكد "فوكوياما"، في كتابه "نهاية التاريخ" كان يعتبر أن السلطة المطلقة أو "الليفيتان" هي حل لصراع الجميع ضد الجميع المميز ل"الحالة الطبيعية"، لكنها أيضا "حل " لحالة المساواة، دون دولة، نحن متساوون، لكننا متحاربون. بالدولة نكف عن الحرب بثمن التراتب واللامساواة بيننا" [40].

فإن جذور الدستور الأمريكي متأثرة بشكل عميق، إن لم نقل كليا بأفكار "جون لوك". إن الحقائق البديهية "لتوماس جيفرسن " حول حق الناس في الحياة، في الحرية وفي البحث عن السعادة ليست مختلفة أساسا عن الحقوق الطبيعية في الحياة والملكية كما عند "لوك". فالآباء المؤسسون لأمريكا كانوا يعتقدون أن الأمريكيين يملكون

[40]_ فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ والإنسان الأخير، ترجمة ومراجعة مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي ،بيروت،1993

هذه الحقوق باعتبارهم كائنات إنسانية، قبل إقامة أية سلطة سياسية عليهم، وأن هدف الحكومة الأول كان حماية هذه الحقوق.

فالمصدر الوحيد لشرعية الدولة، هو قدرتها علي حماية هذه الحقوق التي يملكها الأفراد ككائنات إنسانية، والمحافظة عليها. والحق الأساسي للناس بالنسبة لهوبس هو الحق في الحياة، أي الحق في المحافظة علي الوجود المادي لكل إنسان، والحكم الشرعي الوحيد هو الحكم الذي يستطيع حماية هذه الحياة بشكل كامل متلافيا العودة إلي حرب الجميع ضد الجميع

حيث أن في ظهور الحياة الاجتماعية أولوية للفرد قبل مجيء الدولة، التي يجب أن تقوم علي الحفاظ عليه من خطر الموت كما يقول"هوبز"، إن هذا ما تعكسه طبيعة البشر علي عدم التعايش و التي تفرض حضور الدولة، ولكن "لوك" يفضل تنازل كل فرد عن جزء من حريته المطلقة [41].

علي الرغم من النقد الشديد الذي يوجه "ستيوارت ميل" للتصورات التقليدية التي توازي بين" الحرية" و"الفوضى" وبين "المصلحة" و"الأنانية" وبين" فردية" و"اعتزال المجتمع"، وعلي الرغم من رفضه للديمقراطية الحديثة التي يعتبرها "ديكتاتورية الأغلبية"، فإنه في مقابل ذلك يستميت في الدفاع عن الفردية باعتبارها حرية أساسية وأساس للتقدم. وهو إذ يرفض الديمقراطية المزيفة ينظر في المقابل للديمقراطية الحقيقية التي تضمن حرية كل الأفراد وتحقق له تمثيلية أكبر.

[41]_ أنظر: نفس المرجع.

إن الفردية التي يؤسس لها "جون ستيوارت مل" ليست هي "المونـاد المتقوقعة حول ذاتها" التي ينتقدها "ماركس" ولا هي ال"أتركه يعمل" التي ينظر لها "الفيزيوقراطيون" و "آدام سميث". إنها تعني أساسا "إبداعية خلاقة"، إنها "الخيار الوحيد للتطور التاريخي" فالفردية بهذا المعني ليست وحدة أو جوهرا معزولا بل هي مكونة من مكونات الشبكة الاجتماعية والتاريخية ولكنها مكونة أساسية وفاعلة.

إن "ستيوارت ميل" واع تمام الوعي بخطورة الخلط بين تصوره للفردية المسؤولة الاجتماعية والمشاركة وبين التصور السائد للفردانية الأنانية والعدمية.

إن وثيقة إعلان الاستقلال الأمريكي تؤكد أن "جميع الناس ولدوا متساوين"، وربما لأن خالقهم زودهم بحقوق معينة غير قابلة للتصرف. لقد ركز "هوبس" و"لوك" إيمانهما بمساواة في الهبات الطبيعية: فالأول يقول إن البشر متساوون لأنهم جميعا قادرون علي الاقتتال فيما بينهم، بينما كان الثاني يظهر مساواة ملكاتهم. ولكن "لوك" يشير إلي أن الأولاد ليسوا مساوين لذويهم، وهو يعتقد مثل "ماديسون" (Madison)(ت 1836) أن جميع الناس لا يملكون الإمكانيات نفسها للحصول علي الملكيات. فالمساواة في الدولة بحسب" لوك" تعني إذا علي وجه التقريب المساواة في الحظوظ.

يوجد عند "ستيوارت مل" نوع من الازدواجية أو عدم التناسق، فهو أي "مل" من خلال نقده للراديكالية السياسية ينتهي إلي نوع آخر من الراديكالية الفوضوية التي تجعل من حرية الفرد الغاية الوحيدة للسياسة الاجتماعية. وطبعا، فإننا نعتبر ما ذهب إليه مناقضا تماما لنصوص "مل" العديدة التي تربط الفردية بتنمية المجتمع وتحقيق سعادته والتي تميز بين الفردية (L'individualité) والفردانية الأنانية (Individualisme).

يطرح راولز نظرية العدالة بما هي انصاف ويؤسسها على مبدئي التوحيد والتفريق:

أ- كل الناس أحرار (الحرية) ولهم الحق في النسق الموسع للحريات الأساسية بالتساواي (المساواة).

ب- من الطبيعي أن تنتج عن هذا النسق الموسع للحريات فوارق اجتماعية واقتصادية هائلة بين الناس.

فمن مرتكزات الديمقراطية الليبرالية ألا تطغي الأغلبية علي الأقلية أو ما يسميه "ألكسيس دي توكفيل" بالاستبداد الحديث (Tyrannie moderne) كما تفضل الليبرالية الديمقراطية المباشرة و الدستور علسى سيادة الشعب والحقوق_ الحريات علي الحقوق و الواجبات ولكن راولز في نفس الوقت لايقبل الفوارق الناجمة عن توسيع النظام العام للحريات الأساسية. فالفوارق المقبولة والمستساغة أو المسموح بها "Tolérables" هي تلك التي في مصلحة الجميع، وما الظلم أو الجور (Injustice)

في الحقيقة سوى تلك الفوارق التي لا تعود بالفضل على الجميع أي تلك التي تفيد البعض دون البعض الآخر.

ومع ذلك يظل راولز فيلسوفا ليبراليا، فهو يَسْتَسْوِغُ اللامساواة لأنها ثمن الحرية، حتى وإن كان يشرطها بمصلحة الجميع. من غير المعقول انتزاع ما يعود إلى المحظوظين الأكثر إنتاجا ومنحه للمحرومين الأقل إنتاجا لأن في نهاية المطاف لن يوجد ما يمكن اقتسامه أو توزيعه، فالأكثر إنتاجا سيصبحون أقل إنتاجا، وهذا نقد مبطن للإشتراكية والشيوعية، لا يمكن التفريط في الحرية من أجل المساواة مهما كانت الدواعي والمبررات. فاللامساواة هي الثمن الذي يتوجب دفعه لنيل الحرية والحيلولة دون الإنزلاق إلى التوتاليتارية. يفضل راولز أن يوجَد ضحايا في النظام الليبرالي على أن تصادر الحريات في الأنظمة التوتاليتارية [42].

بذلك تصبح المساواة أمام القانون (المساواة الشكلية) هي النوع الوحيد من المساواة التي يمكن الحصول عليها دون التضحية بالحرية وبكلمات أخري، هناك صراع وتعارض بين الحرية والمساواة أمام القانون من ناحية وبين"المساواة المادية" من الناحية الأخرى. وعلي حد قول أحد الليبراليين الرأسماليين المتطرفين، فإن "المساواة أمام القانون والمساواة المادية ليستا فقط مختلفين وإنما متصارعتان أيضا. وإن كان يمكن الحصول علي الواحدة دون الأخرى، فإنه لا يمكن الحصول علي كلتيهما معا.

[42]_ أنظر: محمد هاشمي، في مفهوم العدالة عند "جون راولز"، مجلة مدارات فلسفية، الجمعية الفلسفية المغربية،2002، العدد18.

إن المساواة أمام القانون، والتي تتطلبها الحرية، تؤدي (بالضرورة) إلي عدم المساواة المادية"

إن الملاحظة التي تطرح نفسها هنا هي أن المساواة المادية هي مسالة قابلة للتدرج: هناك مساواة أقل مثلما هناك مساواة أكثر وهي أيضا مسألة ذات طابع مقارن ، والسؤال المهم هنا هو: إلي أي حد، بأي طرق، وحسب أية مبادئ يمكن الحصول علي أكبر قدر من المساواة المادية مع الإبقاء علي أكبر قدر من الحرية المتساوية، الحرية، كما ذكرت سابقا، ليست مطلقة، والمساواة البسيطة (التوسيع المتساوي للخيرات المادية والاجتماعية)
مستحيلة حتى في حالة سيطرة الدولة علي وسائل الإنتاج و التوزيع المتساوي الآن يخلق بالضرورة وضعا غير متساو لاحقا، وذلك نظرا للتفاوت في قدرات الأفراد، مواهبهم، أولوياتهم، وسوء أو حسن حظهم. إن مبادئ كالتي وضعها "جون راولز" (John Rawls) يشلان عدالة توزيع الخيرات الاقتصادية والاجتماعية جديرة بالاهتمام، وبخاصة "مبدأ الاختلاف" (Principe de la différence) الذي ينص علي ما يلي:" يجب ترتيب عدم المساواة في توزيع الخيرات الاجتماعية والاقتصادية بحيث يكون الأمر:أ) لما فيه أكبر الفائدة للأقل انتفاعا. ب) مرتبطا بدوائر ومراكز مفتوحة أمام الجميع في ظل أحوال مساواة منصفة في الفرص" [43] .

[43]- Cf. Rawls (J) : Théorie de la justice, édit. Du Seuil, Paris, 1971.

وهناك ما يوحي بأن الحرية والمساواة المادية ليستا متصارعتين بقدر ما هما مترابطان، وأن الواحدة منهما تتطلب الأخرى، فالأسباب التي تبرر حق الناس في الحرية والمساواة أمام القانون (المساواة الشكلية) هي الأسباب نفسها التي تبرر حق الناس في سن القوانين التي تخدم الحرية والمساواة المادية معا. وفي المقابل، فإن الحرية والمساواة أمام القانون تظلان في خطر غياب المساواة المادية. وهناك من المنظرين من يذهب بعيدا في الدعوة إلي دمج المفهومين المترابطين(الحرية المساواة) في مفهوم مركب واحد هو"الحرية ـــ والمساواة" أو "الحريات المتساوية".

هذا العقد الاجتماعي الذي ينطلق من فكرة تحقيق مكاسب متساوية أما فيما يخص هذه الحريات، باعتبارها حقوقا يجب أن يحوز عليها الجميع ، فإنها تهدف أساسا إلي حماية الفرد من تجاوزات الأفراد الآخرين، وكذا حمايته من عنف النظام السياسي الذي يستبيح لتعسف الأكثرية التي تمثل المجتمع والذي لا يجد حريته سوي قتل حريات الآخرين ولأهوائه تعسف لا يقبل في نهاية لحياة دون تبعيتها لسلطة الآخر.

سلطة من حقها الدفاع عن مكتسباتها القانونية. بهذا يكون مبدأ فصل السلطات مسألة تقسيم وتوضيح المفاهيم بين أعضاء الدولة، والأخرى التي تتصف بالواحدية و هو الاتجاه الذي أخذته فلسفات الأنوار.

فالخطر فيما يري "ماكس فيبر" يبقي بذلك كون أن أفكار الأكثرية يمكن أن تهدد عمل الأقلية منها. علي أن المساواة الاقتصادية التي تنجم عن حكم الأغلبية وطغيان ميولها في التأثير علي الأقلية قد تنجم عنها وبسهولة تهديدا للحريات والتي تمثل في الدستور الأمريكي جزءا من الاعتراف بالسعي والنشاط نحو الثروة وتحقيق الملكية الخاصة ، فالأغلبية في إمكانها استخدام القوة السياسية في إعادة توزيع الملكية والأشكال الأخرى للثروة، وعلي هذا النحو، يتسنى للأغلبية استخدام القوة السياسية للحصول علي السلع والخدمات التي قد لا يحصل عليها معظم الأفراد المجتمع فإن الدستور أريد استعماله الأغلبية في دوس الأقلية بخشونة وقسوة وبالنسبة لأولئك الذين يعتبرون الثروة حقا من الحقوق، فإن أي محاولة لإعادة توزيع تلك الثروة في المجتمع ، عن طريق العمل السياسي، سوف ينظر إليها كأسلوب من أساليب الطغيان والضغط الذي تمارسه الأغلبية...

إن الدستور الأمريكي يضع الملكية الخاصة في ظل أعلي حماية يمكن إدراكها ومن من ثم فقد خلق "المجتمع الأول" في العالم الذي يقوم علي أساس اقتصاديات السوق الحرة...وبتقديم رؤية مفصلة لمفهوم الحرية، باعتبارها أنها حرية الإنسان في سعيه من أجل تحقيق أكبر قدر ممكن من مصالحه الخاصة.

فإن الدولة الناجمة عن هذه الاعتبارات كافة، قد أدمجت في صلب دستورها سلسلة من الترتيبات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، يمكن وصفها باسم الرأسمالية السياسية اتجاه الأغلبية إلي الإساءة إلي المصالح الفضلى للمجتمع... والتي تتميز

بامتداد الأمد وطول الأجل لأن مصلحة الجمهور وحكم الأغلبية، يصبحان، علي هذا النحو، معرضين لخطر الاندماج، أو بالأحرى الانصهار، في بعضها بعضا أن هذا الإحساس وكما أشار "ماكس فيبر" ونجد أن مجتمعنا يقوم علي أساس قوة التعاقد، إنما يفتح المجال أمام مجتمع يدعو إلي مناصرة مبدأ السعي والنشاط الفردي...ويكون أساسا لمثل هذا المجتمع وذاك التعاقد، ذلك أن الوضع الاجتماعي، هو من حيث المبدأ. إن فكرة الحرية هي علي الأقل لها بعدان هما: حرية سعي المرء وراء تحقيق أهدافه الخاصة، وحرية تمتعه بعدم تدخل الآخرين في مساعيه تلك ويمكن إعطاء أي بعد من هذين البعدين مداه بالكامل [44] .

لكن شريطة أن تكون نابعة عن مبدأ تكافؤ الفرص (Egalité des chances) في الوضائف و الوضعيات.

لا يرى راولز غضاضة في اللامساواة، إذا كانت في مصلحة الأكثر حرمانا والأقل حظا من الناس، وإذا كانت أيضا حصيلة تكافؤ الفرص التي يتيحها النظام الليبرالي. يستدل راولز على وجاهة وصواب نظريته في العدالة بحجة لم تخل من انتقادات من طرف كثيرين وعلى رأسهم هبرماس، والتي يسميها ب "حجاب الجهل" (le voile d'ignorance) ويُنَزِّلها منزلة الوضعية الأصلية للبشر(Position originelle): إذا أُخِذ البشر على حين غرّة وفيما هم على غفلة من أمرهم، وحيث لا يدرون شيئا عن فئتهم الاجتماعية، ولا عن حظوظهم وامتيازاتهم، وطلبنا منهم أن يختـــاروا بين العدالة والخير (المنفعة) فهم لا شك سيختارون العدالة، لأنها بمثابة الحدس البديهي

(44)_ أنظر:ج.س.هيرسون: سياسات و أفكار، دراسة علمية تحليلية لمفهوم النظرية السياسية الاجتماعية، مع تطبيقاتها علي واقع السياسة الأمريكية العامة، ترجمة صلاح الدين الشريف، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

الذي لا يختلف فيه إثنان. فهذه الحالة أشبه بالتعاقد، وإن كان راولز لا يوافق أصحاب نظرية التعاقد على ما ذهبوا إليه من مذهب الحق الطبيعي الذي يساوونه مع القوة والقدرة والإقتدار. ويعتبر اختيار البشر للعدالة هو الاختيار العقلاني عن جدارة. لأن العدالة دمج بين الحرية والمساواة ولا يمكن تصور اختيار ما، يعارض كونهم أحرارًا ومتساوين أو أندادًا [45].

ولتوضيح التمييز بين الديمقراطية والليبرالية نقول: ليس هناك تعارض بين الليبرالية من ناحية، وبين نظام حكم سلطوي يترك الناس وشأنهم، أي يتمتع من التدخل في الشؤون الشخصية للمواطنين الأفراد.أما الديمقراطية فهي العدو اللدود للسلطوية .

والأقلية في النظام الديمقراطي الليبرالي محمية من تعسف السلطة ومن طغيان الأكثرية فهي محصنة بمجموعة لا يستهان بها من الحقوق والحريات المعترف بها دستوريا والملزمة للسلطة الحاكمة، سلطة تخضع بدورها للرقابة والمحاسبة(القضائية منها والشعبية).

وإذا كانت الحقوق والحريات السياسية ، لا تضمن المساواة في السلطة أو التأثير، فلا مجال لإنكار دورها وأهميتها في العملية الديمقراطية فهي تفسح المجال ، وتوفر الفرص أمام المشاركة والتأثير،وإن كانا بدرجات متفاوتة. ومن بين هذه الحقوق المتساوية يبرز ما يلي :الحق قي التصويت والترشيح، حرية التفكير والضمير، حرية

[45] _ محمد هاشمي، في مفهوم العدالة عند "جون راولز"، مجلة مدارات فلسفية.

التعبير، حرية وسائل الإعلام، حرية تدفق المعلومات، وهناك مجموعة أخري من الحقوق المدنية (وعلي رأسها الحق في الحياة، وفي الملكية الخاصة والأمن الشخصي) التي تساعد علي اتساع الرقعة المحمية من الحياة الخاصة للفرد، والحقوق الأساسية هذه(سياسية ومدنية)وهي تقدم ورقة ذات العلامة بالمصالح الفردية، فإن العلاقة بين الحقوق والحريات الأساسية (أو الطبيعية كما تسمي أحيانا) وبين الديمقراطية الليبرالية هي علاقة تاريخية ومفهوميه في آن واحد[45] .

إن الليبرالية الكلاسيكية تتمني الخروج من قضية "هوبز" و لنظامه المرعب (Son système affreux) لا يزال الإنسان مغتربا عن ذاته في درجة من الرعب والخوف يبحث عن من يكفل له الحفاظ علي هذه الحقوق من الحريات

فالسعي وراء السعادة كحق لا يجوز التنازل عنه أو التصرف فيه للآخرين كما جاء في وثيقة إعلان الاستقلال، حيث أن قيم الحرية قد تشكلت بفعل السياسات "العملية" أكثر مما تشكلت بتأثير المذاهب التجريدية البحتة... كما غدت هذه القيم التي شكلتها العوامل السياسية (والتي تشمل سوقا كبري للأفكار والآراء) حجر الزاوية والأساس أو الركيزة، بالنسبة لنظرتنا الراهنة لحرية القول والرأي والمعتقد.

إن جميع الناس قد خلقوا متساوين، كما أنهم منحوا حقوقا لا تقبل التنازل عنها أو التصرف فيها... ومنها حق الحياة وحق الحرية وحق السعي وراء تحقيق الإنسان

[45]_ أنظر : المرجع نفسه.

لسعادته. ذلك أن المساواة لا تخرج عن كونها تتطلب أن يكون كل فرد مساويا في قدره، وفي قيمته للآخرين.

إن هذه الحريات لا تبلغ هدفها إلا إذا اعترف بها الآخر واعتبرها الجميع أنها تمثل حقوقا أساسية لا يجوز لأحد مساسها أو يأتي بحق من السماء أو للاعتراض عليها إلا في حالة ما إذا كانت حرية الآخر تحاول أن تقضي علي حريته، في هذه الحالة يكون دور القانون هو الحفاظ علي هذه الحريات دون انتقاصها باعتبارها حريات طبيعية، وبموجب هذه الفطرة يصبح هدف العدالة هو ضمان الحرية في أفق نظام حقوقي .

.و هذا ما ظهر أيضا في فكرة "مونتسكيو" الذي رأي ضرورة فصل هذه السلطات. و إن إعلان حقوق الإنسان والمواطن سنة 1789، لأقوي شاهد علي أهمية مبدأ الفصل للسلطات لكل مشروع دستوري، وكل مجتمع لا تتوفر فيه صيغة الفصل للسلطات لا يمكنه أن يقوم علي أية دستور، بحيث أن الدستور بصفته القانون العضوي الأساسي لتقييد القوة السياسية، فالفصل بين السلطات هو وسيلة تحول أية سلطة في موقع تجد نفسها مقابل سلطة أخري مضادة لها فهي تقييد من حجم السلط، إن فكرة الفصل بين السلطات من خلال كتابات "مونتيسكيو" و "هوبز" تعد الاختيار الديمقراطي لا ينحصر فقط في تحصيل رأي الأغلبية بل أيضا في جعل

سلطات الحكومة محددة و مقيدة بحرية المواطن، فالحرية تشترط الدفاع عنها في أي موقع تهاجم فيه لأجل إبقائها وإبقاء الدولة القائمة عليها.

وقد تختلف، وقد يكون الخلاف حادا حول طبيعة القيم والمبادئ و الممارسات و الترتيبات التي تفترضها وتتطلبها أو تقوم عليها الديمقراطية الليبرالية كنظام للحكم وطريقة للحياة . ولكن رغم الخلاف ، هناك من الأدلة ما يبرز رأيا مفاده أن الديمقراطية الليبرالية هي " البديل العملي الوحيد للاستبداد غير مقيد"، إن تقييد أية جهة تفرض نفسها باسم السلطة، إضافة إلي متابعة ممارستها المختلفة ومراقبتها ومحاسبتها هو من أهم سمات الديمقراطية الليبرالية [47].

ولكن، كما لاحظ "روسو" قبل أكثر من قرنين، هناك فرق كبير بين سلطة تملك الحق في الإكراه، وتحول طاعة المحكومين إلي واجب (قانوني و أخلاقي) من جهة، وبين سلطة لا تملك هذا الحق وتكون طاعتها بدافع الخوف فقط، بكلمات أخري، السلطة الشرعية هي تلك السلطة التي تملك الحق في استعمال القوة و الإكراه من أجل العقاب ومن أجل أغراض أخري محددة. ويقابل حق السلطة في الإكراه واجب الطاعة علي المحكومين . أما السلطة "غير الشرعية" هي بالضرورة، و في صميمها، سلطة استبدادية . و الاستبداد أو الطغيان يمكن تعريفه علي أنه ذلك الإكراه التي تمارسه سلطة ليس لهخا الحق في استعمال القوة. أو حتي سلطة شرعية تتجاوز القيود والحدود في استعمالها. والإرغام (أو الإكراه) الذي قد تمارسه سلطة ما هو عادة إرغام يمكن تجنبه (أو تجنب القسط الكبير منه)

[47]_ أنظر: سعيد زيداني، الديمقراطية اللبرالية و مفهوم الدولة المحايدة، مجلة المستقبل العربي.

من ناحية، ويتعذر التنبؤ به (في أغلب الأحيان) من ناحية أخري ، أما ضحيته الأولي فواضحة و جلية : الفرد وحريته. و من الشرور البارزة لهذا الإكراه الإستبدادي " أنه يلغي الفرد كشخص مفكر و مقيم ويجعله مجرد أداة لتحقيق أهداف أخري لا تخصه، ومن الفضائل المجربة لليبرالية أنها توفر للفرد و الجماعة تلك الحصانات اللازمة، وتلك الضمانات الواقية، من تعسف السلطويين أو تماديهم في التدخل في شؤون الخاصة للأفراد[48]

فمثلا تتجه الأغلبية، في غالب الأحيان إلي الإساءة للمصالح ألفضلي للمجتمع و التي تتميز لامتداد الأمد و طول الأجل، فإن شر التعصب المجتمعي الضيق قد يعالج أمره بوصف "جرعات" صغيرة من هذا النظام السياسي، نظام الأغلبية، وتبعا لذلك يتسنى للأغلبية استخدام القوة السياسية أو سلطة الحكم لإقامة مجتمع تتحقق فيه رجة أعظم من المساواة الاقتصادية، فبإمكانها استخدام هذه القوة في إعادة توزيع الملكية و الأشكال الأخرى للثروة[49].

علي أن المساواة الاقتصادية التي تنجم عن هذا كله، تستطيع بسهولة أن تهدد تلك الحريات التي هي جزء من حقوق الملكية ... فإن الدستور هو وسيلة أو أداة قصد بها منع طغيان الأغلبية علي الأقلية فالديمقراطية الصحيحة هي تستطيع أن تقول: "لا" لحكم الأغلبية، وبالتالي لقرارها أيضا.

" إن الأقلية تكون عاجزة لا حول ولا قوة عندما تتمثل للأغلبية"

---

(48) _أنظر: نفس المرجع.

(49) _ أنظر:ج.س.هيرسون: سياسات و أفكار، دراسة علمية تحليلية لمفهوم النظرية السياسية الاجتماعية، مع تطبيقاتها علي واقع السياسة الأمريكية العامة.

ولكنها تغدو قوة (الأقلية) لا يمكن مقاومتها عندما تتشبث بموقفها، فالإنسان يكون أكثر صوابا و إنصافا إذا لم يلتزم بحكم الأقلية المصاحبة للتقاليد، السريعة الإيمان والتصديق، لان هذه الأخيرة ليس لها ما يضمن حكمتها و أخلاقيتها، الفردية تشكل بموقفها المعارض أغلبية قوامها هذا الواحد الذي يمثله الفرد فعلا، والابتعاد قدر الإمكان عن "الشعبوية" ، وما تنطوي عليها من غوغائية تعمي الناس عن رؤية القضايا المطروحة بكل أبعادها و تركيباتها، فمن الحماقة أن نتشاجر و نتعارك مع النجاح فالشر هو ذلك النوع الذي يتقاضي الفرد في ن يكون عاملا من عوامل الظلم ز الجور لغيره، هذا ما يترجم فكرة "جون جاك روسو" عن الإرادة العامة ، فإن فكرة الأغلبية المنسجمة ، أو المتوافقة ، لها صفة غامضة ومحيرة[50] .

فالفرد و كما يري "آدام سميث" ، وهو يعمل من أجل مصلحته الخاصة ، لا يدري أنه يعمل أيضا من أجل تحقيقي المصلحة العامة ، إنها اليد الخفية التي من خلالها يحقق الإنسان مصالحه و يحقق معه المصلحة العامة. أما أولائك الذين يدعون أنهم يعملون من أجل المصلحة العامة فهم أقل المساهمين فيها . فكل منا له الحرية في السعي من أجل تحقيق أهدافه ومصالحه، مثلما لغيره الحرية في السعي إلي تحقيق نفس الغاية[51].

وهذا ما أكده " فولتير" في قوله" قد أختلف معك في الرأي لكنني سأدافع دائما عن حريتك".

---

[50]_ أنظر المرجع نفسه.

[51]_عبد العزيز محمد الدخيل ، ضمن العولمة و الفرد والدولة و الديمقراطية، نحو مشروع نهضوي عربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت العدد، 2002.

إن انتشار ظاهرة التعصب و العنف يعني ذلك غياب ثقافة الاختلاف ، و سيادة عقلية التحريم أو التجريم يشتي طرقه و أساليبه ووسائله، سواء علي الصعيد الفكري أو السياسي أو الاجتماعي، أو الثقافي فالمطلوب هنا ليس تقليص دور الدولة في المجتمع بل تعزيز هذا الدور وترشيده.

فحق التملك ليس إلا حرية التملك، وحق الأمن ليس إلا حرية الحركة، وحق التعبير هو في النهاية حرية التعبير، هكذا فهيجل يري أن "الحق في الحرية الذاتية يشكل النقطة الحاسمة والمركزية التي تجسد اختلاف الأزمنة الحديثة عن العصور القديمة كما اعتبر روسو الحرية صفة أساسية للإنسان و حقا غير قابل للسلب و غير قابل للتصرف "العقد الاجتماعي".

نعثر لدي "هوبز" علي تعريف للحق الطبيعي بحيث يقول:" الحق الطبيعي هو الحرية التي يملكها كل إنسان لأن يستعمل كما يشاء قدراته الخاصة" ." وكلمة ما يشاء لا تخلو من دلالة تعاقدية تصرح لها وتنص عليها فلسفة "هوبز" التي هي فلسفة الحداثة السياسية بامتياز. وبذلك تتداخل فكرة الحق بفكرة الحرية و بفكرة الذاتية والتعاقد لتشكل الأساس الفلسفي لمنظومة حقوق الإنسان في مفهومها الغربي الحديث [52].

إن تحقيق المنفعة الشخصية و الجري وراءها، طبيعة إنسانية تحتاج إلي تهذيب لكي تصبح معينا و صديقا للرفاهية الاجتماعية و ليس عدوا لها . وإن التنافس الحر بين كل الأفراد ، هو النظام الكفيل بترشيد تلك الرغبة الفردية وجعلها تعود بالنفع علي

[52]_ محمد سبيلا، الفلسفة الحديثة ومفهوم حقوق الإنسان، مدارات فلسفية، الجمعية الفلسفية المغربية،2008.

الفرد والأمة علي حد سواء، إن إعلاء فكرة الحرية قد أدي إلي الحط من فكرتها للسلطة ، وإن تفريغ السلطة من الشرعية أو الحقوق يحيلها إلي مجرد استخدام للقوة.

والطغيان نوعان، ذات طابع سلطوي، وذات طابع كلي أو شمولي ، إن ما يميز التوتاليتارية عن السلطوية ليس شدة القمع أو الطغيان، و إنما شمولية التحكم، التوتاليتارية تجنح نحو التحكم الشامل و السيطرة التامة علي جميع نواحي الحياة، وإذا ما اكتسبت هذه السلطوية و تحولت علي يد الأتباع المتحمسين إلي "عقيدة" ، فكيف في وضع كهذا قبول الرأي المختل و التسامح مع صاحبه؟ في ظل حكم سلطة تدعي معرفة الحقيقة الكلية، لا مكان للتعددية، ولا مكان بالتالي للتسامح[52] .

إن الحدود التي تفصل بين هذه الفردانية و بين الآخر لا تبقي بذلك ثابتة، حيث أن هذه الفردانية لا تقف عند حدود هذا الآخر فهي تشمل الزمان و تتخذ من المكان كشكل جديد من أشكال هذا التوسع، فهناك جانب أساسي في طبيعة الإنسان يجد فيه نفسه منعزلا عن الآخرين هو ما يحقق له الاستمتاع بحقه بعيدا عن المجتمع.

[52]_ أنظر: سعيد زيداني: الديمقراطية الليبرالية ومفهوم الدولة المحايدة.

2. البراغماتية والحرية الفردية:

لا تختلف البراغماتية في المضمون وفي الهدف ...عن الليبرالية في قضية الحرية الفردية، أو الفردانية...وإن كانت تحد منها قليلا، خاصة علي المستوي السياسي، بالنسبة لموقف الفرد ... الذي قالت أنه يجب أن يخضع في بعض الأحيان ومن خلال ما أسمته بمنهج النفوذ (La méthode d'autorité) الذي سبق الإشارة إليه لبعض الطروحات الوطنية للدولة [47].

نلاحظ أن هذه الحرية الفردية التي نادت بها البراغماتية وطبقتها وليدة التعدد العرقي...و الثقافي والديني والفكري للمجتمع الأمريكي قد تجسدت من بين ما تجسدت في تأكيد هذه الفلسفة، أو المنهج الفلسفي، خاصة السياسية...وذلك حين قالت " أن عبارتين مختلفتين لفضا متفقتين نتيجة، و أثرا، إنما هما في الحقيقة عبارة واحدة، وعلي العكس من ذلك فإن عبارتين متفقتين لفظا ومختلفتين أثرا أو نتيجة، هما عبارتين...وليس عبارة واحدة.

بذلك أسهمت البراغماتية، في توطيد الديمقراطية الفاعلة من خلالها كل الأبواب أمام حرية التعبير والتفكير وهي الحرية التي لا تقيم مثل صاحبها إلا بأثرها العملي في الواقع.

---

[47]ـــ أنظر نمير العاني: حول مفهوم الحقيقة في الفلسفة البراغماتية ، مجلة الطريق.

البراغماتية والدولة:

فبذلك أيضا...كانت البراغماتية مختلفة عن الليبرالية في عدم معاداتها الميدانية، حتى لا نقول المرضية، للدولة مثل ما فعلت، ولا تزال تفعل الليبرالية.

فبذلك يمكن أن نقول أنه إذا كان معظم البراغماتيين الليبراليين..فإن العكس غير صحيح حيث أن معظم الليبراليين ليسوا براغماتيين بالمعني المعروف لهذا الكلمة ولهذا المفهوم.

الفصل الرابع

أمريكا ومرآتـــــــــــها المكسورة

(بحثا عن إنسانية أمريكية جديدة)

I. لأن أمريكا، أي الولايات المتحدة الأمريكية (United States of América. USA) هي الرائدة اليوم لكل من الليبرالية الجديدة (Le néo-libéralisme) ومن البراغماتية (Le pragmatisme)، فإننا هي التي سنتوقف في هذا الفصل، عندها، دون غيرها من دول وأمم و فلسفات العالم، للوقوف علي الواقع، الإنساني، السياسي منه والاقتصادي، الاجتماعي منه والثقافي، العسكري منه والسلمي، الديني منه والأخلاقي، العلمي منه والتقني، الذي تجسد من خلال هذه الإيديولوجيا الليبرالية... وتلك الفلسفة، أو ذاك المذهب الفلسفي البراغماتي.

ولكي نقدم هذا الواقع، بأكبر قدر ممكن من الواقعية ومن الموضوعية... فإننا..سنعرف أولا وباختصار شديد، بالولايات المتحدة الأمريكية وبما تمثله من قوي طبيعية وصناعة، وثقافية، وفكرية، مادية... وتقنية وهذا قبل أن نعرض لما سميناه **"لمرآتها المكسورة" (Son miroir brisé)** ولمواقف وآراء بعض المفكرين الأمريكيين، مولدا، أو جنسية... ولأراء غيرهم كذلك... حول أمريكا ومرآتها المكسورة هذه.

1. الولايات المتحدة الأمريكية:

أـــ الجغرافيا:

الولايات المتحدة الأمريكية بلد يحتل المركز الثالث، أو الرابع من حيث المساحة الجغرافية (3,79 مليون ميل مربع) تتكون من شواطئ وجبال وسهول وأنهار

وبحيرات وثروات طبيعية مختلفة... يتقاسمها،307 مليون نسمة يعملون في حقول الصناعة والزراعة... والصناعة والثقافة... الخ... ويشكلون بالتالي أول دولة صناعية... في العالم، وثالث دولة من حيث الكثافة السكانية.

ب ــ التاريخ:

ليس للولايات المتحدة تاريخ عريق... مثل معظم الشعوب الأخرى*، حيث أن هذه الولايات المتحدة الأمريكية، كانت مستعمرة بريطانية سابقة ولم تتكون من العديد من المهاجرين، ذوي الجنسيات المختلفة، إلا بعد انفصالها عن هذه الأخيرة، بعد حرب تحريرية انتهت باستقلاله سنة 1776[1].

لقد تأسست الأمة الأمريكية عن طريق ثلاث عشر مستعمرة بريطانية علي طول ساحل المحيط الأطلنطي وأصدروا إعلان الاستقلال في الرابع من يوليو عام 1776، والذي أقر باستقلالهم عن بريطانيا العظمي وتشكل حكومة اتحادية هزمت الولايات المتمردة بريطانيا العظمي في الحرب الثورية الأمريكية، وهي أول حرب استعمارية ناجحة تحصل علي الاستقلال اعتمدت اتفاقية فيلادلفيا الدستور الأمريكي الحالي في السابع عشر من شهر سبتمبر عام 1787، وتم التصديق عليه في العام التالي مما جعل تلك الولايات جزء من جمهورية واحدة لها حكومة مركزية قوية. كما تم التصديق علي وثيقة الحقوق في عام 1791، وهي تضم عشرة تعديلات دستورية لتضمن الكثير من الحقوق المدنية الأساسية والحريات.

* ــ ولعل هذا هو السبب، فيما يذهب إليه العديد من الباحثين في عدم اهتمام الأمريكيين بالتاريخ.

(1) _ Cf. John Richard Aldin : La guerre d’indépendance, édit. Nouveaux horizons, Paris, 1975.

وفي القرن التاسع عشر حصلت أمريكا علي أراض من فرنسا، واسبانيا، والمملكة المتحدة، والمكسيك، وروسيا، كما ضمت إليها الرقيق إلي نشوب الحرب الأهلية الأمريكية في عام 1860 تقريبا منع انتصار المنطقة الشمالية حدوث انقسام في البلاد، مما أدي إلي نهاية العبودية القانونية في الولايات المتحدة. أصبح الاقتصاد الوطن أضخم اقتصاد في العالم بحلول عام 1870 وأكدت الحرب الإسبانية الأمريكية والحرب العالمية الأولي علي القوة العسكرية للبلاد وفي عام 1945، خرجت الولايات المتحدة من الحرب العالمية الثانية لتكون أول دولة تمتلك أسلحة نووية، وعضوا دائم في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، وعضوا مؤسسا في منظمة حلف شمال الأطلسي. كما أصبحت الولايات المتحدة القوي العظمي الوحيدة في العالم بعد انتهاء الحرب الباردة وتفكك الاتحاد السوفياتي. يبلغ مقدار ما تنفقه الولايات المتحدة علي القوات الأمريكية حولي 50 في المائة من الإنفاق العسكري العالمي، كما تعد قوة اقتصادية وسياسية وثقافية عالمية.

والولايات المتحدة الأمريكية اليوم جمهورية دستورية فيدرالية تضم خمسين ولاية ومنطقة العاصمة الاتحادية تقع معظم البلاد في وسط أمريكا الشمالية، حيث تقع 48 ولاية وواشنطن العاصمة بين المحيط الهادي والمحيط الأطلسي وتحدها كندا شمالا والمكسيك جنوبا. وتقع ولاية ألاسكا في الشمال الغربي من القارة، وتحدها كندا شرقا وروسيا غربا عبر مضيق بيرينغ أما ولاية هاواي، وهي عبارة عن مجموعة جزر

فتقع في منتصف المحيط الهادئ كما تضم الدولة العديد من الأراضي، أو الجزر في الكاريبي والمحيط الهادئ.

ج ــ الثقافة:

والولايات المتحدة الأمريكية بلد ذو ثقافة غنية ومتعددة، غنا، وتعدد الجماعات العرقية، وأفكارهم وتقاليدهم وثقافاتهم وحضاراتهم وقيمهم... وفنونهم المختلفة.

كما أنها بلد الإبداع والتطور الإعلامي والاتصالي... وبلد البحوث العلمية المتقدمة والمتنوعة... والسينما... ذات الأبعاد العالمية، تقنية ومضمونا.

أما علي المستوي الاقتصادي فإن الاقتصاد الأمريكي يعتبر أكبر اقتصاد وطني في العالم، حيث يقدر إجمالي الناتج المحلي لعام 2008 بنحو 14.3 تريليون دولار أمريكي (23 في المائة من المجموع العالمي، استنادا إلي إجمالي الناتج المحلي الاسمي و 21% تقريبا من حيث القوة الشرانية)

2. المرآة المكسورة (Le miroir brisé):

أ ــ إننا لا نقصد هنا بالمرآة المكسورة، المرآة المرتبط انكسارها، لدي بعض الأمم والشعوب، بنذور النحس والشؤم والمصائب [2] وذلك لمدة سبع سنوات متتالية، بالنسبة لكل عائلة انكسرت عندها.

ب ــ كما أننا لا نقصد بها كذلك المرآة المرتبطة بالآثار النفسية للطفل المصاب فجأة بالشلل، وتساؤل ذويه بالتالي: لماذا طفلهم بالذات وليس طفلا، أو أطفالا آخرين؟ [3] .

ج ــ بل عن المرآة المكسورة التي نقصدها هنا، هي مرآة الأقرب إلي المرآة الأسطورية الإغريقية (أي مرآة الميتولوجية) التي جعلتهم، خاصة في أثنا(Athènes) يذكرون أمامها الآلهة باستمرار، عند مواجهتهم للأقدار (Le destin)، وهو الذكر الذي لم يحل بالرغم من ذلك، دون الأثينيين ودون التدخل في سير تلك الأقدار... وفي تقرير الوجهة التي يجب أن تأخذها [4].

بذلك أبدع الأثينيون، والإغريق التراجيديا (La tragédie) التي شكلت حدثا اجتماعيا وثقافيا وأخلاقيا وجماليا فريدا...

---

[2] _CF. Simone Kof Sausse : Le miroir mythologique, édit Calmann- Lévy , Paris, 2010.

[3] _ Cf. Simone Kof Sausse : Le miroir brisé (L'enfant handicapé et l'attitude des parents) édit. Calmann- Lévy , Paris,2010.

[4] _ Cf. La mythologie grecque, divers ouvrages et divers éditions.

وبذلك أيضا ابتكر الإغريق كذلك، وفي الوقت نفسه، القانون (Le droit) المكتوب، الوضعي والمشترك، القادر وحده علي حل الخلافات بين الناس وعلي اتخاذ القرارات الجماعية والحرة... التي يخضع لها... كل الناس.

وبذلك أخيرا، وليس آخرا، فإن المرآة المكسورة التي نقصدها مرآة أقرب إلي مرآة "نيتشه" الديونوسيزية (Le miroir dyonyssisien) نسبة إلي الإله (Dionysos) إله الخمر، ونشوته الحيوانية.

" لقد رأي زرادشت "نيتشه" في المنام طفلا كان يحمل مرآة، صرخت وانقبض قلبي: لأن ما شاهدته لم يكن أنا، بل كان وجها مكشرا، ضحكة ساخرة للجن (démon)،إذاك فهمت جيدا، وكما يضيف "زرادشت" معني حلمي ذاك ونذره بأن مذهبي في خطر وأن ما كان غير قمح يراد أن يسمي قمحا وبرا" [5].

غير هذه المرآة الأثينية المكسورة هي ذاتها المرآة التي سطا شفافيتها وبريقها... العديد من الممارسات السلبية المعنوية منها والمادية فهي مرآة "سقراط" الذي أعدم، ظلما باسم نفس الديمقراطية، ومرآة أثنا العبيد... ومرآة "السفسطائيين" و"الشكاك الإطلاقيين" خاصة الذين خلفوا بعد هزيمة أثنا أمام طروادة فلاسفتها الأوائل، من الطبيعيين...والذريين وغيرهم... وهي الهزيمة التي يعد من ابرز نتائجها "أفلاطون"

[5]_ F. Nietzsche : Ainsi parla Zarathoustra, Gallimard, Paris, 1965, P, 97.

وفلسفته المضادة للديمقراطية وللمرأة [6]. إنها مرآة عالم مقلوب...أو معكوس في النهاية.

إن هذه المرآة... الأخيرة هي الأقرب لما نقصده بمرآة أمريكا المكسورة. ولأنها كذلك فإنها تدل بالتالي علي واقع أمريكي معكوس إنسانيا... وأخلاقيا، واجتماعيا، بصورة خاصة.

فأمريكا الرخاء الاجتماعي هي ذاتها أمريكا... الملايين من الفقراء و المعدمين... الذين لا يتمتعون بأي حماية اجتماعية، حتى الصحية منها...(إلا منذ وصول الرئيس باراك أوباما (Barak Obama) إلي الحكم 2009.)

وأمريكا التقدم الثقافي... والاقتصادي هي أمريكا أعلي معدل في الجريمة، خاصة جريمة القتل،... وأعلا معدل كذلك في عدد المساجين بالنسبة للسكان (2,3 مليون سجين سنة 2008)، خاصة المساجين السود الذكور...

وأمريكا التقدم العلمي والتكنولوجي هي أمريكا... العدوان تجاه.. كل شعب أو فرد تري أنه يقف حجر عثرة أمام مصالحها، وهي أمريكا هيروشيما (Hiroshima) و ناغازاكي (Nagasaki) وأمريكا الدفاع عن الحرية الفردية والجماعية، وعن حقوق الإنسان هي أمريكا... الاعتداءات العسكرية علي العديد من شعوب العالم الثالث [7] وهذا ابتداء من شعوب أمريكا الجنوبية و انتهاءا

---

[6] _ Cf. Vidal Naquet : Le miroir brisé, tragédie athénienne, édit Les belles lettres, Paris, 2002.

[7] _ Cf. H. Kissinger : La nouvelle puissance américaine, Fayard, Paris, 2001.

بالشعوب العربية، ومرورا بشعوب آسيا وأمريكا هيروشيما..1945، وغزو العراق2001 [8].

وذلك ما سنراه في الفصل الخامس والأخير من هذه الرسالة، وأمريكا... الانتماء الكلي للدين المسيحي (البروتستانتية الإنجيلية Le protestantisme évangélique)، والتعصب الشديد والعدوانية، والمتحالفة بشكل أعمي مع اليهود وإسرائيل.[9]

وهي أمريكا الفردية... والأنانية... والمصلحة.. والمادة والاستهلاك المسرف. وأمريكا الرجل الطيب، والسخي هي أمريكا الرجل الغيور من غيره.. المتماهي مع ذاته دون غيرها...الخ.

ها نحن بالتالي أمام مثل هذه المرآة المكسورة التي تحولت لا فحسب إلي ما نسخة لصورة صاحبها ، بل حولته إلي وحش فقد لكل إنسانية ولكل قيمة أخلاقية.

من هنا تلك التناقضات التي تعج بها الحياة الأمريكية...والتي تعد العدوانية أبرز نموذج لها.

فأمريكا رمز الحرية والحقوق بالنسبة لكل إنسان، ورمز التقدم العلمي والتقني .. والقانوني والديمقراطية هي أمريكا العدوان الظالم في الكثير من الأحيان علي العديد من الشعوب، الضعيفة خاصة.

---

[8]_ Cf. Baudrillard : La guerre du Golfe n’a pas eu lieu, édit Galilée, Paris, 1991.

[9]_Cf. Sébastien Faith: Militant de la Bible aux Etats Unis, édit. Autrement, Paris, 2004.

وهي أمريكا المدعمة للنظم الاستبدادية، خاصة العربية منها، وللنظم العدوانية (إسرائيل).كما أنها أمريكا التي لا يتجاوز فيها الحكم بعض العائلات(كينيدي. كلينتون. بوش) ، و الديمقراطية أحزابا سياسية تحولت إلى جامعة للأموال الممولة للحملات الانتخابية...

ومما يزيد مثل هذا العدوان، أو هذه الاعتداءات حدة وخطورة أنها اعتداءات لا يمكن لأحد، لا فحسب تبريرها، موضوعيا، بل إنها تجري في ظرف تعلم الولايات المتحدة الأمريكية جيدا، أنها أصبحت، خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي 1991، القوة العالمية الوحيدة، وأنه لم يعد بالتالي بإمكان أية قوة أخري مواجهتها أو... عقابها.

وإذا كنا لن نتوقف هنا لتحليل أسباب مثل هذا الانكسار ، أو الكسر، الذي أصاب مرآة أمريكا، فإننا نلاحظ مع بعض الباحثين أن هذه الوضعية قد تعود فعلا وكما يلاحظ أحد الباحثين إلي الانتقال المفاجئ... والقصير زمنيا لأمريكا من مرحلة البربرية (La barbarie) والهمجية إلي مرحلة الحضارة (La civilisation) [10] تلك كانت، سياسة الولايات المتحدة الأمريكية تجاه غيرها من دول العالم، بما فيها، لا الدول العربية فحسب، بل والدول الأوروبية الغربية المتحالفة عسكريا... و إيديولوجيا معها [11].

[10] _ Cf. Jean Vernant : L'Amérique d'aujourd'hui, PUF, Paris, 1985.
[11] _ Cf. Richard .H. Salomon et Nagel Quesnney : American Negotiating Behavior, United States Institute of Peace, 2010, in Le monde diplomatique, Avril 2011.

إن هذه السياسة التي لم تزدها أحداث 11 سبتمبر 2001 إلا حدة، خاصة بالنسبة للعالم العربي والإسلامي هي التي ستظل سائدة خاصة منذ منتصف الستينات من القرن الماضي (العشرين) وحتى وصول أول رئيس من أصول إفريقية إلي البيت الأبيض، ألا وهو باراك أوباما (2009).

وإذا كان " أوباما" قد أكد منذ توليه رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية، رغبته القوية في تغيير مسار السياسة الأمريكية.. نحو مزيد من التعاون والاحترام للشعوب الأخرى، وفي مقدمتها الشعوب العربية والإسلامية [12]، فإن هذه الرغبة لم تتجسد فعليا حتى الآن علي أرض الواقع.

كتب أحد الأساتذة الجامعيين المختصين في السياسة الدولية... في هذا الصدد مايلي:

" لقد تجلت السياسة الأمريكية في السنوات الأخيرة، بالانفرادية وبالعزلة... وهي الصفات التي لم تعتبر لا في عهد الجمهوريين ولا في عهد الديمقراطيين خاصة منذ انهيار حائط برلين (1989) (Le mur du Berlin) وسقوط الاتحاد السوفيتي (1991)".

إن هذه السياسة العدوانية والمغايرة تبدو مرفوضة، وغير مقبولة من طرف العديدين، خاصة العالم العربي والإسلامي، حينما نتذكر، لا حربي الخليج (العراق)

[12]ـــ باراك أوباما، خطاب القاهرة، يوليو، 2009.

فحسب(2003ـ 1991)، بل وحينما نتذكر كذلك تدخل الحلف الأطلسي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية في البوسنة والهرسك (Bosnie _ Herzégovine) وفي العديد من بلدان العالم الأخرى [13].

[13]_ Thierry Garcin : Revue Française de Géopolitique N,2, (Les frontières de la barbarie), PUF, Marne- la vallée, Mai 2002.

II. الإنسانية الأمريكية المفقودة:

إن هذه الملامح، المختصرة، وغير المعمقة... أو المفصلة لأمريكا ولمرآتها المكسورة هي التي يجد معظم الأمريكيين عامة، والعديد من المثقفين الأمريكيين، أصلا... أو جنسية وثقافة، ومن غير الأمريكيين، خاصة من الغرب أنفسهم، كل لحظة ومنذ عقود أمامها هي التي كانت وراء تلك الرافضة، قولا، وعملا لأمريكا ولسياستها تلك الخارجية أولا... والداخلية بعد ذلك.

ولأننا لا نستطيع أن نقدم كل تلك كل أولئك المثقفين ومواقفهم تلك فإننا سنكتفي بالتوقف عند ثلاثة منهم، ألا وهم "ناعوم تشومسكي"، و"إدوارد سعيد"، و"محمد حسين هيكل".

1. "ناعوم تشومسكي" (Naom Chomsky) (1928 ــ ؟)

أ ــ حياة تشومسكي:

"أفرام ناعوم تشومسكي" (Avram Naom Chomsky) يهودي أمريكي وهو من أبوين يهوديين ولد يوم 07 ديسمبر1928 بفيلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية.

اشتهر كأستاذ لغوي جامعي متخصص في النحو التوليدي (La grammaire générative) خاصة، وباللسانيات عامة... إضافة إلي اتجاهه الفلسفي.

كان لأعماله اللسانية كبير الأثر علي علم النفس وعلوم اللغة طيلة النصف الأول من القرن الماضي(العشرين).

اشتغل كأستاذ في المعهد التكنولوجي بالمساشوسيت (Massachusetts) أين درس طيلة حياته.

كما اشتهر "تشومسكي" داخل الولايات المتحدة وخارجها بمواقفه الثورية الملتزمة... وبنقده اللاذع للولايات المتحدة الأمريكية... ولسياستها الخارجية، خاصة تجاه العالم الثالث، وهي السياسة التي قال أنها سياسة مبنية علي فرض القوة علي كل بلد في العالم تري أنه يقف عائقا في طريق مثل تلك المصلحة.

كما اشتهر "تشومسكي" لمساندته للقضية الفلسطينية وبإدانته لمساندة أمريكا لإسرائيل.

من هنا إداناته المتكررة لحرب فيتنام ولغزو العراق وللموقف الأمريكي المساندة بصورة شبه عمياء لإسرائيل ولاحتلالها، الظالم للأرض الفلسطينية.

ب ــ مؤلفاته:*

*ــ ألف "تشومسكي" العديد من الكتب العلمية، الخاصة بالنحو واللغة نشير إلي البعض منها، خاصة المترجمة إلي اللغة الفرنسية، ما يلي: ــ النحو التوليدي (La grammaire générative) (1950)، اللغة والفكر (Le langage et la pensée) (1968)، البناءات النحوية (Structures Syntaxiques) (1979)، تأملات حول اللغة(1979)، نظريات اللغة (Réflexions sur langage) (1979).

كما ألف "تشومسكي" كذلك العديد من الكتب السياسية منها، أمريكا ومثقفيها الجدد (L'Amérique et ses nouveaux mandarins) (1969)، الحرب كسياسة خارجية لأمريكا (La guerre comme politique étrangère des États unis) (2004)، صناعة الرضا (La fabrication du consensus) (2008)، "كتابات سياسية" (Écrits politiques)، الدعاية ووسائل الاتصال والإعلام والديمقراطية (Propagande medias et démocratie) (2001)، انتخابات، تأملات حول الديمقراطية الأمريكية (Elections/ réflexion sur la démocratie américaine) (2001).

كما اشتهر "تشومسكي" بتحليله النقدي لوسائل الإعلام (Information mass médias) الأمريكية واستنكاراتها الانتقائية (Les indignations sélectives) ودورها المتواطئ في دعم مثل تلك السياسة الخارجية الأمريكية، دعم خطابها المسيطر (Le discours dominant).

ألف "تشومسكي" العديد من الكتب في ميدان اختصاصه ذلك مثل اللغة والفكر (Le langage et la pensée) و النحو التوليدي وبناءات نحوية (Structures Syntaxiques)، وعن الحرب كسياسة خارجية أمريكية (De la guerre comme politique étrangère des États Unis) وصناعة القبول (La fabrication du consentement) (11سبتمبر2011) وأمريكا ومثقفيها (L'Amérique et ses mandarins) ...إلخ.

لقد لقي "تشومسكي" من طرف المتعاطفين معه، ومن طرف المناوئين له علي حد سواء بالمثقف المنشق (L' intellectuel dissident).

وكما أتهم "تشومسكي" بمعاداته للسامية (L' antisémitisme) من طرف إسرائيل والفوضويةـــ النقابية (L'anarcho-_Sindicalisme) من طرف رجال الأعمال الأمريكيين.

أما أعماله في اللسانيات فقد تعرضت لنقد كبير تماما مثل أعماله الخاصة كنقد السياسة الأمريكية من طرف الليبراليين ومن طرف كل من لهم مصلحة في استمرار

السياسة العدوانية الأمريكية ضد الخارج...خاصة المتمثلة في الحرب... كما اتهم بمعاداة السامية وتعرضت مؤلفاته للنقد الموضوعي عكس مؤلفاته السياسية التي انتقدت بشكل غير موضوعي.

ترجمت مؤلفاته إلي ما يقرب من 26 لغة... كما حصل علي العديد من الجوائز العلمية العالمية ومن ضمنها جائزة كيوطو (Kyoto) للعلوم والفنون اليابان 1988. و جائزة السلام (Le prix de la paix). طرد أكثر من مرة، ومن جامعة أمريكية نتيجة لنزعته السياسية النقدية هذه.

ج ــ المثقف المنشق(L'intellectuel dissident):

حين يدين "تشومسكي" سياسة أمريكا، خاصة الخارجية منها، وهي السياسة القائمة علي محاربة كل مضاد لمصالحها وينتقد وسائل الإعلام والاتصال الأمريكية المدعمة لها من خلال ما أطلق عليه (صنع الرضا) ... ويتحفظ إزاء الديمقراطية الأمريكية... وإزاء شعاراتها المنادية، بل والمطالبة لغيرها من الدول، خاصة في العالم الثالث، بتحقيق الديمقراطية، وتعمل في الوقت نفسه علي الدعم المطلق للنظم غير الديمقراطية والاستبدادية، الخادمة لمصالحها والمتجاوزة للشرعية الدولية ولمؤسساتها المختلفة. فإنه من الطبيعي أن يلاقي...مثل هذا الموقف، نقدا... ومعارضة...ومحاربة لأرائه هذه...علي مختلف المستويات.. وبمختلف الوسائل...

لقد انتقد "تشومسكي"، وهو المثقف اليساري، السياسة الأمريكية الخارجية القائمة علي المحاربة العسكرية لكل دولة تقف أمام مصالحها، أو تهددها...وهذا ابتداءا من الفيتنام وحتى العراق [14].

لقد انتقد "تشومسكي" الآلة الإعلامية الأمريكية المدعمة لهذه السياسة الخارجية العدوانية(والاقتصادية كذلك) وذلك من خلال اصطناعها "للرضا"، رضاء الأغلبية المزعومة، كما سبق أن أشرنا... رضا الجماهير... وهي الأكذوبة التي تجعل الجماهير تسلم بالفرضيات المزعومة والمتناغمة مع مثل هذه السياسة العدوانية الخارجية... وتبعدها بالتالي عن كل موقف رافض أو محتج إزاء مثل تلك السياسة...حتى الداخلية منها...تماما مثلما تحاصر كل مجتمع رافض لمثل الدور الذي تلعبه تلك الوسائل الإعلامية.

إن هذه السياسة...هي التي قال عنها "تشومسكي" أنها تهدف، إلي تمكين الإمبراطورية من التوسع...عن طريق الحرب...لخدمة مصالحها [15]. هي التي كانت ولا تزال وراء تأييدها الأعمى لإسرائيل الخادمة لمصالحها البترولية في المنطقة.

كما أن هذه السياسة هي التي حولت أمريكا... ومثقفيها العضويين (لمفهوم "غرامسي" (Gramsée) إلي أدوات، لا للدفاع عن الحرية وعن المجتمعات الحرة

[14] _Cf. N. Chomsky: Using the events of Vietnam, in the responsibility of the intellectuals.
[15] _Cf. N. Chomsky: The Israeli- Palestinian Conflict, in Democracy Now, Nov.2005.

فعلا والمفتوحة... علي التغيير والتجديد بل عن الإرهاب... والغطرسة والعدوان الأمريكي.

من هنا فإن أحاديث، وشعارات أمريكا عن الديمقراطية وحرية الشعوب... ومطالبتها بها إنما تندرج فيما يري "تشومسكي" ضمن سلسلة المناورات والأكاذيب..

ذلك ما تؤكده وكما أن أشرنا مواقفها المساندة لا للنظم الديكتاتورية فحسب، بل وللنظم العدوانية والممثلة لأراضي غيرها وفي مقدمتها إسرائيل [16].

ومن هنا كذلك فإن حديث الولايات المتحدة الأمريكية عن الإرهاب... وتباكيها علي ضحاياه، من الأمريكيين خاصة لا يجب وكما يقول "تشومسكي" أن ينسينا ...ما قامت به من إرهاب تجاه الشعوب خاصة العربية و الإسلامية [17].

ومن هنا أخيرا وليس آخرا تحويل أمريكا لظاهرة ولواقع الإرهاب إلي سلاح إيديولوجي، هدفه لديها ولدي الدول الغربية كذلك تغطية إرهابها، وإرهاب الدول الأخرى الخادمة لها ولمصالحها" وفي مقدمتها إسرائيل...كما سبق أن اشرنا.

لقد تصدي "تشومسكي" للسياسة العدوانية الانتقائية والإجرامية للولايات المتحدة الأمريكية ولتواطئي وسائل الإعلام والاتصال المساندة لها، كما أدان المثقفين الخامدين للسلطة... وعمل علي إيقاظ فكر وضمائر الناس العادين أمام هذا الواقع، أو بالأحرى أمام هذه المرآة الأمريكية المعكوسة و المكسورة، علي أمل إعادة

[16] _Cf. N. Chomsky: Traitor and Enemy of the People, In journal, Haaretz, Israel, 18mai, 2010.
[17] _Cf. N. Chomsky : Le 11 Sept 2001, The New York Times,4 mai 2004.

جبرها...خدمة للإنسان عامة ومن ضمنه للإنسان الأمريكي... الذي بدا في النهاية، وبالرغم من كل التقدم الذي حققته وكأنه جنّ مرآة "نيتشه" الذي سبقت الإشارة إليها.

2. ادوارد سعيد (Edward Saïd) (ت 2003):

"إدوارد وديع سعيد"..فلسطيني المولد، عربي الأصل، أمريكي الثقافة والجنسية، من الشخصيات الفكرية التي عرفها القرن العشرين... والتي لا تزال آثارها الفكرية والسياسية والثقافية فاعلة... في نواحي كثيرة من العالم.

أ ــ حياته:*

ولد إدوارد سعيد يوم 01ديسمبر 1935 بمدينة القدس، بفلسطين،(التي كانت في ذلك الوقت تحت الحماية البريطانية)، من عائلة ميسورة...انتقلت أسرته سنة 1947 من القدس إلي القاهرة أين أتم تعليمه الابتدائي والثانوي واحتفظت حتى النهاية بصفة اللاجئة بعد الاغتصاب الصهيوني لفلسطين سنة 1947.

إن هذه الغربة...وهذا الجو هما اللذان سيظلان في قلب وفي ضمير "ادوارد سعيد" حتى وفاته.

وفي سنة 1952أرسلته عائلته و لم يتجاوز عمره 17سنة، إلي الولايات المتحدة الأمريكية أين تابع دراسته العليا في جامعة (Harvard) حيث حصل علي الدكتوراه في الأدب المقارن (Littérature comparée) .

وفي سنة 1963 انظم إلي جامعة كولومبيا أين عمل فيها كأستاذ للأدب المقارن...حتى آخر حياته.

* _Sylvain Cypel : Edward Saïd, Un homme honnête, Le quotidien d'Oran, 28 Septembre 2003.

عاب "ادوارد سعيد" علي الراحل "ياسر عرفات"عدم معرفته بالمجتمع الأمريكي وقبوله باتفاقية أوسلو (Oslo 1993)، كما طالب طيلة حياته بدولة يهودية فلسطينية مزدوجة (Etat bi- national).

ب ــ مؤلفاته:[**]

يعتبر "إدوارد سعيد" واحد من أبرز المفكرين الذين أثروا من خلال كتاباتهم...في عصرهم..تماما مثل زميله "تشومسكي" وغيره، حيث أدخل تحولا كبيرا علي المقاربات الأدبية في الولايات المتحدة الأمريكية...وذلك من خلال تأسيسه لمقاربات جديدة بين الكاتب وبين ما يكتبه..حيث أن هذا الآخر، كما يلاحظ "إدوارد سعيد"، لا يكتفي بمجرد الكتابة لموضوعيته، بل إنه يقيم مشروعا (Projet) يحاول من خلاله بناء الصورة التي يريد أن يتركها عن نفسه للآخرين.

إننا إذا كنا لن نتوقف كثيرا هنا عند أعماله الأكاديمية فإننا نلاحظ مع ذلك أن إدوارد سعيد كتابه الاستشراف قد عمل علي دحض تلك الصورة المزرية، التي بناها الغرب، خاصة منذ "كبلينغ"[*] (R.Kepling) (ت 1963) الأمس، و"برنار لويس" اليوم (Bernard louis) (ت 2010) منه، والتي يهدف من ورائها إلي تمرير وتبرير

[**] ــ من بين مؤلفاته كتابه عن "جوزيف كوراد" (Joseph Courad) صديقه وأستاذ الأدب مثله في نفس الجامعة (كولومبيا) و الاستشراق (الشرق من خلال رؤية الغرب) (Orientalisme ou l'orient créé par l'occident) (1978) وهذا الكتاب يدشن لما بعد الاستعمار (L'après colonialisme) وقد أصدره مضافا إليه سنة 1975... و "بدايات" (Beginning) (1970) ، والثقافة والإمبريالية (Culture et Impérialisme) (1993) .

يضاف إلي ذلك العديد من المقالات والمحاضرات التي نشرت في جرائد ومجالات عالمية

[*] ــ هو صاحب مقولة الشرق شرق والغرب غرب، ولن يلتقيا (East is East, West is West and never twain shall meet)

استغلاله لثروات وخيرات هذه المنطقة... كما فعل ذلك، وحاول، خاصة منذ الحروب الصليبية وإلي اليوم.

إن هذه الصورة المزرية عن المشرق هي التي أكد "إدوارد سعيد" خطأها وخطرها... لأن الإسلام السائد فيها ليس كما يزعمون، ولأن مثل تلك الصورة إن كانت قد صحت في القرون الأخيرة، فإنها ليست من فعل الإسلام بل من فعل الاستعمار الغربي الذي جثم علي هذه المنطقة...قرونا...

كما أن هذه الصورة هي التي عمل "ادوارد سعيد" علي دحضها طيلة عشرين سنة وعلي كشف نزعتها التسلطية السياسية والثقافية علي حد سواء، ودحض صانعيها من أولئك الغربيين من مثقفي الإمبراطورية الأمريكية.

وفي كتابه الثقافة والامبريالية... واصل "ادوارد سعيد" نقده لتلك المفاهيم الاستعمارية والامبريالية الغربية العدوانية تجاه المشرق، خاصة، وتجاه دول العالم الثالث عامة، معلنا نهاية الاستشراق، وهذا في الوقت الذي كان فيه هذا الأخير يؤكد لكل من يريد أن يصدقه، خاصة أثناء الحرب علي العراق(1999ـ2003) أن طروحاته هي التي انتصرت في النهاية [18].

[18] _ Ed. Saïd : Culture et impérialisme,diverses éditions.

ـــ إدوارد سعيد: أمريكا الأخرى: (L'autre Amérique : une autre façon de voir l'Amérique)

إذا كان إدوارد سعيد واحدا من المدافعين عن المشرق الإسلامي الديني وعن ثقافته، وواحد كذلك من العاملين علي الإحياء الثقافي والسياسي للشخصية الفلسطينية فإنه يعتبر كذلك واحدا من المثقفين القلائل الذين تمثلوا بموضوعية الواقع الأمريكي، في كل أبعاده، خاصة الفكرة والاجتماعية والسياسية منها، وهي التي تهمنا هنا... ومن الذين نقدوه في العمق كذلك وبالتالي... وذلك من خلال العديد من المقالات في الجرائد والمجلات المختلفة ومن خلال العديد من المحاضرات في أكثر من بلد وجامعة في العالم.

في مقال له خص به دورية الموند ـــ ديبلوماتيك (Le Monde diplomatique) يقدم "إدوارد سعيد" صورة أخري، أو كيفية أخري للنظر إلي أمريكا (Une autre façon de voir l'Amérique).

فهو يؤكد ومثل كثير من المثقفين الأمريكيين بادئ ذي بدئ [19]، مبدأ أساسيا للسياسة الخارجية الأمريكية، وهذا المبدأ الذي يعود إلي عهد الرئيس الأمريكي "روزفيلت" (Th. Roosevelt)(ت1919) والمساندة بصورة شبه عمياء لإسرائيل من جهة، وللملكيات العربية في المشرق، من جهة أخري، خاصة السعودية منها...

[19]ـــ وذلك من أمثال "جون ديديون" (Jean Didion) و "جيمي كارتر" (Jemmy Carter) وغيرهم.

إن هذا التأييد لإسرائيل هو الذي وصل إلي حد اعتبار مجرد التساؤل، أو التشكيك في أي شيء تقوم به إسرائيل أمرا...محضور[20] ..ومعاداة للسامية.

وهنا لابد أن نلاحظ أن "إدوارد سعيد" حين يتحدث عن مثل هذه السياسة فإنه يتحدث عنها كخبير بحقيقة المجتمع الأمريكي ومكوناته الفكرية... والعرقية... ومجموعاته الضاغطة... والمؤثر.

كما أن "إدوارد سعيد" حين يتحدث عن الولايات المتحدة الأمريكية...وعن سياستها الخارجية، فإنه لا يؤكد فقط طروحات زميله "تشومسكي" وغيره كثيرون حول هذا الموضوع...بل إنه يؤكد حقيقة يعتبر هذه السياسة من الرؤساء والحكام أول من أقروا بها وهذا منذ الرئيس "ويلسن" (Wilson) وحتى، "جورج بوش" (G.Busch)، ومرورا بكل الرؤساء الذين عرفتهم الولايات المتحدة الأمريكية...طيلة هذه الفترة.

منذ بدايات القرن التاسع عشر وحتى الآن فإن سياسة العصا الغليظة (Le gros bâton) أسسها الرسميون الأمريكيون ضد كل الدول والشعوب التي رأوا أنها تهدف، مصالحهم وهيمنتهم... وهذا في الوقت الذي يدعمون فيه، بكل الوسائل وكما سبق أن أشرنا، النظم الاستبدادية" الخادمة لمثل هذه المصالح".[21]

[20]_ Ed. Saïd : L'autre Amérique, Le monde diplomatique, Mais, 2003.
[21] _Cf. Maurice Lemoine : Le Monde Diplomatique, Mai, 2003.

ومنذ الاغتصاب الصهيوني لفلسطين [22] والسياسة الأمريكية لا تزال تقف موقف الدعم اللامشروط...لإسرائيل ولعدوانها [23] ...وهذا باستثناء قلة أقل من القليلة من الرؤساء الأمريكيين ومن ضمنهم الرئيس الراحل، "جيمي كارتر"(Jammy Carter)، الذي لم يقف موقف المدافع للقضية الفلسطينية إلا بعد خروجه من البيت الأبيض[24].

هكذا ظل العالم العربي والإسلامي خاصة، والعديد من الشعوب الأخرى، في أمريكا وسياستها، وهو العداء الذي لم يزده سقوط حائط برلين (1989) وهلك الاتحاد السوفيتي (1991)، الذي حول لبعض الوقت أمريكا إلي القوة العالمية الأولي والوحيدة،[25] زاد هذا الموقف الأمريكي العدائي إلا حدة .

إن هذه السياسة الأمريكية، التي عبر عنها صراحة كل الساسة الأمريكيين وفي مقدمتهم نري"كيسنغر"..." الذي لا يوجد ديمقراطية يدافع عنها بل المصلحة العامة للولايات المتحدة الأمريكية...ولغيرها من الديمقراطيات الصناعية الأوروبية الغربية، المرتبطة بالثروات البترولية للخليج وبمدي المخاطر التي يحملها كل تطرف سياسي محلي في هذه المنطقة...وهو التطرف الذي يمكن أن يمتد إلي شمال إفريقيا...وإلي الهند وآسيا الوسطي[26] .

(22) _Cf. Alain Gresh : Israël- Palestine, Vérités sur un Conflit, Fayard, Paris,2001.
(23) _Cf. John Mearshimer and Stephen Walt: Israel Lobby and Foreign Policy, 2007.
(24) _ Jimmy Carter: Palestine: Peace, not Apartheid, 2006.
(25) _Cf. H. Kissinger: La nouvelle Puissance américaine, divers éditions.
(26) _Cf. T. Garcin: Revue Française de géopolitique, divers éditions.

كما أن هذه السياسة هي التي كانت ولا تزال الانتهاكات المستمرة من طرف الولايات المتحدة الأمريكية للقانون الدولي...باسم أنها القوة العالمية الوحيدة.

نعود إلي "إدوارد سعيد" وإلي نقده للسياسة الخارجية الأمريكية لنقول أن مثل هذه المقاربات لهذه السياسة وليد نقده المستمر لها...ولرموزها.

ومن مثلها كذلك استخلص "إدوارد سعيد" كذلك العديد من المفارقات التي تميز هذه السياسة...والمجتمع التي من المفروض أنها المعبرة عنه...والذي يمتزج فيه التدين الشديد في بعض الأحيان، بالظلم وبالعدوان، خاصة علي الشعوب غير الأمريكية، تماما مثلما تمتزج فيه أمريكا، الاستقامة والطيبة... والأريحية... والتقدم الاجتماعي...والنزعة الإنسانية الخيرة...بأمريكا... الأنانية... والاستغلال لغيرها من الأمم...والمادية...المفرطة...والاستهلاك الجنوني والفقر الداخلي ومحاولة السيطرة، والهيمنة والعدوان العسكري علي غيرها من الأمم والشعوب لخدمة مصالحها تحت شعار الدفاع عن الحرية وعن الديمقراطية... في الخارج [27] وأمريكا الثراء ...هي أمريكا الفقراء...الذين تجاوز عددهم اليوم الثلاثين مليون والعولمة المدمرة للإنسانية ...والليبرالية الجديدة المدعمة لها.

من هنا اعتقادها الأعمى بأن كل معارض لمصالحها، هو عدو لها...وحاسد لها...ولحريتها ولرفاهيتها ولعظمتها ...خاصة الأوروبيين الذين تمن عليهم

[27] _ Ed. Saïd : L'autre L'Amérique, le Monde diplomatique, Mars, 2003.

باستمرار...بأنها أنقذتهم مرتين، من طرف قرن واحد [28]، من دمار مؤكد لهم... ولبلدانهم بل ولوجودهم.

من هنا تلك المناوئة، لا الأوروبية، وغير المعلنة لأمريكا فحسب، بل ومناوئة كل شعوب العالم الثالث تقريبا لها...و في مقدمتهم الشعوب العربية والإسلامية لا نتيجة لمثل هذه المفارقات فحسب بل ونتيجة لنزعة الهيمنة ولدعمها غير العادل...والإنساني لإسرائيل...ولجرائمها اليومية والمستمرة منذ ما يقرب ستين عاما ضد الشغب الفلسطيني.

ومن هنا أخيرا، وليس آخرا، كانت أمريكا المتحررة، بعد حرب قاسية من ربقة الاستعمار الإنجليزي...أمريكا الثورة ثورة الجمهورية(La guerre d'indépendance)...و الحكم الديمقراطي...و تحرير السود، ثورة إعلان الاستقلال (1776) المؤكد لحرية كل إنسان في كل مكان في العالم، هي أمريكا التي قدمنا هنا، البعض من مفارقاتها ومن سلبياتها اليوم...

(28) _Ibid.

3. محمد حسين هيكل (1923ـــ ؟)

" محمد حسنين هيكل" واحد من الصحفيين الذين شاركوا، وقتا ما، هو وقت الراحل الرئيس "جمال عبد الناصر" (ت1970) في صناعة جزء غير يسير من السياسية العربية خاصة في المشرق العربي الذي كان طيلة الخمسينات وحتى السبعينات من القرن الماضي، العشرين، يهتز تحت بركان الثورة العربية...التي تزعمها "جمال عبد الناصر"...و التي خمدت، فجأة، بعد الهزيمة العسكرية العربية، المصرية السورية الأردنية، أمام إسرائيل في 05 يونيو1967، وخمد معها مثل ذلك الدور الذي كان لمصر ولهيكل في السياسة العربية.

أ ـــ حياته:

ولد "محمد حسين هيكل" بالقاهرة سنة 1923...وقد عمل في العديد من الصحف والدوريات العربية منذ نعومة أضافره حيث تقلد عدة مسؤوليات فيها منها رئيس تحرير مجلة الأخبار...ومدير جريدة الأهرام...

كما اشتهر "محمد حسين هيكل" بارتباطه الوثيق "بجمال عبد الناصر" وبوصوله إلي وثائق السياسية المصرية خاصة ما كان بإمكان أحد من الصحافيين المصريين، فضلا عن غير المصريين الوصول إليها.

وكان مقاله الأسبوعي بالأهرام "بصراحة" الذي كان يصدر كل يوم جمعة موضوع إهتمام من طرف كل المفكرين والساسة العرب...فضلا عن الساسة غير العرب خاصة الأمريكيين والأوروبيين منهم.

ب ــ مؤلفاته: *

ومهما قيل، ويقال عن "محمد حسين هيكل"، حول ادعاءاته الحصول علي إسرائيل لم يحصل عليها غيره، وتقديمه لأراء...يجزم أنها صادقة..ولا تقبل النقاش...وهي الآراء التي نلاحظ أنها أصبحت متجاوزة، إلي حد ما اليوم، وإنها إذا كانت قد انصبت علي أمريكا وعلي سياساتها وعلاقة مصر خاصة والعرب بها...فإن ما يعاب علي صاحبها أنه بالرغم من اهتمامه هذا بالولايات المتحدة الأمريكية، الذي بلغ حد الهاجس فإنه لم يتمثل بالقدر الكافي، ومثلما تمثل "ادوارد سعيد" أمريكا ومجتمعها...والعوامل التي تحركه...وتلك الأخرى التي تعيق حركته كذلك.

علي أن الحقيقة التي يجب أن نعترف "لمحمد حسنين هيكل" بها هي أسلوبه السهل الواضح والبسيط، ولغته السهلة التي تميز كل كتاباته الصحفية...ومحاضراته العديدة كذلك.

---

*ــ نحن وأمريكا (1968)ــوزيرا للإعلام في عهد السادات (1970) ــ Les documents du Caire ــ عبد الناصر والعالم (1972) ــ وثائق عبد الناصر (1972) ــ وثائق عبد الناصر (2)(1973) ــ لمصر لا لعبد الناصر (1976) ــ حكاية العرب والسوفييت (1979) ــ مدافع أية الله (قصة إيران والثورة) ــ

كتب "محمد حسنين هيكل" الكثير من الكتب حول السياسة بصورة خاصة، وهي الكتب التي نشير فيما يلي إلي البعض منها قبل أن نتوقف عند اثنين منها، ذات الصلة المباشرة بموضوعنا بشيء من التحليل والتفصيل.

ـــ نحن وأمريكا:

يتناول "محمد حسنين هيكل" الكثير من الكتب حول السياسة بصورة خاصة، (وهي الكتب التي نشر معظمها في ملحق الأهرام الأسبوعي بحث عنوان بصراحة)، قصة العلاقات بين مصر وأمريكا خاصة، وبين العالم العربي ممثلا في مشرقه الذي تموقعت فيه هذه الأخيرة بعد انسحاب بريطانيا وفي فترة ما بعد ثورة يوليو 1952.

كما يدين "محمد حسنين هيكل" ما قال أنه محاولات أمريكا احتواء وترويض الثورة المصرية خاصة في عهد (Lyndon .b Johnson) وعقابها ثم حربها. إسرائيل بعد ذلك، حرب 1967.

كما يدين كذلك السياسة الأمريكية المساندة بشكل أعمي ومطلق لإسرائيل ولامتلاكها لأرض الشعب الفلسطيني وعدوانها المتكرر ضد الدول العربية خاصة المجاورة لها.

ففي الفصل الأول من هذا الكتاب، والذي عنونه"بالمرض القديم ومضاعفاته الجديدة" يتساءل "محمد حسنين هيكل": عما الذي يجعل الولايات المتحدة الأمريكية تتصرف في العالم العربي بهذا الأسلوب الشرير والخطر؟

ويجيب "محمد حسنين هيكل" أن هذا الأسلوب..ليس حكرا خصصه الساسة الأمريكية و قصرته غلي العالم العربي...وإنما هو أسلوب المنطق العام الذي يحرك السياسة الأمريكية.

علي أن العالم العربي وكما يلاحظ "محمد حسنين هيكل" في فصل آخر يظل بفضل ثرواته ومميزاته المائية والبرية...الشغل الشاغل لأمريكا...التي حاولت احتواءه من خلال العديد من الأحلاف والمشاريع، حلف بغداد 1955 الحلف الإسلامي 1965، مشروع إيزنهاور (1957، التآمر علي وحدة مصر وسوريا (1961)، وبزوغ المشرق العربي الجديد يونيو (2009)...(في العشرية الأول من القرن الحادي والعشرين والهادف، حسب زعم "بوش"، الابن، إلي زرع الديمقراطية،وهي الديمقراطية التي لم يقبل بها في غزة وفي لبنان...مثلما لم يقبل بها من قبل الرئيس "نيكسون" (R. Nixon) في الشيلي (Le Chili 1972) [29].

[29]ــ جريدة الأهرام. القاهرة، من أعداد مارس 1967.

وبعد أن يقدم "محمد حسين هيكل"...نماذج العدوان الأمريكي وهذا ابتداءا من هيروشيما (اليابان) و الفيتنام (Vietnam) والدومنيكان (Dominicain)، وغواتي مالا (Guatemala).ثم الشيلي (Chili) و بانما (Panama)، وأفغنستان والعراق...إلخ.. بعد ذلك، يفسر مثل هذا العدوان برغبة الولايات المتحدة ورأسماليتها في التوسع، خارج أمريكا اللاتينية بعد أن أصبحت بعد الحرب العالمية الثانية، القوة الأولي في العالم...وبالدور الذي لعبته ويلعبه أصحاب مصانع الأسلحة في كل ذلك.

يضاف إلي ذلك دور الجامعات الأمريكية والمخابرات في التمهيد...والإعداد الجيد لمثل هذا العدوان...الذي مس العالم العربي...بصورة مستمرة، وذلك بهدف الاستغلال لثرواته البترولية...الهائلة...التي أصبحت مهددة بفعل الموجة الثورية التي دشنتها الثورة المصرية والجزائرية.

هكذا ولد تحالف بين رجال الصناعات الحربية الأمريكية والجامعات والمخابرات الأمريكية...باسم مواجهة العالم، أو المعسكر الشيوعي والصين...ووقف إمدادها وتهديداتهما للعالم الحر...وللمرتبطين به...ومن ضمنهم...العديد من النظم العربية الملكية في المشرق.

ـــ الإمبراطورية الأمريكية والإغارة علي العراق:

يتناول "محمد حسنين هيكل" في هذا الكتاب الأبعاد التاريخية والإستراتيجية والمستقبلية للإمبراطورية الأمريكية. وفيه يركز علي مفهوم الحرب في أذهان الرؤساء الأمريكيين.

كل رئيس يري أنه من الضروري لشعبه أن يكون له حرية. فالحرب كما يقول "جورج بوش" هي الوسيلة التي تكشف فيها الأمم موارد قوتها الداخلية مثل قوتها الخارجية.

يري أن الإمبراطورية الأمريكية:

إمبراطورية لا تقبل شراكة أو منافسة وتهدف إلي السيطرة الكاملة علي غيرها من الأمم خاصة ذات الثروات البترولية.

إن هذا الواقع والموقف الأمريكي، هو الذي حاول "محمد حسين هيكل" التوقف عنده وتحليله في أكثر من مؤلف...خاصة كتابه المعروف عن أمريكا...والذي سبقت الإشارة إليه.

كما أنه هو ذات الواقع الذي لا يزال العديد من المثقفين العرب من بعده متوقفين عنده...دون إمكانية من طرف العديد منهم لفهمه، فضلا عن تغييره.

III. أوباما أو البحث عن إنسانية أمريكية جديدة:

لأن الإنسانية (L'humanisme) مفهوما ونزعة إنما تعني أساسا...كل مذهب يتخذ من الإنسان قيمته المركزية ونقطة الانطلاق لكل القيم الأخرى، فإنه ظل منذ مؤسسه الأول[30] "شيشرون" (Cicéron) (ت 43ق م) وحتى "مارتن هيدغر"(Martin Heidegger) و "جون بوفري" (Jean Bauffret) ومرورا بكل

(30) _ Christian Godin : Dictionnaire de philosophie.

من الديانات والإنسانيين الآخرين...فإنه ظل مثل كل مثال غير متفق كثيرا مع الواقع وممارساته المختلفة [31].

بل إنه لا متفق كذلك مع مدخل وثيقة الاستقلال الأمريكي (Préambule de l'acte de l'indépendance) بصورة خاصة علي سبعة مبادئ إنسانية التي يجب تدعيمها...وهي المبادئ التي نورد البعض منها:

1. بأن الناس ولدوا أحرار.ا
2. أنهم حصلوا من خالقهم وعند ولادتهم، بعض الحقوق التي لا يمكن سلبهم.
3. إن من بين هذه الحقوق...الحق في الحياة وفي الحرية وفي البحث عن السعادة.
4. أن مهمته ومعني أي حكم هو العمل علي ضمان هذه الحقوق.
5. أن نظم الحكم إنما تستمد أحقيتها من رضا المحكومين.
6. إن للشعب الحق بالتالي، تغيير أو حل أي حكم يقضي علي مثل هذا (أو هذه) الأهداف.

إن "ناعوم تشومسكي" أول من يؤكد هذه الحقيقة وذلك حين يقول:" إن الهدف الأساسي للديمقراطية الأمريكية وللسياسة كذلك، هو الفائدة (إن "ناعوم تشومسكي" أول من يؤكد هذه الحقيقة وذلك حين يقول:" إن الهدف الأساسي

(31) _ M . Heidegger : Lettre sur l'humanisme (Lette à Jean Beaufret, 1946, Aubier, Paris, 1964.

للديمقراطية الأمريكية وللسياسة كذلك، هو الفائدة (Le profit)...ولذلك فإن مثل هذه الديمقراطية ليست، وكما يضيف ديمقراطية نظرا لهيمنة رأس المال (Le capital) عليها أنها ديمقراطية، منافقة (Hypocrite)، لا تنتج سوي مستهلكين (Consommateurs)" [32] .

نعود إلي "أوباما" لنقول بأن وصول أول رئيس أمريكي أسود من أصل إفريقي إلي البيت البيض الأمريكي...ولرئاسة الولايات حدثا مهما شكل لا بالنسبة للأمريكيين فحسب بل وبالنسبة للعديد من الشعوب خاصة الأوروبية السوداء منها...والعربية.

كما شكلت لهجته الجديدة...المسالمة، والداعية إلي الهيمنة للتعامل والتعاون مع كل الشعوب، لا انطلاقا من منطق القوة، والعدوان كما فعل معظم الرؤساء الأمريكيين الذين سبقوه ومن ضمنهم..."جورج بوش" الابن...ومثله كثيرون من أمثاله بل من منطق الاحترام المتبادل والتعاون المتكافئ والاحترام.

وإذا كان "أوباما" قد واصل حرب أفغنستان التي بدأها "جورج بوش" فإنه قد عمل منذ وصوله إلي الرئاسة علي إنهاء حرب العراق وسحب معظم القوات الأمريكية...وهو الانسحاب المقرر له أن يكون تاما ونهائيا سنة2014.

يضاف إلي ذلك مساعيه من أجل نهاية لسباق أسلحة الدمار الشامل بينه وبين روسيا، ومحاولته غير الناجحة، لحل القضية الفلسطينية علي أساس ...الدولتين.

---

[32] _Cf. Naom Chomsky : Le pouvoir mis à nu, édit ecosociété, Paris, 2002.

لكل ذلك تمتع "أوباما" لجائزة نوبل، ونالها 2009 باسم أمال السلام والإنسانية التي بدأ أنه يشيد بها ويعمل لها.

ولكي نقف علي جزء من هذه الروح الإنسانية والسلمية الأمريكية الجديدة لأوباما فإننا سينتهي هذا الفصل يعرض مقتطفات من خطابه الشهير المعروف الآن "بخطاب جامعة القاهرة" (يوليو 2009).

يعرض "أوباما" بادئ ذي بدء للتوتر الذي يسود العالم منذ زمن وبالتغيرات الحاسمة التي رافقت الحاثة والعولمة وحولت الغرب، مصدر هذه الحداثة وهذه العولمة، لا إلي معاد للمسلمين فحسب، بل ولكل شعوب العالم الثالث [33] .

أ ــ أمريكا والإسلام:

يقول أوباما " إننا نلتقي في وقت يشوبه توتر كبير بين الولايات المتحدة والمسلمين حول العالم، وهو توتر تمتد جذوره إلي قوي تاريخية تتجاوز أي نقاش سياسي راهن. وتشمل العلاقة ما بين الإسلام والغرب قرونا سادها حسن تعايش والتعاون، كما تشمل هذه العلاقة صراعات وحروبا دينية، وساهم الاستعمار خلال العصر الحديث في تغذية التوتر بسبب حرمان العديد من المسلمين من الحقوق والفرص، كما ساهم في ظل الحرب الباردة التي تعولمت فيها كثير من البلدان ذات الأغلبية المسلمة بلا حق كأنها مجرد دول وكيلة لا يجب مراعاة تطلعاتها الخاصة.

[33] _ Discours de l’université du Caire, Juillet, 2009.

وعلاوة علي ذلك حدا التغيير الكاسح الذي رافقته الحداثة والعولمة بالعديد من المسلمين إلي اعتبار الغرب معاديا لتقاليد الإسلام. مؤكدا أن أمريكا ليست عدو للإسلام أو للمسلمين".

ويعرف "أوباما" " أنه يقوم بذلك إدراكا مني بأن التغيير لا يحدث بين ليلة وضحاها. وكذلك علما مني بمدي الاهتمام العام في هذا الخطاب، ولكنه لا يمكن لخطاب واحد أن يلغي سنوات من عدم الثقة، خاصة بين أمريكا والمسلمين، كما أنه لا يمكنه أن يقدم الإجابة الوافية علي كافة المسائل المعقدة التي أدت إلي هذه النقطة. غير يؤكد أنه علي يقين من أنه يجب علينا من أجل المضي قدما أن نعبر لبعضنا البعض بصراحة عما هو في قلوبنا وعما هو لا يقال في كثير الأحيان إلا من وراء الأبواب المغلقة. كما يجب أن يتم بذل جهود مستديمة للاستماع إلي بعضنا البعض، وللتعلم من بعضنا البعض والاحترام المتبادل والبحث عن أرضية مشتركة. و ينص القرآن الكريم علي ما يلي: ﴿ **فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا** ﴾[34].

" وهذا ما سوف أحاول بما في وسعي أن أفعله اليوم وأن أقول الحقيقة بكل تواضع أمام المهمة التي نحن بصددها، اعتقاد مني كل الاعتقاد أن المصالح المشتركة بيننا كبشر هي أقوي بكثير من القوي الفاصلة بيننا".

يري "أوباما" "أن إدراك أوجه الإنسانية المشتركة فيما بيننا بطبيعة الحال مجرد البداية لمهمتنا، إن الكلمات لوحدها لا تستطيع سد احتياجات شعوبنا، ولن نسد هذه الاحتياجات إلا إذا عملنا بشجاعة علي مدي السنين القادمة، وإذا أدركنا

(34) _ سورة، النساء، آية، 09.

حقيقة أن التحديات التي نواجهها هي تحديات مشتركة، وإذا أخفقنا في التصدي لها، سوف يلحق ذلك الأذى بنا جميعا".

ب ــ أمريكا وأفغانستان:

كما يري "أوباما" كذلك وفي تطرقه للوضع في أفغانستان وباكستان، " أن القوة العسكرية وحدها لن تكفي لحل المشاكل في كل من أفغانستان وباكستان. ولذلك وضعنا خطة لاستثمار 1.5مليار دولار سنويا علي مدي السنوات الخمس القادمة لإقامة شراكة مع الباكستانيين لبناء المدارس والمستشفيات والطرق والمؤسسات التجارية علي 2.08 مليار دولار لمساعدة الأفغان علي تنمية اقتصادهم وتوفير خدمات يعتمد عليها الشعب ".

ج ــ أمريكا والعراق:

" اسمحوا لي أيضا أن أتطرق إلي موضوع العراق. لقد اختلف الوضع هناك عن الوضع في أفغانستان، حيث وقع القرار بحرب العراق بصفة اختيارية مما أثار خلافات شديدة سواء في بلدي أو في الخارج. ورغم اعتقادي بأن الشعب العراقي في نهاية المطاف هو الطرف الكاسب من هذه المعادلة، إلا أنني أعتقد أيضا أن أحداث العراق قد ذكرت في أمريكا بضرورة استخدام الدبلوماسية وبناء الإجماع الدولي لتسوية كلما كان ذلك ممكنا. وفي الحقيقة فإننا نستذكر كلمات "توماس

جيفرسن" الذي قال: "**إنني أتمني أن تنمو حكمتنا بقدر ما تنمو قوتنا وأن تعلمنا هذه الحكمة درسا مفاده أن القوة ستزداد عظمة كلما قل استخدامها**".

"إن أمريكا تتحمل اليوم كما أضاف مسؤولية مزدوجة تتلخص في مساعدة العراق علي بناء مستقبل أفضل، وترك العراق للعراقيين، إنني أوضحت للشعب العراقي أننا لا نسعى لإقامة أية قواعد في العراق أو لمطالبة العراق بأية من أراضيه أو موارده. يتمتع العراق بسيادته الخاصة به بمفرده. لذا أصدرت الأوامر بسحب الوحدات القتالية مع حلول شهر أغسطس القادم، ولذا سوف نحترم الاتفاق المبرم مع الحكومة العراقية المنتخبة بأسلوب ديمقراطي والذي يقتضي سحب القوات القتالية من المدن العراقية بحلول شهر يوليو و كذلك سحب جميع قواتنا بحلول عام 2012. سوف نساعد العراق علي تدريب قواته الأمنية وتنمية اقتصاده. ولكننا سنقدم الدعم للعراق الأمن والموحد بصفتنا شريكا له وليس بصفة الراعي ".

د ــ أمريكا والقضية الفلسطينية:

وبعد أن يؤكد "أوباما" أن أمريكا تدافع عن نفسها من خلال محاربتها للإرهاب وللإرهابيين، خاصة بعد أحاث 11سبتمبر2001...يتعرض "أوباما" لموقف أمريكا من القضية الفلسطينية فيقول" إن هذه القضية تشكل، بعد الإرهاب، المصدر الثاني للتوتر في العالم..."

من هنا رغبة في مناقشة الوضع السائد بين الإسرائيليين والفلسطينيين..والعالم العربي.

ويقر "أوباما" في هذا الصدد بمثابة الرابطة بين أمريكا وإسرائيل وهي حقيقة معروفة، كما يضيف، "علي أوسع نطاق، ولا يمكن قطعها أبدا، وهي تستند إلي علاقات ثقافية وتاريخية وكذلك الاعتراف بأن رغبة اليهود في وجود وطن خاص لهم هي رغبة متأصلة في تاريخ مأساوي لا يمكن لأحد نفيه".

"لقد تعرض اليهود حول العالم كما يضيف للاضطهاد علي مر القرون، وتفاقمت أحوال معاداة السامية في وقوع" المحرقة" التي لم يبق لها عبر التاريخ أي مثيل، وإنني سوف أقوم غدا بزيارة معسكر "بوخنفالد" الذي كان جزءا من شبكة معسكرات الموت التي استخدمها الرايخ الثالث لاسترقاق وتعذيب وقتل اليهود رميا بالأسلحة النارية وتسميما بالغازات. فقد تم قتل 6 ملايين من اليهود. يعني أكثر من إجمالي عدد اليهود بين سكان إسرائيل اليوم. إن نفي هذه الحقيقة هو أمر لا أساس له وينم عن الجهل وبالغ الكراهية. كما أن تهديد إسرائيل بتدميرها أو تكرار الصور النمطية الحقيرة عن اليهود، هما أمران ظالمان للغاية ولا يخدمان إلا غرض استحضار تلك الأحداث الأكثر إيذاء إلي أذهان الإسرائيليين وكذلك منع حلول السلام الذي يستحقه سكان هذه المنطقة ".

"أما من ناحية أخري فلا يمكن نفي أن الشعب الفلسطيني، مسلمين ومسيحيين، قد عانوا أيضا في سعيهم إلي إقامة وطن خاص لهم. وقد تحمل الفلسطينيون آلام النزوح علي مدي أكثر من ستين سنة، حيث ينتظر العديد منهم في الضفة الغربية وغزة والبلدان المجاورة لكي يعيشوا حياة يسودها السلام والأمن، هذه الحياة التي لم

يستطيعوا عيشها حتى الآن. يتحمل الفلسطينيون الإهانات اليومية، صغيرة كانت أم كبيرة، والتي هي نتيجة عن الاحتلال. وليس هناك أي شك من أن وضع الفلسطينيين لا يطاق، ولن تدير أمريكا ظهرها عن تطلعات المشروعة للفلسطينيين ألا وهي تطلعات الكرامة ووجود الفرص ودولة خاصة بهم ".

"لقد استمرت حالة الجمود إذن لعشرات السنوات: شعبان لكل منهما طموحاته المشروعة، ولكل منهما تاريخ مؤلم يجعل من التراضي أمرا صعب المنال، إن توجيه اللوم أمر سهل، إذ يشير الفلسطينيون إلي تأسيس دولة إسرائيل وما أدت إليه من تشريد للفلسطينيين، ويشير الإسرائيليون إلي العداء المستمر والاعتداءات التي يتعرض لها داخل حدود إسرائيل وخارج هذه الحدود علي مدي التاريخ، ولكننا إذا نظرنا إلي هذا الصراع من هذا الجانب أو من الجانب الآخر، فإننا لن نتمكن من رؤية الحقيقة: ولكننا إذا نظرنا إلي هذا الصراع من هذا الجانب أو من الجانب الآخر، فإننا لن نتمكن من رؤية الحقيقة : لأن السبيل الوحيد للتوصل إلي تحقيق طموحات الطرفين يكون من خلال دولتين يستطيع فيهما الإسرائيليون والفلسطينيون أن يعيشوا في سلام وأمن".

"في هذا السبيل يخدم مصلحة إسرائيل ومصلحة فلسطين ومصلحة أمريكا ومصلحي العالم، ولذلك سوف أسعي شخصيا للوصول إلي هذه النتيجة، متحليا بالقدر اللازم الذي تقتضيه هذه المهمة من الصبر والتفاني.إن الالتزامات التي وافق عليها الطرفان بموجب خريطة الطريق هي التزامات واضحة. لقد آن الأوان، من أجل إحلال السلام، لكي يتحمل الجانبان مسؤولياتهما، ولكي نتحمل جميعا مسؤولياتنا كذلك".

" يجب علي الفلسطينيين أن يتخلوا عن العنف، إن المقاومة عن طريق العنف والقتل أسلوب خاطئ ولا يؤدي إلي النجاح. لقد عاني السود في أمريكا طوال قرون من الزمن من سوط العبودية ومن مهانة التفرقة والفصل بين البيض والسود، ولكن العنف لم يكن السبيل الذي مكنهم من الحصول علي حقوقهم الكاملة والمتساوية، بل كان السبيل إلي ذلك إصرارهم وعزمهم السلمي علي الالتزام بالمثل التي كانت بمثابة الركيزة التي اعتمد عليها مؤسسو أمريكا، وهذا هو ذات التاريخ الذي شاهدته شعوب كثيرة تشمل شعب جنوب إفريقيا وجنوب آسيا وأوروبا الشرقية و اندونيسيا...فطريق العنف مسدود ".

وينهي "أوباما" خطابه هذا بتأكيد مواقف أمريكا من عدة قضايا عالمية أخري معروفة..مثل إيران وتسلحها النووي، وضرورة تحقيق الحرية والديمقراطية لكل الشعوب واحترام حقوق الإنسان ومن ضمنها حقوق المرأة..وحق التنمية والمعرفة والسلام لكل الإنسانية".

فهل سيحول هذا الخطاب مواقف أمريكا القديمة اتجاه دول العالم، خاصة العالم الثالث وفي مقدمته العالم العربي والإسلامي..

وهل سينهي العديد من الطروحات خاصة تلك المؤكدة لنهاية التاريخ "فوكوياما" (F. Fukuyama) وصدام الحضارات (Le choc des civilisations) (S. Huntington) (ت 2010) "برنار لويس" (Bernard Louis) ؟

للإجابة علي هذه الأسئلة هو أننا إدراكنا لا نشك في حسن نوايا "باراك أوباما"،فإننا، أدركنا إدراكا من بأن سياسة أمريكا لا يقررها شخص واحد، حتى ولو كان رئيسا، بل مجموعة لوبيات مرتبطة بمصالح...مصالحها أولا، ومصالح أمريكا وحلفائها بعد ذلك، لا نعتقد أنه سيكون من اليسير عليه تجسيد ما تعهد به في هذا الخطاب، وغيره من خطبه الأخرى..وتغيير السياسة الأمريكية الخارجية تغييرا يتماشي مع العدل والحق و مع هذه الإنسانية الجديدة الواعد بها...والتي تعد وكما يلاحظ "ادوارد سعيد" [35] الحصين ضد البربرية ذلك.

[35] _ Ed. Saïd : L'humanisme dernier rempart contre la barbarie, le monde diplomatique, Septembre, 2003.

الفصـــل الخامـــس

العالم العربي بين الليبراليـــة و البراغماتيـــة

I. الليبرالية و البراغماتية اليوم:

أشرت في مقدمة هذه الرسالة أن كلا من الإيديولوجيا الليبرالية، والفلسفة، أو المنهج، البراغماتي، لا يزالان فاعلان، بدرجات متفاوتة، في الواقع الأمريكي خاصة، وفي الواقع العالمي عامة، ومن ضمنه الواقع العربي وهو الذي يهمنا هنا.

ولا يغير من هذا التواجد تضخيم البعض من المثقفين الأمريكيين وغير الأمريكيين، ومن بينهم البعض من المثقفين العرب، لمثل هذا التواجد وتهويل البعض الآخر من هؤلاء المثقفين، الأمريكيين، وغير الأمريكيين منه.*

1. المثقفون الأمريكيون والليبرالية و البراغماتية:

أ ــ المؤكدون لاستمرار لدورهما في أمريكا وخارجها:

يؤكد البعض من المثقفين الأمريكيين، وغير الأمريكيين أن كلا من الإيديولوجيا الليبرالية ومن المنهج البراغماتي لا يزال فاعلان اليوم في الواقع الأمريكي، والعالمي، حجتهم في ذلك العولمة (La mondialisation_ La globalisation) وازدياد مكانة الربح والفاعلية في تسيير لا العلاقات الداخلية في المجتمع الأمريكي فحسب، بل وفي المجتمع العالمي كذلك.

* _Cf. Farber (M): L'activité philosophique contemporaine en France et aux Etats-Unis, PUF, Paris, 1950, PP 14_78.

لذلك فإن الليبرالية إذا كانت قد أصبحت أكثر ارتباطا خاصة منذ "مارغريت تاتشر" (M. Thatcher) (1925ــ ؟) و الرئيس الأمريكي الراحل " رونالد ريغان" (R. Reggan) (ت2004) بالعولمة، فيما عرف بالليبرالية الجديدة (Le néo_Libéralisme)، خاصة جناحها المشتغل ببعدها الإنساني [2]، تماما مثل البراغماتية التي لا تزال فاعلة في الفكر الفلسفي السياسي...والاقتصادي العالمي. وهنا بالرغم من ابتعادها عن الشكل الذي كان لها أيام زمن الرواد (بيرس ــ جيمس ــ ديوي)، وكذلك نتيجة لتفرعها، حتى لا نقول، اندماجها ضمن مجالات معرفية أخري، وذلك مثل اللسانيات... والمنطق...و الإيطيقا...إلخ [3]

ب ــ المثقفون المهونون من دور كل من الليبرالية و البراغماتية:

وعلي العكس من أولئك المباهين بالليبرالية و البراغماتية...والمؤكدين لاستمرار دورهما في الحياة الأمريكية... والعالمية، فإن هناك مثقفين آخرين، ينفون مثل هذا الدور، خاصة بالنسبة للبراغماتية [4]، بل وينفون وجود فلسفة أمريكية أصلا، ويؤكدون، أنها، إن وجدت، فإنه ليس لها موضوع محدد أو سمة مميزة لها عن الفلسفة الأوروبية [5] .

(2)_ G. Burdeau : Le libéralisme, PP, 295_296.
(3) _ Cf. N. Chomsky : L'Empire Américain, diverses éditions.
(4) _ P. Gauchotte : Le pragmatisme, PP, 122_123.
(5) _ H. W. Schneider : Histoire de la philosophie américaine, trad. Simonnet (Cl), édit. Gallimard, Paris, 1955, Introduction.

"فالفلسفة البراغماتية ماتت منذ زمن، ومن العيب الحديث بسوء عن الأموات" [6] ، والشباب الأمريكي لا يبالي بالعصر الذهبي للفلسفة الأمريكية (الفلسفة البراغماتية الأولي) [7].

علي ضوء هذه المواقف الأمريكية المتباينة من دور كل من الإيديولوجيا الليبرالية ومن الفلسفة أو المذهب البراغماتي في الواقع الأمريكي والعالمي اليوم، نعرض الآن لموقف المثقفين العرب من نفس الإيديولوجيا...والفلسفة أو المذهب الفلسفي.

II. العرب والليبرالية و البراغماتية:

1. موقف العرب من الليبرالية:

عرف العرب في العهد الجاهلي، ومن خلال قريش، نوعا من **الرأسمالية التجارية** التي كان مقرها مكة المكرمة، وهي الرأسمالية التي لم يفعل الإسلام و اللببيراليون العرب ، من أمثال "الطهطاوي" و"خير الدين" و"احمد لطفي السيد" و"علي عبد الرازق"... سوي تكييفها مع مقاصده الإنسانية.

وإذا كان العرب، والمسلمون، قد واجهوا، بالأمس الاستعمار والاحتلال الغربيين، والرأسمالية الحاملة لهما والباحثة، لتحقيق تطورها، عن مواد خام وعن أسواق لمنتجات صناعتها، في العالم العربي و الإسلامي، وفي العالم الثالث، فإنهم يواجهون اليوم الليبرالية، والليبرالية الجديدة (Le néo-libéralisme) وليدتي الرأسمالية، القائمتين علي الإيمان المطلق بالرأسمالية كمنهج أوحد ووحيد للاقتصاد،

---

(6) cf., A. Bodin : Contemporary Américain philosophy, Vol.4.

(7) _ M. Novak : La philosophie réinventée, trad. Franç. Édit. Gaignault, Paris, 1976, PP, 12_25.

وبالديمقراطية، الغربية، كسياسية وكأسلوب للحرية...الفردية ومنها والجماعية، الاقتصادية منها والتجارية...والتي تعد العولمة (Globalisation) أبرز إفرازاتها...

وأمام استفحال موجة هذه الإيديولوجيا الرأسمالية...الجديدة، خاصة منذ الثمانينات من القرن الماضي (العشرين)، خاصة علي يد كل من "م. تاتشر" والرئيس السابق "رونالد ريغان"...، وهو الاستفحال الذي لم يزده تفكك الإتحاد السوفييتي (1991)...وانهيار إيديولوجيته الاشتراكية فإن العرب خاصة مثقفيهم، ورجال الدين منهم، قد انقسموا...، لا حول هذه الإيديولوجيا (التي كان للإسلام فضل السبق للعديد من طروحاتها، ومن طروحات الإيديولوجيا الاشتراكية كذلك، لا الشيوعية) بل حول ما إذا كان عليهم تكييف الطروحات الاقتصادية الرأسمالية مع طروحات الإسلام، أم العكس، أي تكييف مثل تلك الطروحات الاقتصادية، المتقاربة في مجملها مع طروحات الإسلام؟.

أ ــ العرب المؤيدون لليبرالية:

تري هذه الفئة من المثقفين العرب، ومن رجال الدين الساسة [8]، أن الإسلام، مثل غيره من الديانتين السماويتين اللتان سبقتاه وهما اليهودية والمسيحية..لم يقف موقف المناوئ للرأسمالية، خاصة الاقتصادية منها.

[8]ــ نشير هنا إلي العديد من الأحزاب السياسية، العربية المعارضة وغير المعارضة قد تبنت نفس الموقف من الليبرالية وذلك من أمثال حزب الإتحاد الدستوري (المغرب)، وتيار الإسلام الليبرالي(العراق) والحزب الديمقراطي الموحد (السودان)، حزب الغد (مصر) ، الحزب الديمقراطي الليبرالي (لبنان).

ويضيف هؤلاء المثقفون، ممثلين بصورة خاصة في كل من "جمال البنا"، و"إياد جمال الدين"(مصر)، و "محمد السباعي" (سوريا) و "محمد مبارك"، و "محمد باقر الصدر"...وغيرهم، أن المطلوب اليوم من العرب ومن المسلمين، ليس رفض الواقع الذي تجسده الليبرالية اليوم علي المستوي العالمي، باعتبارها أصبحت الإيديولوجيا الوحيدة، بعد تواري الإتحاد السوفيتي والديمقراطية الاشتراكية، بل العمل، خاصة من طرف أهل الفكر ورجال الدين، الأكفاء علي طرح تفسير اجتهاديا جديد للنصوص الدينية بتجاوز المغلفة والمنغلقة علي ذاتها، التي أفرزتها قرون التخلف والاستبداد السياسي، خاصة تلك المتعلقة بالتجارة، والسكون بالاقتصاد وبالسياسة...يتماشي والتحديات المتعددة التي يواجهها العالم العربي والإسلامي، ويحقق لهذا الأخير تقدمه...وحريته ورفاهيته الذي قال عنه "ماكس ويبر" (Max Weber) أنه مضاد لليبرالية.

لذلك يؤكد الإسلام ومن خلال مثل هذا الاجتهاد صلاحيته لكل مكان وزمان وانفتاحه المتجدد علي الواقع...الإسلامي والإنساني وعلي أفكاره المتحررة، وهذا دونما مساس، في الوقت نفسه، وكما يضيفون، بروحه و بمبادئه الأساسية.

ب ــ العرب المتحفظون إزاء الليبرالية:

ولأن تجارب التاريخ قد أكدت فيما يري هؤلاء، للعديد من الأمم والشعوب أنه لا يمكن...انتظار النجاح لأي مذهب سياسي كان، أو اقتصادي مستورد...من الخارج... ومزروع زرعا داخل مجتمع...آخر ...فإننا لن نتوقف بالتالي عند تلك الآراء المطالبة بزرع الليبرالية زرعا في الوطن العربي والإسلامي وبتكييف كل مكونات ومعطياتهما، وفي مقدمتها المكون الديني مع طروحات مثل تلك

الليبرالية...فإننا سنتوقف فقط، وبالتالي عند البعض من أولئك المثقفين العرب، والمسلمين، المطالبين بضرورة تكييف الليبرالية وطروحاتها الاقتصادية، خاصة عن طريق الاجتهاد مع الإسلام ومع طروحاته حول نفس الموضوع.

1. الشيخ محمد المبارك:

لا يعارض الشيخ "محمد المبارك" مبدئيا الرأسمالية و طروحاتها الاقتصادية، شأنه في ذلك شأن العديد من الرموز الدينية في العالم العربي و الإسلامي، ولكنه يطالب بضرورة تكييف أو تجاوز البعض من طروحاتها تلك بما يتطابق...ومبادئ الإسلام ممثلا بصورة خاصة في القرآن الكريم وفي السنة النبوية الشريفة.

فهو يري أن خصائص النظام الاقتصادي الإسلامي يمكن تلخيصها فيما يلي:[9]

ـــ بناء النظام علي أسس اعتقاديه قائمة علي تصور عام للوجود والإنسان، وما يتولد من هذه الأسس من دوافع إيمانية نفسية تدعم النظام وتؤيده وتساعد علي تنفيذه.

ـــ استهدافه لأهداف أخلاقية، بدلا من هدف الإنتاج والربح المادي، وجعل الدوافع الأخلاقية والإنسانية محركات النظام، وتوليد شعور أخلاقي وديني يساعد علي حسن تنفيذ النظام.

ـــ بناء النظام علي تشريع مبني علي قواعد كلية، وأهداف اجتماعية واضحة، ومقترن بتأييد السلطة بالإضافة إلي وازع الضمير والدين.

---

[9] ـــ محمد المبارك: نظام الإسلام، الاقتصاد، دار الفكر ،بيروت، 1981، ص157ـــ158.

ـــ بناء هذا التشريع علي أساس العدالة وتكافؤ الفرص وعلي أساس التعاون والتكافل العام.

ـــ بناؤه علي أساس التوازن بين حرية الفرد ومصلحة المجتمع وجمعه بالتالي بين حرية الفرد وتدخل الدولة إقرارا للعدالة والتكافل ومنعا للظلم والاستغلال.

ـــ تميز هذا التشريع بمفاهيم خاصة للملكية والعمل تجعله مستقلا ومتميزا من، سائر الأنظمة الأخرى، جامعا بين مزاياها، مبرأ من نقائصها وعيوبها.

ـــ بناؤه علي أساس التوازن والتعاون والتكافؤ (وهما غير المساواة) بدلا من التنافس والصراع، وذلك بنتيجة تطبيق قواعده التشريعية وانعكاسا لمفاهيمه العقائدية والأخلاقية.

ـــ اتصاف هذا التشريع بثبات الاتجاهات والأسس ومرونة التطبيق والأساليب وقابليتهما للتبديل بحسب الأطوار والملابسات [10].

تبقي بعد ذلك بعض القضايا ..المرتبطة من جهة الخصائص، التي تميز بها ..النظام الاقتصادي في الإسلام، وبالنظام الرأسمالي الاقتصادي من جهة أخري وهذه القضايا هي[11] :

أ ـــ قضية الملكية. **ب ـــ قضية المال.** **ج ـــ دور الدولة.**

---

[10] ـــ محمد المبارك: نظام الإسلام، ص157ـــ 158.

[11] ـــ نفـــــس المرجع ، ص 112 ـــ 125.

أ ــ الملكية: (La propriété)

وهو يري أن مفهوم الملكية في الإسلام، التي تسمي الكسب تارة والملك تارة أخري، تختلف عن مفهومها في الليبرالية، فالملكية ممثلة في المال... وفي تجسداته ملك لله في الإسلام و ليس الإنسان سوي مستخلف فيها. كما أنها حق فردي...لكل إنسان.

وهي لا تكتسب إلا بالسعي وبالعمل...وليس عن طريق الاحتكار أو الربا أو المضاربة.

أن هذه الحدود تدفعنا إلي موقف القرآن من المال (النقود) جمعا...وتوزيعا.. و إنفاقا.

فلأن المال مال الله، في الإسلام، فإنه قد حدد طرقا شرعية لجمعه من خلال: رفضه للربا...وللطرق الأخر غير الأخلاقية لجمعه (كالبغار والرشوة والمضاربة والقمار و كتر الذهب والفضة) الخ.

كما حدد الإسلام طرقا وأهداف صرفه من خلال أنواع الصدقات (الزكاة) والكفارات...وغيرها.[12]

نلاحظ هنا مع "محمد المبارك" ومع غيره من المسلمين أن الإسلام حرم بشكل قاطع الربا [13]، لأنه كسب غير مشروع للمال بدون عمل...أو جهد، عكس تأجير

---

[12] ــ المرجع السابق.

[13] ــ" وأحل الله البيع وحرم الربا"، قرآن كريم، سورة البقرة، آية 174.

ــ" لعن الله الربا، وآكله وموكله وشاهده وكاتبه" حديث نبوي رواه البخاري.

الآلة...التي تولد بمجرد استلام من أستأجرها...فائدة له...ومنفعة لا ضرر، في تقاسمها مع صاحب تلك الآلة...مثلما هو مطالب بتقاسم الإفلاس المحتمل مع من أجره إن لم تدر عليه تلك الآلة فائدة بل خسارة.

وأخيرا فإن الإسلام يختلف عن الليبرالية في الدور الذي يجب أن تلعبه الدولة...لحماية المجتمع، من المضاربين... والمشتغلين و الوسطاء والمبذرين وصولا إلي تحقيق التكافل الاجتماعي...الذي يشكل هدفا أساسيا...للإسلام.[14]

[14] ــ محمد المبارك: نظام الإسلام، ص، 137.

2. محمد باقر الصدر: اقتصاد المجتمع الإسلامي[15]

لا يختلف هذا الفقيه الشيعي العراقي (قتل 1980)، بالنسبة للاقتصاد و لطروحات الإسلام خاصة ..حوله..عن معظم علماء المسلمين، سنة كانوا أو شيعة.

أ ــ خصائص النظام الاقتصادي الإسلامي:

يلخص "محمد باقر الصدر" خصائص النظام الاقتصادي الإسلامي فيما يلي:

"يتميز الاقتصاد الإسلامي عن كل من الاقتصاد الرأسمالي والاقتصاد الماركسي فالرأسمالية تعتبر العمل الإنساني عنصرا من عناصر الإنتاج وعلي مستواها ويحدد نصيب كل واحد منها علي أساس قوانين العرض والطلب بينما الإسلام لا يعتبر العمل الإنساني عنصرا من عناصر الإنتاج بل يري أن العامل هو محور الإنتاج وصاحب الحق فيه و أن سائر العناصر الأخرى من أدوات ووسائل ورؤوس أموال هي مساعدة له وخادمة لغرضه ولا تشاركه في الثروة وإنما يستحق أصحابها أجرا علي التعامل المنتج".

" وأما الماركسية فهي تعتبر العمل أساسا للقيمة التبادلية الجديدة في الثروة المنتجة وتجعل القيمة الجديدة ملكا للعامل لأن عمله هو الذي خلقها ولا يوجد مبرر علي الأساس الماركسي لملكية الجماعة لجزء من الثروة المنتجة لأن الجماعة ليس لها

[15] ــ محمد باقر الصدر : خطوط تفصيلية عن اقتصاد المجتمع الإسلامي، دار التعاون للمطبوعات، بيروت، 1979.

مساهمة في عملية الإنتاج وخلق القيمة الجديدة فلا يمكن تفسير ملكيتها علي أساس ماركسي".

" وهكذا نلاحظ أن إنسانية الاقتصاد الإسلامي وارتكازه علي الإيمان بملكية الله العامة، وخلافة الإنسان عنه هو وحده الذي يبرر تقاسم الثروة المنتجة بين الأفراد والجماعة بالمنطق القرآن القائل " آمنوا بالله ورسوله مما جعلكم مستخلفين فيه"[16] .

وعلي ضوء ما تقدم نعرف الإسلام يشجب الإنتاج الأولي بالطريقة الرأسمالية ويرفض اكتساب حق في قيمة السلعة المنتجة علي أساسها ومثال ذلك أن يدفع شخص الأجور إلي العمال ويزودهم بالأدوات فيباشرون عملية الإنتاج وفي حالة من هذا القبيل يستحوذ الرأسمالي دافع الأجور بينما لا يحصل علي شيء من ذلك في المجتمع الإسلامي لأن الإسلام لا يقر الطريقة الرأسمالية في الإنتاج" [17].

"وهناك حالة وحيدة لم تلغ فيها عملية الإنتاج الرأسمالي إلغاء تاما في الشريعة علي مذهب عدد من الفقهاء وهي حالة عقد المزارعة التي يتفق فيها صاحب الأرض مع المزارع الذي له البذر علي أن يقدم له أرضية ويشاركه في الحصول وهذه الحالة إذا لم تكن قُد ألغيت شرعا إلغاءا تاما كما يري بعض الفقهاء فهنا عناصر متحركة في الاقتصاد الإسلامي تدعوا من أجل إقصاء هذا النوع من العقود والمنع من ممارستها وفقا لما روي عن الرسول الأعظم صلي الله عليه وآله وسلم من منعه عن الاستثمار

[16] ــ سورة الحديد: آية 7.

[17] ــ محمد باقر الصدر: نظام الإسلام، ص، 64ــ47.

الرأسمالي للأرض وتخييره للمالك بين أن يزرع أرضه أو يسمح لآخر بأن ينتفع بها بدون مقابل وبإدراج عنصر متحرك".

" من هذا القبيل وفقا لصلاحيات ولي الأمر تتكامل الصورة من هذه الناحية وتستأصل كل أشكال الإنتاج الرأسمالي".

2ــ العرب و البراغماتية:

وكما تباينت مواقف المثقفين ورجال الدين العرب، من الليبرالية ، تباينت مواقف مثقفيهم، خاصة من الفلسفة أو المنهج البراغماتي ...بين مؤيد وبين ناقد ورافض له.

ونقدم فيما يلي البعض من هذه المواقف:

1ــ المؤيدوون:

أ ــ زكي نجيب محمود : البراغماتية فلسفة المستقبل (العربي)!؟

يري "زكي محمود " (ت 1999) أن أهم ما تميز به فلسفة "بيرس" هو أن نصفها بأنها فلسفة علمية، لكن هذه الصفة بدورها تحتاج إلي تحديد، فماهي الخصائص التي اجتمعت في تلك الفلسفة لتجعلها "عملية"، ألأن صاحبها هو نفسه عالم في الفيزياء والكيمياء؟ أهي فلسفة تقدم لنا النظريات والقوانين عن هذه الظاهرة من ظواهر الطبيعة أو تلك؟ كلا، فهي ما زالت كأية فلسفة أخري تحاول أن تجاوز حدود الظواهر الجزئية إلي حيث بناء الكون كله مأخوذا جملة واحدة، لكن الذي يجعلها "عملية" لا "تأملية" هو أنها إذا ما نسبت إلي الكون حقيقة ما، اعتمدت في ذلك علي تأييد الوقائع التجريبية. وقد لا يجيء هذا التأييد التجريبي علي يدي الفيلسوف نفسه، بل قد يجيء به باحثون من بعده، ولذلك كان الطابع العلمي يحتم أن تكون الفلسفة عملا إذا ما نظرنا إلي المنهج علي أنه الوسيلة المؤدية إلي جديد.

"ولأضرب لذلك مثلا فأقول إن من بين النتائج التي كانت الفلسفة الإنجليزية قد وصلت إليها بمنهجها نظرية "ترابط الأفكار" التي يعدها "بيرس" أهم نتيجة وصلت إليها الفلسفة في عصر ما قبل العلم" [18]

" عند البراغماتية، الذين هم علي مذهب "بيرس"، أن الفكرة خطة العمل، وقيمتها في نجاح تلك اللحظة. هي كالخريطة التي قيمتها كلها مرهونة لا بجمال ألوانها وحسن شكلها وإحكام رسمها، بل بكونها أداة صالحة في يد المسافر يعرف بها أين النهر وأين الجبل. ألا ما أكثر الناس اللذين يحسبون أن في رؤوسهم "أفكار"، حتى إذا ما سألتهم: وماذا تستطيع كل الأفكار أن تؤديه في دنيا العمل؟ لم يحيروا جوابا، لأنها ليست في الحقيقة أفكارا بالمعني الذي يحدده البراغماتيون. بل ما أكثر الفلاسفة الذين يتحدثون عما يسمونه "أفكارا" وهي في الحقيقة لغو لا ينفع ولا يشفع، وإذن فمقياسنا هو: ماذا عساي أن "أصنع" بهذه الفكرة أو بتلك، وبهذا الذي أستطيع أن أصنعه يتحدد "معني" الفكرة".

يلخص زكي نجيب محمود إلي أن:

" البراغماتية، أنها فلسفة المستقبل، بمعني أنها تقيس الأمر الراهن إلي ما يترتب عليه من نتائج عملية تستطيع الحكم عليه بقبول أو برفض، أن المعني الحقيقي للفكرة، هو مجموع التصرفات العملية التي تؤديها بناء عليها، فإذا كان لديك ما تزعم له أنه "فكرة"، ثم بحثت فلم تجد عملا واحدا تؤديه بناء عليها، فاعلم أنها ليست من الفكر

[18] ــ أنظر د. زكي نجيب محمود: من زاوية فلسفية، دار الشروق، القاهرة، 1979.

في شيء. لقد كان" شارل بيرس" أمام البراغماتية في العصر الحديث (وتبعه علي التوالي ثلاثة آخرون: "وليام جيمس"، و "شلر"، و "جون ديوي"، فكانت أربعتهم عند المذهب البراغماتي)، وفي العبارة الآتية التي قالها "بيرس" ما يبرز أهم خصائص هذا المذهب : " إذا كانت لديك فكرة، وأردت تحديدا لمضمونها، فانظر: ماذا عسي أن يكون لها من نتائج تطبيقية في دنيا العمل، ثم اجمع هذه النتائج العملية معا، يكن لك قوام فكرتك"، وبعبارة أخري، أن قولك: "إني أعرف كذا" مساو لقولك: " إني أستطيع أن أعمل كذا" وما ليس في وسعك أن "تعمل" به شيئا، لا يكون لك به "علم"، لأن علما بلا عمل يؤديه، كلام ينقض نفسه بنفسه" [19].

ويختم زكي نجيب محمود مقاربته للبراغماتية وللدور الذي يجب أن يكون لها في الوطن العربي بقوله:

" وسأترك الأمر للقارئ، ليفكر لنفسه كم تتغير حياته الثقافية إذا هو حاسب نفسه بهذا المعيار في "المعني"، فكلما نطق بكلمة أو عبارة، سأل: ما هو "العمل" الذي ينبني لي مثل هذا القول ، فعلا أو إمكانا، وإذا لم يجد لكلامه خطة منطوية علي عمل، فليوقن مع "بيرس"، ومعي، أنه كلام بغير معني" [20].

[19] ــ د. زكي نجيب محمود: ثقافتنا في مواجهة العصر، دار الشروق، بيروت، 1979، ص19 وما بعدها..

[20] ــ المرجع السابق، ص20.

إن نفس الموقف المدافع عن البراغماتية نجده عند العديد من المثقفين العرب الآخرين وذلك من أمثال "فؤاد زكريا"...[21] و "البخاري حمانة" [22] وغيرهم:

2 ــ المعارضون:

أ ــ "عبد الوهاب المستيري": البراغماتية فلسفة العنف والكوبوي .

وعلي العكس من هذا الموقف المؤيد للبراغماتية جاءت مواقف عربية أخري، معارضة لها ومن ضمنها موقف "المستيري"، فبعد أن ينتقد "عبد الوهاب المستيري" البراغماتية وموقفها السلبي من التاريخ [23] ينتهي إلي أن هذه الفلسفة، المتأثرة وإلي حد بعيد، فيما يري، بالفكر اليهودي والصهيوني، إنما هي في النهاية فلسفة العنف والكوباي...

يقول " حينما قرأت، في كتاب المختارات تحققت كل قناعتي من أن فلسفة "جيمس" رغم غطائها الإنساني المرن، البراق تخفي الحد الأقصى من العنف"
" فالفلسفة البراغماتية تدعي أنها تدرس السلوك الإنساني دون أوهام عن التاريخ".

"ولعل الاستيطان الصهيوني في فلسطين اكبر دليل علي إنكار التاريخ جزء من بناء البراغماتية ذاته، فالصهيوني لم يكن عنده عذر، ففلسطين كانت عربية وجزءا من تاريخ عربي قديم متماسك. ومع ذلك نجده يصر علي القول بأنها أرض بلا

---

[21] ــ أنظر فؤاد زكرياء: خطاب العقل العربي، طبعة الكويت، 1980.

[22]_ HAMMANA Boukhari : La pensée de Charles Sanders Peirce dans le monde arabe d'aujourd'hui,(conférence donnée à l'université de Harvard,1989, USA) et publiée dans plusieurs revues dont la revue Algérienne de philosophie, n°1, Algérie, 1997.

[23]ــ عبد الوهاب المستيري: الفردوس المفقود، الموسوعة العربية للنشر، بيروت، 1979، ص33ــ38

شعب (وإن كان وضع أمريكا الخاص قد ساعد ولا شك علي تدعيم أسطورة الفردوس اللاتاريخي".

ويضيف " أن بعض دارسي البراغماتية أن إنكار الأمريكيين لقيمة التاريخ مرده أنهم نشأوا في العالم الجديد وليس في العالم القديم، وأن الهنود الحمر كانوا يعيشون في اتساق مع الطبيعة وأن حضارته ذاتها لم تصل إلي وعي تاريخي بذاتها، ولذا كان من الحتمي علي اليانكي (Yankee)أن ينكروا التاريخ في بلد لا تاريخ له، ولكننا نعتقد أن لا تاريخية الوجدان الأمريكي تعود إلي بناء البراغماتية الكامن ذاته"

إن هذه النظرية عن التاريخ أو الحقيقة تشجع الفعل وتقلل من أهمية التنظير، ويبدأ هذا الفيلسوف الرقيق المؤمن بالفعل بطرح التقاليد جانبا، التقاليد الخاصة بطرق التفكير وعادات الحياة، وذلك حتى يؤكد استقلالية الفرد وحقه في أن يحرز النجاح ودرجة التميز والامتياز التي تقع داخل مجاله ، حسب تصوره، وبالطريقة التي تناسبه، وبالطريقة التي تناسبه، وبجهوده الخاصة، وحسب درجة المخاطرة الذي يخوضها أثناء صراعه الذي لا نهاية له في أن يعيش في هذا العالم المتغير الذي لم يخلق من أجله، هذا العالم الذي لا ضمان فيه لأي شيء. وكان "جيمس" يؤكد في مذكراته وأحاديثه أنه سيقوم بأداء واجبه مؤملا أن الأشياء الخارجية هي الأخرى ستقوم بأداء واجبها حتى يعم التناسق، ولكن دون أي ضمان أنها ستفعل، وغياب الضمان، حسب تصوره، هو جوهر التجربة الإنسانية الحقة، إذا لا بد وأن ينطوي موقف الإنسان في الحياة علي عنصر من التوتر النشط" [24].

[24] ــ المرجع السابق، ص25 ــ41.

"فهذا عالم تحفه المخاطر إذن، لا قوانين فيه ولا روابط، وهنا تبرز أهمية الإرادة الفردية المتحررة من أية قيود أو أغلال، فالحقيقة هي ما تعرفه أنت عن الواقع"

وكما يضيف " وهكذا فإن العالم البراغماتي الهادئ العملي إن هو إلا عالم "**نيتشوي دارويني**" يمر بالتغيير الذي يعمي الأبصار ويجرف كل شيء في طريقه إلا العبقري، أنه ولا شك عالم البقاء للأكثر عبقرية أو للأصلح. ونحن لا نبالغ إذا قلنا أن هذا هو جوهر رؤية "جيمس" للإنسان ، فحسب تصوره، الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يفترس أبناء نوعيه، إذ أن الإنسان قد تكيف و إلي الأبد مع حالة الحرب هي الطبيعة البشرية في ذروتها. والمجتمع سيصاب حتما بالعفن دونها، دون ذلك" البذل الصوفي للدم" كما يسميه "جيمس"،وما سمو العقل بين سائر البشر إلا نتيجة الرغبة في السيطرة ، إن تذبح الآخرين أو تذبح. يا إلهي! ماذا حدث للهدوء البراغماتي المرن العملي، والذي يتباهي به البراغماتيون ويتفاخرون؟ لقد ظهر "نيتشه" و "داروين " والسفك الصوفي للدماء"، نعم "الصوفي" كتابات براغماتي، كما لو كان في عالم بدائي رهيب، عالم "روسو" بعد أن سقطت أقنعته المتحضرة" [25].

[25] ــ المرجع السابق، ص41.

ويختم "المستيري" نقده للبراغماتية بملاحظته

" أن البراغماتية نشأت في تربة الرأسمالية الناهضة الواثقة من نفسها والمؤسسة بأخلاقيتها أو لا أخلاقيتها المبنية علي التنافس والصراع والفردية. ومن هنا كانت مثاليتها وعمليتها المفرطة. فهي مثالية مفرطة بسبب عمق إيمانها بمقدرة الرأسمالي الفرد علي أن يأتي بالعجب العجاب وأن يخلق فائض القيمة من العدم بأفكاره الذكية ومقدرته علي المناورة والبيع بأسعار مرتفعة. وهي مثالية في التزامها بفكرة الفرد الحر الروسوي (نسبة لروسو) الذي يسير بمفرده ويوقع علي ورقة تعاقدية هي كل ما يربطه بالمجتمع أو الدولة هي القيد الوحيد الذي ارتضاه لنفسه ليحقق لنفسه الأمن".

" أن المجتمع الأمريكي مجتمع ذرائعي لا يشغل نفسه بالحقيقة النسبية التاريخية ولا يبحث إلا عما يزيد من راحته وهنائه الماديين، والباحث عن الحقيقة سيجدها في كل ما يزيد الإنتاج وما يثبت كفاءته بغض النظر عن قيمته الإنسانية، وهذا تعريف "ديمقراطي" لأنه يساوي بين كل الأشياء وينفي كل تدرج في عالم المعرفة والقيمة: فليس هناك أعلي ولا أسفل، ولا يمين ولا يسار، والماديات تساوي المعنويات، والروح تساوي الجسد، والجميل لا يختلف عن القبيح، والجاهل لا يختلف في عمله و حكمته عن العالم، فالمعيار الوحيد هو النجاح. ويتغني ويتمان شاعر الذات الأمريكية الديمقراطية بهذه المساواة قائلا: " أنا شاعر الجسد وأنا شاعر الروح"

ملذات الفردوس معي وآلام الجحيم معي: "إنه لا يفرق بين الموت والحياة أو حتى بين الإنسان والحيوان لأنه حينما ينظر إلي الحيوانات فهو يري أن نفس القانون يسري عليه وعليهم، وهذا هو منتهي المساواة الكونية!" [26]

ب ــ وإلي جانب "عبد الوهاب المستيري" هناك العديد من المثقفين العرب الذين يتخبطون...بل وينتقدون البراغماتية بحجة أنها معادية للتراث...وبالتالي للدين الإسلامي، لأن التراث العربي إنما هو أساسا تراث تطور مع الإسلام ..وبفضله.

سبق أن أشرنا في مقدمة هذه الرسالة، وفي أكثر من فصل من فصولها إلي إمكانية، بل وإلي ضرورة عمل العرب علي الاستفادة الايجابية من كل من الليبرالية...ومن البراغماتية...اللتان تشكلان البعض من أهم عوامل التقدم ذلك...بفضل مثل هذه الإيديولوجيا وهذه الفلسفة أو المذهب الفلسفي.

وسيجد العرب الذين يتوقفون منذ زمن انحطاطهم إلي العودة إلي مسرح التاريخ، في كل من الليبرالية ومن البراغماتية..البعد الديني، الذي أشرنا أنه لا وجود للعرب بدونه.

---

[26] ــ المرجع السابق، ص35 ــ 44.

سيجد العرب الذين يعيشون اليوم ربيعهم السياسي (le printemps arabe) فهل سينجح العرب في تمثل هذه الليبرالية ومذهب البراغماتية وفي تكييفها مع واقعهم الديني الحضاري والثقافي والاجتماعي؟

وهل سيعمل العرب، والمسلمون علي مثل هذه الملائمة الضرورية بين جوهر دينهم و أهدافه...وبين الواقع الذي تمثله اليوم الليبرالية...خاصة...و البراغماتية...والذي سيشكل تخصيصا لا بتقنياته وعلومه فحسب، بل وبسياسته الظالمة غالبا...تحديا يوميا ومتجددا لهم ولتضامنهم كل يوم؟

الخاتمـــــــــــــــة

حاولت في هذه الرسالة أن أتعرض، من خلال فصولها المختلفة، لكل من الإيديولوجيا الليبرالية...والفلسفية، أو المذهب الفلسفي، البراغماتي، مفاهيما وتاريخا وتطورا ونتائج...دون أن تدعي مع ذلك أننا قد ألممنا بكل الجوانب المتعددة والمتشعبة...لها.

فالليبرالية، تظل، مثل البراغماتية، وليدة الفكر الإنساني وتطوره...ونشاطه...الذي لا يعرف توقفا، وتعقده الذي لا تفك الكثير من أسراره...ومن أثاره إلا...بعد وقت غالبا ما يكون أبعد من الآنية وعن الضرفية...

لقد شكلت كل من الليبرالية ومن البراغماتية، ولا تزالان، أبرز ظاهرتين ...عالمتين، منذ ما يزيد اليوم عن ثلاثة قرون...إن لم يكن أكثر من ذلك.

كما لعبت كل من الليبرالية، ولا تزالان تلعبان دورا، لا نعتقد أننا نبالغ كثيرا، حينما نصفه بأنه كان حاسما في تطور العديد من الدول الغربية، وفي مقدمتها، الولايات المتحدة الأمريكية التي لا يجادل أحد أنها ستظل تشكل واحدة من أهم القوي العالمية...إلي جانب قوي، اقتصادية وعلمية عالمية أخري هي بصدد البروز(الصين، الهند، البرازيل...) بعد أن أخذت بدورها بمثل هذه الإيديولوجيا وهذه الفلسفة.

إن هذه الدول والأمم قد بدأت تسلك طريق التقدم والتطور علي المستوي الجهوي والعالمي، لأنها عرفت، بدورها، كيف تجمع بنجاح، بين الليبرالية كعقيدة..و كمعرفة....نظرية مفتوحة و كطريقة للنجاح...و للرفاهية، وبين

البراغماتية كمذهب فلسفي في العمل والديمقراطي الفاعل، في الواقع المعاش تساعدهما في ذلك تطور العلوم...والصناعة والتقنيات وروح بحث، في مختلف مجالات المعرفة، لا يعرف توقفا أو حدودا.

غير أن ما يعاب علي هذه الإيديولوجيا و علي هذه الفلسفة و علي انحازاتهما هذه، بل لثوراتهما الفكرية والعلمية والعملية والتقنية، هو إغراقهما في الفردانية...و في النفعية و الذاتية...ورفعهما لشعارات حرية...أفرغت من طرفها وفي النهاية، خاصة من طرف الدول الغربية، ومن ضمنها، أو في مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية، من مضمونها الاجتماعي، بل و الإنساني، وتحولت إلي شعارات زائفة محولة بذلك، ومن خلال طغيان روح الكسب...وقانون السوق، والمنافسة غير الأخلاقية..، هذا التقدم إلي ما نسميه المرآة المكسورة...التي غاب فيها الإنسان وغيبت منها الإنسانية... و ما تعنيه من معان أخلاقية و تضامنية...و تعاونية.

من هنا أزمات الليبرالية، الأخلاقية والمادية علي حد سواء، وهي الأزمات التي لم تزدها إفرازات الأزمات الاقتصادية و المالية، التي بدأ يعرفها العالم منذ سنة 1929...و حتى الأزمة المالية الأسيوية 2008..، والعولمة (La globalisation) إلا حدة ، وهي الأزمات التي ، لم تعد تمس فقط وكما كان الحال من قبل إلا البلدان الفقيرة، و الاعتداءات العسكرية علي الشعوب بهدف ثرواتها، خاصة في العالم الثالث بل العديد من قطاعات الشعوب الأوروبية...خاصة طبقاتها الفقيرة.

ومن هنا كذلك تلك المحاولات المتواصلة...لإعادة التفكير ومن جديد في الليبرالية، علي كل من المستوي الاقتصادي والسياسي وذلك من خلال مطالبة العديد من رواد الليبرالية والليبرالية الجديدة... بليبرالية ديمقراطية... واجتماعية... وبحرية ذات مضمون اجتماعي وتضامني... وتشاركي.

إن العالم العربي، الذي يعيش ربيعه السياسي الجديد، ربيع الحرية...والديمقراطية و الكرامة التي بدأت ترتسم، بدقة متشبثة بالحكم، وبثورته، يتوق مثل غيره من الشعوب إلي التقدم وإلي إعادة الاندماج في مسار التاريخ الإنساني من جديد...من خلال فلسفة معبرة عنه، مكونة كل من الليبرالية...ومن البراغماتية مدعمتان لها بدورها، مع الأخذ بعين الاعتبار لكل هذه الإفرازات السلبية لكليتهما، التي لا تتنافي فقط ، مع حضارته وتراثه وتقاليده...وقيمة...بل ومع تلك السعادة المنشودة من وراء مثل هذه الحرية و هذا التقدم اللذين ينشدهما، خاصة وأن الليبرالية، والليبرالية الجديدة خاصة أصبحتا الإيديولوجيا الاقتصادية والسياسية الوحيدة في العالم، بعد تفكك الاتحاد السوفيتي، وتواري إيديولوجيته الاشتراكية

إن هذا الهدف هو ما تأمل هذه الرسالة أن تكون أسهمت في توضيح البعض من معالمه وفي توطيد الطريق، أمام بحوث عربية، أخري مقبلة، أكثر ثراء و حداثة وصولا إلي تقريب العالم العربي من هدفه هذا.

فهارس الأطروحة

فهرس الأعلام
فهرس المصطلحات
فهرس المصادر والمراجع
فهرس الموضوعات

فهرس الأعلام

ابن رشد 33، 34
ابن سينا 118، 119
ابن عربي محي الدين 119
أرسطو (Aristote) 34، 135
أرندت حنة (Arendt.H) 23
أفلاطون (Platon) 26، 34، 41، 122، 142، 172
الأكويني توما (d'Aquin.T)29، 122
ألتوسير لويس (Althusser.L) 11
ألمبيرت (d'Alembert) 64
إميرسون رالف (Emerson. R .W) 80
انجلز فريدريك (Engles.F) 9، 22
أوكام جيوم (Occam.G) 112
باركلي جورج (Berkeley.G) 81
بيري رالف بارتون " (Ralph Barton Perry) 73
برغسون هنري (Bergson.H) 76، 77
بريدج وود (Wood bridge) 73
بريهيه إميل (Bréhier.E) 36
بلوندل موريس (Blondel.M) 76، 77
بنتام جيرمي (Bentham.J) 76، 124، 131، 134، 148، 149
بوبر كارل (Popper.K) 26
بورس شارل سندرس (أو بيرس) (Peirce Charles Sanders) 69، 74، 76، 77، 83، 84، 85، 87، 88، 89، 90، 91، 92، 93، 94، 95، 96، 97، 98، 99، 100، 101، 102، 103، 104، 110، 111، 113، 114، 133، 141، 211، 221، 222، 223.

بيكون فرانسيس (Bacon .F) 61، 80
بيل دانيال (Bell.D) 49، 50، 51
بين ألكسندر (Bain. A) 81، 92
تشومسكي ناعوم (Chomsky.N) 178، 179، 180، ،181، 182، 183، 186، 199
تورو هنري (Thoreau.H.D) 80
توكفيل ألكسيس (Tocqueville.A) 143
جيفرسن توماس (Jefferson.T) 142، 146، 149
جيمس وليام (James.W) 74، 76، 83، 211، 223، 225، 226
داروين شارلز (Darwin.Ch) 79، 82، 226
دوركايم إيميل (Durkheim.E) 126، 134
ديتراسي ديسيتوت (De Tracy.D) 3، 4
ديكارت رونيه (Descartes.R) 79، 87، 88، 90، 97، 113، 124، 142
ديوي جون (Dewey.J) 211، 223، 74، 75، 76، 78، 83، 84، 140
راسل برانتد (Russel.B) 77، 105
راولز جون (.Rawls.J) 127، 143، 154
رورتي ريتشارد (Rorty.R) 107
روسو جان جاك (Rousseau.J.J) 124، 126، 156، 159، 160، 226، 227
روشيه جي (Rocher. G) 23
رونوفييه (Renouvier) 64
ريكاردو دافيد (Ricardo.D) 62، 143
ريمون ارون (Raymond. A) 4، 18، 49
سانتيانا جورج (Santayana.G) 73 ، 78

ساي جون (Say. J. B) 143
سبنسر هربرت (Spencer.H) 82، 183، 141، 143
سعيد ادوارد (Saïd.E) 185، 186، 187، 185، 189، 191
سقراط (Socrate) 61، 122، 172
سميث آدام (Smith.A) 124، 152
شانسي رايت (Chancy. W) 78، 80، 82
الصدر محمد باقر 214، 219
العروي عبد الله 15
غرين توماس (Green.T.H) 134، 135
غوييه هنري (Gouhier.H) 35
الفارابي 12
فوكوياما فرنسيس (Fukuyama.F) 48، 51، 149، 207
فولتير فرانسوا (Voltaire. F.M) 64
فيبر ماكس (Max Weber) 21، 22، 149، 157، 158، 214
كارل ياسبرس (Jaspers.K) 16
كانت (Kant.E) 75،40، 76، 77، 80، 87، 93، 101، 103، 124، 134
كواين ويلار (Quine W. V. O) 107
كونت أوغست (Comte.A) 30، 81، 110
كوندياك (Condillac) 3
كينز جون (Keynes.J.M) 62، 71، 130
لامارك.ب (Lamarck.B) 80، 82
لوك جون (Locke.J) 3، 126، 134، 143، 146، 148، 149، 151، 152، 156، 159

لوكاتش جورج (Lukacs.G) 11
لينين فلاديمير (Lénine.V) 10
ماديسون جيمس (Madison.J) 152
ماركس كارل (Marx.K) 9، 22، 33، 36، 39، 40، 44، 152
ماركيوز هربرت (Marcuse. H) 24
مالتوس روبرت (Malthus.R) 62، 143
ماندفيل برنارد (Mandeville.B) 64، 65
مانهيم كارل (Mannheim.K) 6 ، 12، 14، 15
مبارك الشيخ محمد 215، 217
محمود زكي نجيب 221، 222، 223
المستيري عبد الوهاب 224، 227
ماشفرون (Macpherson .C.B) 131
مل جون ستوارت (Mill.J.S) 134، 135، 143، 146، 149، 115، 152، 153
مل جيمس (Mill.J) 124
مور توماس (Moore.T) 29
موريس جورج (Morris G.S) 156، 162
مونتيسكيو شارل (Montesquieu.Ch) 64، 162
ميد جورج هربرت (Mead G.H) 138
نتيشه فريديريك (Nietzsche.F) 61، 76، 172، 184، 226
نوزيك روبرت (Nozick.R) 136
هابرماس يورغين (Habermas.J) 20، 131
هايك فريدريك (Hayek.H) 26، 135

هوبز توماس (Hobbes.T) 126، 148، 149، 150، 151، 152، 156، 161، 162
هوتينغتون صمويل (Huntington. S) 49
هوسرل إدموند (Husserl.E) 87
هومبولدز ولهايلم فون (Humboldt.W) 134
هيدغر مارتن (Heidegger.M) 34، 198
هيغل (Hegel.G.W.F) 40، 79، 124، 134، 135، 136
هيكل محمد حسين 193، 194، 195، 196، 197
هيوم دفيد (Hume.D) 62
وايتهد ألفرد نورث (Whitehead.A.N) 74

فهرس المصطلحات

فهرس المصطلحات

L’effet	الأثر
La difference	الاختلاف
L’autrui	الآخر
La volonté générale	الإرادة العامة
Le despotisme	الاستبداد
L’exploitation	الاستغلال
L’alienation	الاستلاب
La réforme	الإصلاح
La croyance	الاعتقاد
La majorité	الأغلبية
La minorité	الأقلية
Solipsisme	أنا وحدية
L’égoïsme	الأنانية
L’idéologie	الإيديولوجيا
Le pragmatisme	البراغماتية
Le pragmaticisme	البراغماطيقية
Le protestantisme	البروتستانتية
Expérience	تجربة
Verification	تحقق
L’évolutionnisme	التطورية
Le pluralisme	التعددية
Le progressisme	التقدمية

Egalités des chances	تكافؤ الفرص
Totalitarisme	توتاليتارية
La collectivité	الجماعية
L’intuition	الحدس
La liberté	الحرية
La liberté individuelle	الحرية الفردية
Le sens commun	الحس المشترك
Troupe	حشد
Les droits individuels	الحقوق الفردية
La vérité	الحقيقة
Bien commun	خير المشترك العام
Le dogmatisme	الدوغمائية
L’état	الدولة
Étatisme	دولنة
La démocratie	الديمقراطية
La démocratie participative	الديمقراطية التساهمية
La démocratie délibérative	الديمقراطية التشاورية
La démocratie représentative	الديمقراطية التمثيلية
Le capitalisme	الرأسمالية
Le désir	الرغبة
L’assertion	الزعم
L’autorité	السلطة

L’autoritarisme	السلطوية
Le comportement	السلوك
Le doute	الشك
Holisme	شمولية
Le conflit	الصراع
La tyrannie	الطغيان
L’opinion	الظن
Habitude	عادة
La justice	العدالة
Le contrat	العقد
Le dogme	العقيدة
La mondialisation	العولمة
la fin	الغاية
Caste	فئة
L’efficacité	الفاعلية
L’individu	الفرد
L’individualisme	الفردانية
La philosophie	الفلسفة
Le désordre	الفوضى
La légitimité	القانونية و المشروعية
La valeur	القيم

فهرس المصطلحات

Le faillibilisme	اللاوثوق
Le libéralisme	الليبرالية
Le néo-libéralisme	الليبرالية الجديدة
L’anarcho-libéralisme	الليبرالية الفوضوية
Le libéralisme absolu	الليبرالية المطلقة
L’ultra-libéralisme	الليبرالية المفرطة
groups de Pression	مجموعات الضغط
L’égalité	المساواة
L’intérêt	المصلحة
Le sens	المعني
La propriété privée	الملكية الفردية
La méthode	المنهج
La citoyenneté	المواطنة
Méliorisme	ميليبوغيزم أو الأفضلية
Élitisme	نخبوية
Le nouvel ordre mondial	النظام العالمي الجديد
L’utilitarisme	النفعية/ الأداتية
L’instrumentalisme	الوسيلية
La certitude	اليقين
L’utopisme	اليوتوبيا

قائمة المصادر والمراجع

قائمـــــــــــة المراجع و المصادر الأجنبية و العربية

القرآن الكريم.

الحديث النبوي الشريف.

I.المراجع و المصادر الأجنبية:

1. المراجع الأجنبية:

أ.الليبرالية:

Audard (C): Qu'est-ce que le libéralisme ? Ethique, politique, société, Gallimard, Paris, 2009.

Burdeau (G): Le libéralisme, Introduction, Seuil ,Col. Point, Paris,1979.

Cotta (A) : Le capitalisme, Que sais-Je ? PUF, Paris, 1972.

Glaston (W): Liberal Pluralism. The implication of value pluralism for political theory and practice, UP, Cambridge, 2002.

Keynes J.M. : Le libéralisme politique, édit. Du Seuil, Paris, 1993.

_____: « Suis-je un libéral ? », Gallimard, Paris, 2002.

Rosanvallon (P) : Le libéralisme économique, édit. Du Seuil, Paris, 1989.

ب.البراغماتية:

Peirce (Ch. S): Chance, Love and Logic, (diverses editions).

_____: Collected Papers, (C.P), éd Hartshorne, Weiss and Burks, Harvard University Press, USA, 1974, 8 Vols.

_____: Comment rendre nos idées claires, trad. Claudine Tiercelin et Pierre Thibaud, édit. Cerf , Paris, 2002.

_____: The Fixation of The Belief, « Comment se fixe la croyance », trad. C. Tiercelin et P. Thibaud, édit. Le Cerf, Paris, 2002.

Ch. S. Peirce: Values in Universe of chance, New York, 1905

Gauchotte (P) : Le pragmatisme, que sais-Je ? PUF,1992.

Tiercelin (C) : Ch. Peirce et le Pragmatisme, PUF, Paris ,1993.

2. المصادر الأجنبية:

Ackermann (B) :Au nom du peuple, Les fondements de la démocratie américaine, Calmann- Lévy, Paris, 1991.

Althusser (L) : Pensée pour Marx, (diverses éditions).

Arendt (H) : Les origines du totalitarisme. Le système totalitaire, Seuil, coll. « Points politique », Paris, 1972.

Aristote : Ouvres Complètes, (diverses éditions).

Aron (R): Essais sur les libertés, Calmann- Lévy, Paris, 1965.

_____: L'opium des intellectuels, Gallimard, Paris, 1962.

Barker (E) : Social Contract, London, Oxford University Press, 1947.

Baudrillard : La guerre du Golfe n'a pas eu lieu, édit Galilée, Paris, 1991.

Benabi (M): Le problème des idées dans le monde musulman, édit, El-Bayane, Alger, 1990.

Bentham (J) : Fragment sur le gouvernement 1776, LGDJ, Paris, 1996.

Berlin : Éloge de la liberté 1958, Calmann- Lévy, Paris, 1988.

Bodin (A) : Contemporary Américain philosophy, Vol.4.

Bottigelli (E) : Genèse du Socialisme scientifique, édit Sociales, Paris, 1962.

Bréhier (E) : Histoire de La philosophie, PUF, 1945, T2.

Chomsky (N): Anti- Semitism and the Palestine's

_____: L'empire Américain.

_____: Le pouvoir mis à nu, édit ecosociété, Paris, 2002.

_____: Le 11 Sept 2001.

_____: Using the events of Vietnam, In the responsibility of the intellectuals.

Constant (B): Écrit politique 1814-1829, Gallimard, Paris, 1997.

De Tracy (D): Dissertations sur quelques questions d'idéologies, PUF, Paris, 1779.

Deledalle (G) : La Philosophie Américaine, édit. L'Age d'homme, Lausanne, Suisse ,1983.

Descartes (R) : discours de la méthode, (diverses éditions).

_____: Principes de philosophie, (diverses éditions).

Dewey (J) : Démocratie et éducation, trad. Gérard Deledalle, édit. L'Age d'homme, Paris, 1983.

Dumont (F) : Les idéologies, PUF, Paris, 1967.

Dumont (L) : Essais sur l'individualisme, édit. Seuil, Paris, 1983.

Durkheim (E) : La division du travail social, (diverses éditions).

Faith (S) : Militant de la Bible aux Etats Unis, édit. Autrement, Paris, 2004.

Farber (M): L'activité philosophique contemporaine en France et aux Etats-Unis, PUF, Paris ,1950.

Ferry (J) : Discours et opinons, T.I.V, 1898.

Freeden (M): Ideologies and political theory, Oxford university press, Oxford, 1996.

_____: The New Liberalism, An Ideology of social reform, Clarendon Press, Oxford, 1986.

Fukuyama (F) : La fin de l'histoire et le dernier homme, trad. Franç, Gallimard, 1992.

Gouhier (H) : La philosophie et son histoire, Librairie philosophique, J.Vrin, Paris, 1948.

Gresh (A) : Israël_ Palestine, Vérités sur un Conflit, Paris, Fayard,2001.

Halévy(E) : La formation du radicalisme philosophique 1901, PUF, Paris, 1995.

Hayek(F) : Droit, législation et liberté 1973, 1976,1979, PUF, Paris, 3Vol, 1995.

_____: La constitution de la liberté 1960, édit. Litec, Paris, 1994.

Hegel (G.W) : Phénoménologie de l'esprit, trad J.Pierre Lefebvre, Aubier, Paris, 1807.

_____: Principe de la philosophie du droit 1820, Flammarion, Paris, 1999.

Heidegger (M) : Lettre sur l'humanisme (Lette à Jean Beaufret, 1946, Aubier, Paris, 1964.

Hirschman (A): Les passions et les intérêts 1977, PUF, Paris, 1980.

Hobbes (T) : Léviathan 1651, Gallimard, Paris, 2000.

Hume (D): Traité de la nature humaine1740, Flammarion, Paris, 1993.

Huntington (S): The clash of civilisation, Freign Affains, 4, USA, May, 1994.

Jaspers (K): Introduction à la philosophie, (diverses éditions).

Kant (E): Critique de la raison pure, trad. J.Barni, Flammarion, Paris, (sd).

_____: Idée d'une histoire universelle, 1795, PUF, Paris, 1958.

_____: Les fondements de la métaphysique des mœurs, 1758, (diverses éditions).

_____ : Vers la paix perpétuelle 1795, PUF, Paris, 1958.

Kissenger.H *:* La nouvelle puissance américaine, Fayard, Paris, 2001.

Kof Sausse (S): Le miroir brisé (L'enfant handicapé et l'attitude des parents) édit. Calmann- Lévy, Paris, 2010.

_____: Le miroir mythologique, édit 2010.

Laboulaye (L.E) : Le partie libéral, son programme et son avenir, Paris.

Locke (J): Lettre sur la tolérance 1689, Slatkine, Paris, Genève, 1980.

_____: Traité du gouvernement civil 1690, Flammarion, Paris, 1984.

Macpherson (C.B) : La théorie politique de l'individualisme possessif. De Hobbes à Locke, Gallimard, Paris, 1971.

Mandeville (B) : La fable des abeilles 1723, J. Vrin, Paris, 1998.

Mannheim (K) : Idéologie et Utopie, trad. France Edition, Rivière, Paris, 1956.

Marcuse (L) : La philosophie américaine, Gallimard, Paris, 1967.

Marx (K) et Engels (F) : Leurs vie et leurs œuvres, PUF, Paris, 1955_1970, 4 Volumes.

_____: Œuvres Philosophique, (diverses éditions), Paris, Juin, 1970.

Mearshimer (J) and Walt (S): Israel Lobby and Foreign Policy, 2007.

Meszaros (I): The power of Ideology, Hawester Weatsheaf, New York, 1989.

Meynaud (J): Les Attitudes politiques, que Sais-je ? PUF, Paris, 1962.

Mill (J. S) : de la liberté 1859, Gallimard, Paris, 2001.

_____: L'utilitarisme 1861, PUF, Paris, 1998.

Montesquieu (C. L) : De l'esprit des lois 1748, Gallimard, Paris, 1995.

Morton (W) : La pensée sociale en Amérique, trad. M. Levi, PUF, Paris, 1963.

Naquet (P.V) : Le miroir brisé, tragédie athénienne, édit Les belles lettres, Paris, 2002.

Newton (I) : Principes mathématiques et philosophie naturelle,

Nietzsche (F) : Ainsi parla Zarathoustra, Gallimard, Paris, 1965.

Novak (M) :La philosophie réinventée , édit. Gaignault, Paris, Sd.

Nozick (R) : Anarchie, État et utopie, PUF, Paris, 1974.

Platon : La République, (diverses éditions).

Popper (K): La société ouverte et ses ennemis 1945, édit.du Seuil, 1980, 2 vol.

Rawls (J) : Théorie de la justice, édit. Du Seuil, Paris, 1971.

Rodinson (M) :La sociologie et L'idéologie marxiste (diverses éditions)

Rousseau (J.J) :Le Contrat Social, (diverses éditions).

Russel (B): Problème de philosophie, Trad. De Guillemen, édit. Payot, Paris, 1972.

Saïd (Ed): Culture et impérialisme(diverses traductions françaises).

Schneider(H.W):Histoire de la philosophie américaine, édit. Gallimard, Paris, 1955.

Smith (A) : Recherche sur la nature et les causes de la richesse des nations1776, PUF, Paris, 1995.

_____: Théorie des sentiments moraux 1759, PUF, Paris, 1995.

Tiercelin (C) : Le doute en question. Parades pragmatistes au défi sceptique, édit. L'Éclat, Paris, 2005.

Tocqueville (A) : De la démocratie en Amérique 1835, in Œuvres complètes, Gallimard, Paris, 1992, vol. II.

Touchard (J) : Histoire des idées politiques, (diverses éditions).

Vernant (J): L'Amérique d'aujourd'hui, PUF, Paris, 1985.

Weber (M) : L'étique protestante et l'esprit du capitalisme, (diverses éditions).

II.المراجع و المصادر العربية:

أ. المراجع:

زكي نجيب محمود: ثقافتنا في مواجهة العصر، دار الشروق، بيروت،1979.

ـــــــــــــــــ: حياة الفكر في العالم الجديد. دار الشروق، القاهرة، 1956

ـــــــــــــــــ: من زاوية فلسفية ، دار الشروق القاهرة، 1979.

ب.المصادر:

ابن سينا: الشفاء، الفن الأول من جملة العلم الرياضي، أصول الهندسة، مراجعة إبراهيم بيومي مذكور، تحقيق عبد الحميد صبره، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976.

ابن رشد : فصل المقال، تقديم محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، 1994

ابن خلدون: المقدمة، دار الكتاب اللبناني، 1978.

أحمد أنور: النظرية و المنهج في علم الاجتماع، (عدة طبعات).

باراك أوباما، خطاب القاهرة، يوليو، 2009.

جوران ثربورون:إيديولوجيا السلطة وسلطة الإيديولوجيا ، ترجمة إلياس مرقص، دار الوحدة، بيروت، 1982.

ج.س.هيرسون: سياسات و أفكار، دراسة علمية تحليلية لمفهوم النظرية السياسية الاجتماعية، مع تطبيقاتها علي واقع السياسة الأمريكية العامة، ترجمة صلاح الدين الشريف، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

زكرياء إبراهيم : مشكلة الفلسفة ، مكتبة مصر، القاهرة، 1960.

عبد الله العروي: مفهوم الإيديولوجيا، دار التنوير، ط1، بيروت، 1983.

عبد الوهاب المستيري: الفردوس المفقود، الموسوعة العربية للنشر، بيروت، 1979.

على ليلة: البنائية الوظيفية في علم الاجتماع و الأنثروبولوجيا، دار المعارف، القاهرة،1982.

ف.ب. توغارينوف: الطبيعة والحضارة والإنسان، ترجمة رضوان القضماني، ونجم خريط، دار الفارابي، بيروت، 1987.

فؤاد زكرياء: خطاب العقل العربي، طبعة الكويت، 1980.

فؤاد كامل: الفرد في فلسفة شوبنهاور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1991.

فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ والإنسان الأخير، ترجمة ومراجعة مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي ،بيروت،1993

محمد الكحلاني: الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2004.

محمد المبارك: نظام الإسلام ، الاقتصاد، دار الفكر ،بيروت، 1981.

محمد باقر الصدر : خطوط تفصيلية عن اقتصاد المجتمع الإسلامي، دار التعاون للمطبوعات، بيروت، 1979.

محمود قاسم: فكرة الإنسان في مذهب محي الدين بن عربي، دراسات فلسفية بإشراف عثمان أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974.

ميشيل فاديه: الإيديولوجية ، وثائق من الأصول الفلسفية، ترجمة أمينة رشيد وسيد البحراوي، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 1982

نبيل رمزي: سوسيولوجيا المعرفة، جدل الوعي والوجود الاجتماعي، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، 2001.

يونغ. ك.غ: جدلية الأنا و اللاوعي، ترجمة نبيل محسن، دار الحوار للنشر والتوزيع،اللاذقية، سوريا، ط1، 1997.

القواميس

ـــ بالعربية

ابن منظور: لسان العرب: طبعة جديدة، دار المعارف بمصر، الجزء الخامس.

الشيخ عبد الله البستاني: الوافي، معجم وسيط اللغة العربية، مكتبة بيروت، طبعة جديدة،1990 .

جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني،1982.

محمد عاطف غيث : قاموس علم الاجتماع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979.

مراد وهبة: المعجم الفلسفي، دار الثقافة الجديدة، القاهرة،ط3، 1979.

ـــ بالفرنسية

Foulquié (P): Dictionnaire de la langue philosophique, PUF, Paris, 1978.

Godin (Ch) : Dictionnaire de la philosophie, Fayard, Paris, 2004.

Lalande (A) : Vocabulaire technique et critique de la philosophie, PUF, Paris, 1951.

Le Robert : (divers éditions).

Le marxisme, (Lénine et l'Etat), (diverses éditions).

قائمة الدوريات :

ـــ باللغة العربية:

البخاري حمانة: الفلسفة العربية إلي أين؟ كتاب مستقبل الفلسفة المعاصرة في الوطن العربي والعالم، دار الحكمة، بغداد،2000.

ـــــــــــــ: دفاعا عن الفلسفة، مجلة الثقافة، الجزائر، العدد، 94، 1986.

ـــــــــــــ: عن الفلسفة وعن الحرية في القرن الحادي والعشرين، (فلسفة الحرية) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، 309 العدد،2009.

هيثم الجنابي: في سؤال التوتاليتارية ، الحوار المتمدن، العدد2600، 2009.

حسن حنفي: " الجذور التاريخية لأزمة الحرية و الديمقراطية في وجداننا المعاصر"ضمن ملف" الديمقراطية وحقوق الإنسان في الوطن العربي"، مجلة المستقبل العربي، العدد 4، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1983.

راسل جاكوبي : نهاية اليوتوبيا ، السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة ، ترجمة فاروق عبد القادر، عالم المعرفة ، العدد 269 ، الكويت ، مايو ، 2001.

فاضل الجمالي: الإيديولوجيا و الفلسفة، مجلة الفكر المعاصر، بيروت، العدد 2، 1980.

محمد هاشمي، في مفهوم العدالة عند "جون راولز"، مجلة مدارات فلسفية، الجمعية الفلسفية المغربية، 2002، العدد، 18.

مطاع صفدي: العقلانية وإيديولوجيا التقنية في المشروع الثقافي الغربي،مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، العدد16، 1981.

منذر شباني: مجلة الثورة، مؤسسة الوحدة للطباعة والصحافة و النشر، دمشق.(ب.ت)،

نمير العاني: حول مفهوم الحقيقة في الفلسفة البراغماتية ، مجلة الطريق، بيروت، العدد السادس، 1980.

سعيد زيداني: الديمقراطية_الليبرالية ومفهوم الدولة المحايدة، مجلة المستقبل العربي، العدد279، 1994.

ـــــــــــــ :إطلالة علي الديمقراطية الليبرالية، المستقبل العربي،العد 135 ،1990.

ـــ باللغة الأجنبية:

Aron (R): L'idéologie, Revue recherches philosophique, VI, 1977.

Carter (J) : Palestine, Peace not Apartheid, 2006.

Garcin (T) : Revue Française de Géopolitique N2, (Les frontières de la barbarie), PUF, Marne- la vallée, Mai 2002.

Dumont (L) : Le concept moderne de l'individu, Revue Esprit, Paris, Février, 1978.

_____: Revue, Esprit, Essais sur L'individualisme, Paris, Mars, 1975.

HAMMANA Boukhari : La pensée de Charles Sanders Peirce dans le Monde arabe d'aujourd'hui (conférence donnée à L'université de Harvard, 1989, USA) et publiée

dans plusieurs revues dont la revue Algérienne de philosophie, n°1, Algérie, 1997.

Lalaoui (A): Société, culture et technologie dans le Maghreb Annales de l'université d'Oran, Numéro spécial, 4,1997.

Lemoine (M) : Le Monde Diplomatique, Mai, 2003.

Saïd (Ed): L'autre L'Amérique, le Monde diplomatique, Mars,2003.

---------- : L'humanisme, dernier rempart contre la barbarie, le monde diplomatique, Septembre, 2003.

_____:L'autre Amérique, Le monde diplomatique, Mais, 2003.

Salomon (R.H) et Nagel Quesnney : American Negotiating Behavior, United States Institute of Peace, 2010, in Le monde diplomatique, Avril, 2011.

ـــ الجرائد

جريدة الأهرام. القاهرة، من أعداد مارس 1967.

Baudrillard (J): Les violences de la mondialisation, in journal le Monde, Paris, 23 Janvier, 2004.

Haaretz (journal) :Chomsky (N) : Traitor and Enemy of the People, Israel,18mai2010.09.01.

Cypel (S): Edward Saïd, Un homme honnête, in Le quotidien d'Oran, 28 Septembre 2003.

La religion, sujet d’avenir, journal le monde, Paris, 5 Mai 2006.

فهرس الموضوعات

الفهرس

مقدمة

الفصل الأول: الإيديولوجيا و الفلسفة (العقيدة والحقيقة).....1_55

تقديم.....2_3

I.الإيديولوجيا، المصطلح والمفهوم.....3_5

1) تعريف الإيديولوجيا.....5_8

i.الإيديولوجيا و اليوتوبيا.....6_8

2) نماذج من تعريف الإيديولوجيا و اليوتوبيا.....9_30

3) الإيديولوجيا والمعارف الإنسانية.....31

4) الإيديولوجيا والعلم.....31_33

5) الإيديولوجيا والفلسفة.....33

II.الفلسفة .....33_36

1) تعريف الفلسفة.....33_36

2) الفلسفة والعلم والديمقراطية.....36_39

3) الفلسفة و الإيديولوجيا .....40_45

4) الالتقاء و الاختلاف بين الفلسفة و الإيديولوجيا.....46

أ.الإيجابيات.....46

ب.السلبيات.....46_47

_ الإيديولوجيا والفلسفة : تقارب و تباعد.....47_54

الفصل الثاني: الليبرالية و البراغماتية (المعرفة والعمل).....56 ــ114

I.الليبرالية.....56_68

أ.الليبرالية، الكلمة(اللغة).....58_57
ب.التعريف والمفهوم.....59_58
ج.الليبرالية،الجذور والتاريخ.....65_60
د.الأسس والأهداف.....67_65
ه.خصائص الليبرالية.....68
أ.الإيجابيات.....70_68
ب.السلبيات.....72_70
_ مشكل الليبرالية.....72
II. البراغماتية.....114_73
أ.البراغماتية، الكلمة (اللغة) والمصطلح.....76_74
ب.البراغماتية،الجذور والتاريخ.....77
ج.البراغماتية،التعريف و المفهوم.....78_77
د.الجذور.....86_79
ه.البراغماتية و نظرية المعرفة عند شارل سندرز بيرس.....98_87
و.ازدواجية المنهج أو الطريق إلي الحقيقة عند بورس.....104_98
ز. نقد البراغماتية البيرساوية.....107_104
ح.بين الليبرالية والبراغماتية.....114_108
أ.الايجابيات المشتركة.....109_108
ب.السلبيات.....114_109

الفصل الثالث الليبرالية و البراغماتية بين الفردانية والديمقراطية والدولة (المصالحة الصعبة)
I.من خصائص المجتمع الليبرالي.....125_116
1. الفردانية.....121_117.
أ.المصطلح والمعني.....119_117
ب.التفرد.....120_119

ج.أشكال الفردانية.....120_121
2. التطور التاريخي للفردانية.....121_125
أ.الفردانية في العصور القديمة.....121_122
ب.اليونان و الفردانية.....122
ج.المسيحية و الفردانية.....122_123
د.الإسلام و الفردانية.....123_124
ه. الفردانية في العصور الحديثة.....124_125
II.متطلبات الفردانية.....125_131
أ.الحرية و الفردانية.....125_127
ب.الفردانية والدولة.....127_130
ج.محاولات التصحيح الاجتماعي والسياسي للفردانية ولمتطلباتها.....130_131
III.البراغماتية بين الفردانية والديمقراطية والدولة .....132_163
أ.الفردانية و التعددية الفوضوية.....132_163
ب.البراغماتية والحرية الفردية.....164
ج. البراغماتية والدولة..... 165
الفصل الرابع: أمريكا ومرآتـــــــــــها المكسورة (بحثا عن إنسانية أمريكية جديدة)
I. الولايات المتحدة الأمريكية.....159ـ162.
أ.الجغرافيا.....167_168
ب.التاريخ.....168_170
ج. الثقافة.....170.
1. المرآة المكسورة..... 171_177
II.الإنسانية الأمريكية المفقودة.....178
1. ناعوم تشومسكي المثقف المنشق.....178_184
أ.حياته.....178_179
ب.مؤلفاته.....179_181
ج. المثقف المنشق.....181_184

2.ادوارد سعيد .....192_185
أ.حياته.....185
ب.مؤلفاته.....187_186
ج.ادوارد سعيد: أمريكا الأخرى.....192_188
3.محمد حسين هيكل.....193
أ.حياته.....193
ب. مؤلفاته.....187_186
ج.نحن و أمريكا..... 192_195
4.الإمبراطورية الأمريكية والإغارة علي العراق.....197
IV.أوباما أو البحث عن إنسانية أمريكية.....208_198

الفصـــل الخامـــس: العالم العربي بين الليبراليـــة و البراغماتيـــة.....229_210
I.الليبرالية و البراغماتية اليوم.....210
1. المثقفون الأمريكيون والليبرالية و البراغماتية.....210
أ.المؤكدون لاستمرار لدورهما في أمريكا وخارجها.....211_210
ب.المثقفون المهونون من دور كل من الليبرالية و البراغماتية.....211
II.العرب والليبرالية و البراغماتية.....212
1.موقف العرب من الليبرالية.....212
أ.العرب المؤيدون لليبرالية.....214_213
ب. العرب المتحفظين إزاء الليبرالية.....215_214
1)الشيخ محمد المبارك.....218_215
_الملكية.....218_217
2) محمد باقر الصدر: اقتصاد المجتمع الإسلامي.....219
أ. خصائص النظام الاقتصادي الإسلامي.....220_219
3) زكي نجيب محمود: البراغماتية فلسفة المستقبل (العربي).....224_221
ج.المعارضون.....224

فهرس الموضوعات

1.عبد الوهاب المستيري.....229_224

الخاتمة

1. فهرس الأعلام.
2. فهرس المصطلحات
3. فهرس المصادر والمراجع

أ. المصادر باللغة العربية والأجنبية0

ب. القواميس

ج. الدوريات

د. الجرائد